

Weghat Nazar - Volume 7 - Issue 74 - March 2005

مجلة شهرية. العدد الرابع والسبعون. السنة السابعة. مارس ٢٠٠٥. الثمن عشرة جنيهات

الفلسطيني الأخير
حسين أغا
وروبرت مالي

أوربا X أمريكا
توني يوت

ناطحات سحاب
وبيوت من رمل
إسماعيل سراج الدين

قراءة جديدة
لأندرسن وشوقي
يحيى الرخاوي

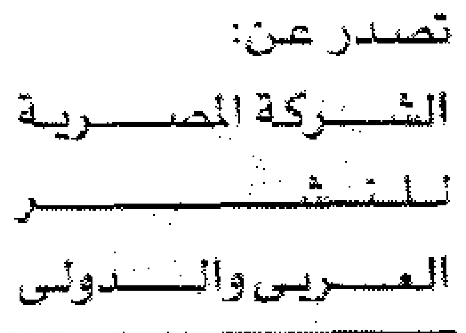
ما بعد الحريري..
لماذا نحن هنا ؟!
أيمن الصياد

أم كلثوم
إصدارات جديدة


أكثر من
٢٠٠٠ مصري
بيخدموك من القلب

السنة السابعة
العدد الرابع والسبعون
مارس ٢٠٠٥

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى
البحوث والمتابعة
هديل غنيم

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد



محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- إسماعيل سراج الدين .. مدير مكتبة الإسكندرية.
- إلياس سحاب.. ناقد موسيقى.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- تونى يوت .. أستاذ الدراسات الأوروبية بجامعة نيويورك.
- حسين آغا .. باحث فى كلية سانت أنطونى بجامعة أكسفورد.
- حمدى عزام .. دبلوماسى مصرى سابق.
- رباب المهدى.. باحثة سياسية بجامعة ماكجيل بكندا.
- روبرت مالى.. مدير قسم الشرق الأوسط وأفريقيا فى مجموعة الأزمات الدولية ومساعد سابق للرئيس كلينتون للشئون العربية والإسرائيلية.
- طارق الشناوى.. صحفى.
- فيكتور سحاب.. ناقد موسيقى
- كريستوفر دى بليج.. صحفى فى الإيكونوميست متخصص فى الشئون الإيرانية.
- مايكل تشابون.. مؤلف أمريكى.
- محمد السطوحى .. صحفى مصرى مقيم فى واشنطن.
- محمود الذوادى.. أستاذ علم الاجتماع. جامعة تونس.
- يحيى الرخاوى.. أستاذ الطب النفسى بجامعة القاهرة.
- يونان لبيب رزق.. أستاذ التاريخ بجامعة عين شمس.

رسوم العدد للفنان:
محمد حجى - سعد الدين شحاته - أحمد اللباد





المراسلات:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص . ب : ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - e-mail: weghat@alkotob.com

ثمن النسخة:
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١,٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

الفلسطينى الأخير..

حسين أغا و روبرت مالى



يقاس التحول الجذري، الذى تحدثه وفاة ياسر عرفات، فى المشهد الفلسطينى المعاصر، بما كان للرجل من ماضٍ سياسى جسد المشهد ذاته طوال حياته. كان عرفات، قيادة استثنائية توافقت بشكل استثنائى، مع حالة شعبه فى أعقاب حرب ١٩٤٨: مهزوم، منفى، مشتت، بلا دولة تحميه أو وطن يعيش فيه، أو استراتيجية سياسية توحده. عاش الفلسطينيون التقسيم، أسرة وطبقة وعشيرة. تناثروا فى أنحاء الإقليم، وما وراءه، عرضة للاستغلال، بفعل الأغراض المتصارعة للبعض، وفريسة لطموحات الجميع. وبقوة ما له من تاريخ وشخصية وكاريزما «حضور وجاذبية» ودهاء، أصبح عرفات بالحيلة والاستئساد، بالحظ والمناورة والصبر، الأكثر جدارة بالتعبير عن الفلسطينيين والممثل الشرعى لهم، أمام أنفسهم وأمام العالم.

كانت الوحدة الوطنية هدف عرفات الاسمى، وكان يؤمن بأن لا شىء يمكن أن يتحقق بدونها. كان هو الجسر بين فلسطينيى الشتات، وفلسطينيى الداخل، بين الذين شردوا فى عام ١٩٤٨. والذين عاشوا الاحتلال منذ عام ١٩٦٧. أهالى الضفة الغربية وغزة. كان الجسر بين الصغار والكبار، الأغنياء والفقراء، المتأرجحين والأتباع المخلصين، الحداثيين والتقليديين، أنصار الحرب ودعاة السلام، والإسلاميين والعلمانيين.

كان عرفات زعيماً وطنياً، رجل قبيلة، كبير عائلة، رب عمل، سامرياً «متعاطفاً»، ورئيس حركة وطنية علمانية كرس حياته، ويعمق، لكل ما كانه كى يصبح الرمز المبرز لكل جماعة من الجماعات المتباينة، حتى وإن تبنت هذه الجماعة، أو تلك، وجهات نظر معارضة. وكثيراً ما ووجه أسلوبه بانتقادات أو قوبل باستياء، لكن مكانته المبجلة نادراً ما كانت موضع شك. ولا يوجد الزعيم الفلسطينى الذى يستطيع أن يكون ما كانه عرفات. وجود هذا النموذج السياسى مرة ثانية يكاد يكون مستحيلاً تحت الاحتلال، ولا شك أنه غير مطلوب الآن.

الرجل الذى وقع عليه الاختيار لخلافة عرفات يختلف عنه فى وجوه كثيرة ويتشابه معه فى وجه واحد مهم: أبو مازن، مثله فى ذلك مثل عرفات، شخصية وطنية فلسطينية أصيلة ومتميزة ولكن بأسلوب مغاير بشكل جذرى. وبينما حقق عرفات مكانته الوطنية بالتماهى مع، والانتماء إلى، جماهير الناخبين ومصالح كل الجماعات، ابتعد أبو مازن، بأسلوبه، عن التماهى. غاص عرفات فى بحار السياسات المحلية لكن أبو مازن عام فوقها مكرساً نفسه فى خدمة الحركة الوطنية ككل، وشق طريقه إلى السلطة بشجاعة مثابرة وحضور معنوى ومادى ملموس كرجل قليل الكلام كثير الأفعال. هذا الرئيس الجديد، الذى صنع حياته السياسية بعيداً عن الأضواء المبهرة، ولد عام ١٩٣٥ وخرج من فلسطين عام ١٩٤٨. هو عضو مؤسس فى «فتح» وأمين عام اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية. كان مستشاراً لعرفات والمفاوض الرئيسى، من وراء الكواليس، منذ مؤتمر مدريد فى عام ١٩٩١. وإلى اتفاق أوسلو فى عام ١٩٩٣. كان أبو مازن المؤثر دائماً وغير المرئى فى معظم الأحوال. وكانت الفترة قصيرة العمر التى تولى فيها رئاسة الوزراء فى عام ٢٠٠٣. هى المرة الوحيدة التى احتك فيها بـ «الحكم». ومع رحيل عرفات وَلّت سياسات توازن القوى وبدأت سياسات اللمسة الخبيرة الفعالة.

لقد عاش عرفات فى عالم «بورجيسى» Borgesian [1]، حيث يتعايش الشىء وضده فى ذات اللحظة فى الفضاء والزمان، وحيث تكمن أهمية اللغة فى تأثيرها ووقعها، وليس فى معانيها الحقيقية، وحيث تختلط الأساطير بالحقائق ومنهما يتشكل الواقع. عالم أبو مازن أكثر ارتباطاً بما هو سائد ومعروف لمعظم الناس بـ «قانون الأشياء»، ولغته من النوع المقبول الأكثر قرباً إلى قاموس كل يوم. الواقع، عند أبو مازن، أكثر بعداً عن أشباح الماضى. وعوضاً عن السياسات والحماسة الخلاقة، يتبنى سياسات هادئة وحصافة واضحة.



يصل عمق الالتزام عند أبو مازن السياسى إلى درجة يمكن القول معها أنه، وإلى وقت قريب، لم يكن سياسياً على الإطلاق. سلوكياته لا تعرف النهج التآمرى، الأمر الذى يعد ملمحاً يحسب وراء نجاحاته العديدة وليس محطات فشله القليلة. وهذا ملمح أصيل نما داخل تكوينه الوجدانى والمزاجى. نادراً ما يخضع أو يعاود الكرة إذا ما صُدَّ أو تم تجاهله، يقوده فى ذلك إحساس عميق بالأخلاقيات، وبغض شديد للانحرافات السياسية، ويقين زائد بقوة المنطق. ولأنه يؤمن بقوة منطقه وأسبابه، وبأن «المنطق والسبب» يمثلان القدرة والنبراس للآخرين غيره، فمن المرجح أن ينتظر. بإيجابية. مجىء الوقت الذى يرى فيه الآخرون الأمور كما يراها هو. القدرة على التلاعب والخداع، أو التآمر، تكاد تكون معدومة داخله، وفى ذلك يكمن سبب عدم تسامحه لتلاعب الآخرين أو تآمرهم، كما يكمن أيضاً مفتاح علاقته مع عرفات: لم يتردد فى الاختلاف معه، واختار الابتعاد بدلاً من الصدام أو الحلول التوافقية. ولأن دوافعه، حتى وهو فى قمة غضبه، كانت صادقة وغير انتهازية، لم يفقد عرفات ثقته فيه، وكثيراً ما سامحه.

أبو مازن مسلم، أيضاً، شديد الورع. يؤدى فروض الصلاة كل يوم، ويصوم، ويقينه أن فروض العبادة لا يجب أن توظف فى أهداف دعائية وأنها ليست للعرض العام، ولديه حساسية إزاء دور الدين فى السياسة. وفى مفاوضاته الحالية الدائمة مع قادة حماس والجهاد الإسلامى، يتبلور هذا اليقين بوضوح لا تخطئه العين، وثقة كاملة فى أنه لا يقل إسلاماً عن أحد. وعندما يتحاور مع سياسى إسلامى لا يخاطب إلا السياسى فيه.

يتمسك أبو مازن بمجموعة مترابطة وجوهرية من المبادئ غير الراغب فى التنازل عنها أو إحداث توافق بشأنها. ففى خريف عام ١٩٩٩. وإثر انتخاب إيهود باراك كرئيس للوزراء فى إسرائيل، تقدم إلى المسئولين الأمريكيين بعرض مباشر من أجل اتفاق نهائى: دولة فلسطينية داخل حدود ٤ يونيو عام ١٩٦٧. القدس الشرقية عاصمة لها، واعتراف مبادئ بحق اللاجئين فى العودة. وفى إطار هذه الحدود الثابتة والمتوافقة مع الشرعية الدولية، ترك أبو مازن مساحة للحوار تسمح بأن تكون هناك مقايضات محدودة منصفة فيما يتعلق بالأرض، وتضع فى الحسبان بعض المستوطنات الإسرائيلية، وأوضاع تيسر لليهود ارتياد الأماكن المقدسة، وضمانات بأن إعمال حق العودة للاجئين لن يهدد المصالح الديموغرافية «الطبيعة السكانية» لإسرائيل. ووضع أبو مازن القبول المبدئى بهذا العرض شرطاً وأساساً لبدء المفاوضات، باعتبار أن عدم القبول به يعنى عدم وجود شرعية دولية أو سلام عادل. ولقد تجاهلت الولايات المتحدة هذا الشرط. وبدأ المفاوضات وتحولت إلى ما يشبه دروب السوق المليئة بالأداء والتقمص والصفقات غير المرتبطة بالمبادئ الجوهرية: تعددت، وتراوحت، نسب أراضى الضفة الغربية التى سيكون على إسرائيل إعادتها، وكذلك كان الحال فيما يتعلق بالأجزاء المقترح فرض السيادة عليها فى القدس الشرقية، وعدد من سيسمح لهم من اللاجئين بالعودة والاستقرار فى إسرائيل.

هذا الطراز من المفاوضات كان بغيضاً بالنسبة لـ «أبو مازن» الذى آمن بأن شيئاً جيداً لن يأتى من ورائه، وأدرك أن ما يقدم فى مواجهة العرض الفلسطينى هو «منتج» مضاد يغلق مجال التوصل إلى حلول وسط، أمام الفلسطينيين، ويقدم لهم آمالاً زائفة، وغير أمين بالنسبة للإسرائيليين.

إضافة إلى ذلك، اقترح أبو مازن، فى ربيع عام ٢٠٠٠. مفاوضات سرية بين شخصيات غير رسمية من الجانبين، لكن باراك رفض وتم اختيار مسئولين من مستويات أدنى لقيادة المفاوضات، فى حين نأى أبو مازن بنفسه بعيداً.

ورغم عدم ارتياحه لكيفية تقدم المفاوضات إلى وقت انعقاد قمة كامب ديفيد، كان «أبو مازن» من أشد المعارضين لانفجارة العنف التى أعقبتها. يرى «أبو مازن» أن العنف غير مفيد وغير مؤثر واستهانة باستخدام أضعف الأسلحة للإغارة على أقوى أجنحة الجيش الإسرائيلى. ينظر «أبو مازن» إلى العنف من زاوية شروط التكلفة والفوائد البحتة، ويرى أن التكلفة باهظة والفوائد لا تذكر: أوقف الإسرائيليون التفاهمات، اتخذت الولايات المتحدة مواقف منحازة، أدار المجتمع الدولى ظهره، وانهارت السلطة الفلسطينية.

ويؤمن «أبو مازن»، فى المقابل، بأن ما يجب أن يكون هو: مد حبال الحوار مع مختلف الجماعات السياسية الإسرائيلية، الحديث بلغة تفهمها واشنطن، وحشد العالم وراء الهدف الفلسطينى. وإلى أن يتم ذلك، على الفلسطينيين تهدئة الموقف، استعادة

عــن:
The New York Review of Books

ترجمة: جمال إسماعيل

النظام والقانون، كبح جماح الجماعات المسلحة، وبناء مؤسسات مركزية شرعية تتمتع بالشفافية. وفوق ذلك كله، وقف الهجمات المسلحة ضد إسرائيل. وفى تصوره أن من شأن الوسائل أن تلتقى والغايات: إذا تمكن الفلسطينيون من صناعة قضية عادلة يصبح بإمكانهم الحصول على آذان مصغية، وأن الانضباط الفلسطينى يولد المساندة من المجتمع الدولى، ومن الرأى العام الإسرائيلى على وجه الخصوص، وتأتى الاستجابة للمطالب المنطقية.

اعتقاد «أبو مازن» بوجوب تقديم الضغط بالمبادئ والإقناع، على العنف، يبدو كمغامرة محفوفة بالمخاطر فى نظر العديد من الفلسطينيين الذين يرون أن إسرائيل هى التى «عسكرت» المواجهة، وأن أرقام الضحايا تضاعفت، خلال الأسابيع الأولى للانتفاضة، بين الفلسطينيين وليس الإسرائيليين، وأن إسرائيل هى التى تنتهك كل اتفاق وقف إطلاق نار مبدئى يتم التوصل إليه، وأن توقف الفلسطينيين عن إطلاق النار من جانب واحد يعنى التخلى عن سلاحهم ويرفع الضغط من على إسرائيل فتمعن فى المساومة.

لكن موقف «أبو مازن» يستند إلى خبرة طويلة مع إسرائيل، تعود إلى منتصف السبعينيات وقت أن شكل «ثلاثى» منظمة التحرير الفلسطينية مع ياسر عرفات وخليل الوزير «أبو جهاد». وقتها أدار «أبو مازن» اتصالات مع إسرائيليين بدأت بين نشطاء من مناهضى الصهيونية واتسعت - بشكل تدريجى - لتضم بعض عرب إسرائيل، شخصيات من اليسار، ضباط جيش سابقين من المعتدلين، وأعضاء من حزب العمل الإسرائيلى. بعد اتفاق أوسلو، وسع «أبو مازن» اتصالاته لكى تشمل قوى أقل وضوحاً فى مواقفها لكنها أكثر صلة: الليكود، واليهود الأرثوذكس «التقليديون». ومن خلال هذا التبادل فى الآراء والمواقف، خرج باستنتاج مفاده أن المجتمع الإسرائيلى يعانى، بين قطاعاته، من عقدة خداع، لكن لديه بساطة تزيل النقمة، وأمنيات لا تتحقق إلا بالاستقرار والأمن. وإذا تخلى الفلسطينيون عن العنف وضغطوا بالمبادئ والإقناع، فإن الإسرائيليين سيرحبون، بلا حدود، بالموافقة على المطلوب من أجل سلام مستقر عادل. قناعة تحدث صدمة لبعض الفلسطينيين باعتبارها قمة السذاجة، لكنها تبدو، للآخرين، قمة «البراجماتية».



بعد أربعة أعوام من المواجهة المسلحة المدمرة والشاقة مع إسرائيل، ومع فقدان الزعيم الوحيد الذى يعرفه، أصيب الشعب الفلسطينى بصدمة شعر معها بالخوف والإنهاك. أصبح الجميع فى حالة مزاجية ملت الحرب، وأصبح «أبو مازن» الخيار الطبيعى والوحيد للجميع. هو لم يسع إلى حشد الأنصار حوله، ولم يواجه بمعارضة تذكر، وهو اليوم الفلسطينى الأخير صاحب المنزلة الوطنية والمصداقية التاريخية القادر على الحديث - بأصالة - باسم الجميع. أى زعيم آخر كان عليه - إذا أراد السلطة - أن يخوض غمار صراع طويل باهظ التكلفة. لهذا جاء انتخاب «أبو مازن» ممارسة للشرعية وليس مواجهة معها.

لقد التفت حوله الأكثرية

صاحبة المصالح المتعددة المتباينة. الأكثرية التى كانت تخشى أن تؤدى وفاة عرفات إلى مزيد من الاضطراب، ورأت فى «أبو مازن» الرمز الضامن للأمان والاستقرار. والأكثرية من الذين أنهكتهم الانتفاضة ووجدوا فى «أبو مازن» الزعيم الأكثر قدرة على تحقيق الهدوء وربما إدخال بعض التحسينات على أوضاعهم المعيشية. والأكثرية من المقاتلين الذين تطاردهم وتعتقلهم إسرائيل ورأوا فيه القادر على التفاوض من أجل عفو يسمح لهم باستئناف حياتهم الطبيعية. مجتمع رجال الأعمال الذى يدرك تفهم «أبو مازن» لاحتياجاته، وأنه يستطيع خلق مناخ أكثر دعماً للمصالح التجارية. وأعضاء الطبقة البيروقراطية، التى نمت فى ظل السلطة الفلسطينية، ويأملون أن يعيدهم «أبو مازن» إلى مواقعهم التى احتلوها بعد عام ١٩٩٣. وبالنسبة للاجئين الفلسطينيين فى الشتات، والذين يخشون تجاهل مصالحهم عند استئناف المفاوضات، فمن المؤكد أنهم يشعرون بارتياح لمعرفتهم بأصول «أبو مازن» الضاربة فى مدينة صفد، (الإسرائيلية الآن)، وبسجله النضالى خارج الأراضى المحتلة، ومساندته الطويلة لحق العودة. ثم هناك هؤلاء الذين لديهم حلقات مغلقة حول الرجل الذى يعتقد بأنه المكرس من قبل الولايات المتحدة، القوة الوحيدة الموضوعة فى الحسبان، والمفضل لديها الذى أصبح، بالنتيجة، انعكاساً للمفضل المتخيل لدى الآخرين.

ومع الانسحاب الإسرائيلى، المقرر من قطاع غزة، هناك ثقة مفتقدة بين فلسطينيى الضفة الغربية الذين يخشون انفصال القطاع، وأهالى غزة الذين يخشون سعى رفاقهم فى الضفة إلى تحرك يقود إلى انفصال. افتقاد ثقة وصل إلى مرتفعات جديدة، ورغم ذلك فإن الجانبين احتشدا حول أبو مازن مدركين أن مواقفه لن تمثل تهديداً لكليهما. وقد يتوقع البعض أن يقدم الجيل الجديد فى فتح على تحدى سلطة «أبو مازن»، لكن وتيرة نقل السلطة، وإجراء الانتخابات، جنبت القيادة احتمالات الانقسام، وأظهرت أن القيادات المستقبلية الشابة ترى فى «أبو مازن» زعامة غير مقيدة بأى فصيل بعينه وضمانة للاستمرارية، وأهم من ذلك كله تراه أفضل قيادة انتقالية قادرة على تهيئة الأوضاع الممهدة للوصول الطبيعى إلى السلطة. وفى الوقت نفسه، ينظر الكبار من أنصار عرفات، مثل أعضاء اللجنة المركزية لحركة فتح، إلى «أبو مازن» باعتباره الضامن لمصالحهم فى مواجهة أصحاب الطموحات من القيادات الشابة (القادمين الجدد).

«حماس» و«الجهاد الإسلامى» يدركان جيداً أن برنامج «أبو مازن» غير متناغم مع برنامجيهما وأنه يرفض العنف ووجود الجماعات المسلحة. لكنهما «حماس والجهاد» عاشا معه من قبل، وعلى ثقة أن بإمكانهما فعل ذلك ثانية، و«يعرفان» أن أسلوبه هو التعاون أو التحييد وليس التحطيم، وأن إسرائيل لن تمنحه فرصة عادلة وأنه سوف يفشل، وأن باستطاعتهما الانتظار إلى جولة مقبلة والاستفادة من لحظة استرخاء طال انتظارها. وفيما يتعلق بالولايات المتحدة، إسرائيل، أوروبا، والدول العربية، فاليقين أن «أبو مازن» لا يؤمن، وحسب، بالأجندة التى يتمسكون بها جيداً: وقف الهجمات المسلحة، بناء المؤسسات الفلسطينية، تأكيد حكم القانون، بل يُنظر إلى «أبو مازن» أيضاً، وبأهمية أكبر باعتباره الفلسطينى الوحيد القادر إلى حد بعيد على تنفيذ هذه «الأجندة».

وسط هذا العدد الكبير من الدوائر المحلية والدولية هناك قلة من الموالين المخلصين لرؤيته، والكثرة هم هؤلاء الذين يأملون أنه، فى نهاية المطاف، سيرى الأمور على طريقتهم. لكن «أبو مازن»، وفى الوقت الحاضر، لديه كامل الحرية. نسبياً. لكى يقول ويفعل ما يراه على طريقته. إنه، بلا شك، أكثر حرية مما يتوقع هو، أو يتوقع الآخرون، لأنهم هم الذين جاءوا إليه، ولم يذهب هو إليهم، والمراكز المتنافسة على السلطة، والتى وجدت من قبل، تبقى كامنة فى الوقت الحالى وغير راغبة فى، أو قادرة على، تشكيل معارضة منظمة أو فاعلة. والأكثر أهمية أن «أبو مازن» حقق مكانته لأن توجهاته السياسية اتسقت مع الأولويات الفلسطينية الملحة: الأمن والتطلع إلى حياة طبيعية محررة من الخوف من الهجمات الإسرائيلية والجماعات الفلسطينية المسلحة، تحسينات مادية واستئناف للأنشطة الاقتصادية الأساسية، حرية الحركة والحياة دون حواجز طرق ثابتة وحظر تجوال وإهانات. ومن السخرية أن الفلسطينيين يتطلعون الآن إلى أوضاع كانت سائدة ما قبل الانتفاضة، أوضاع تعد، إلى حد بعيد، مفجرة للانتفاضة، وفى يقينهم أن «أبو مازن» هو القادر على إرجاع الأوضاع إلى ما كانت عليه.



يبدو أرئيل شارون الآن، وقد كسب الجولة الحالية فى الصراع الإسرائيلى. الفلسطينى، وكأنه حقق طموحاته. كان هدفه، وضالته التى ظل ينشدها طوال حياته، أن يسأم الفلسطينيون صراعهم الوطنى وأن يؤدى إفقارهم وقنوطهم إلى تحويل تركيزهم بعيداً عن القضايا السياسية، إلى الاهتمامات الدنيوية الأكثر إلحاحاً والخاصة باحتياجات كل يوم. ولقد سبق أن توقع «أبو مازن» هذه المحصلة، ونادى بوقف الانتفاضة المسلحة عند بدايتها فى عام ٢٠٠٠. محذراً من أنها ستكون أكثر إيلاماً للفلسطينيين الذين سيكون عليهم العودة إلى المربع رقم واحد: وقف الانتفاضة وإعادة الإعمار، وهم أكثر انقساماً ومرارة وعزلة عن ذى قبل.

ويبدو «الإنهاك» الفلسطينى، فى الوقت الحاضر، وكأنه يخدم أهداف الرجلين (شارون وأبو مازن)، رغم الاختلافات الحادة فى نوايا كل منهما إزاء توظيف هذا الإنهاك: يرى شارون أن الإنهاك الفلسطينى يقدم وسائل، مرحباً بها، من شأنها «تفريغ» الحركة الوطنية من محتواها السياسى De politicizes أما أبو مازن فيرى فى الإنهاك فرصة، ومرحلة قبل أن تستطيع الأمة الفلسطينية إعادة تفعيل المحتوى السياسى على أسس جديدة.

لدى الزعيم الفلسطينى بصيص أمل فى إمكانية التوصل إلى تسوية شاملة مع أرئيل شارون، رغم المسافات البعيدة الفاصلة بينهما، والتى ليس أقصرها ما يفضله رئيس الوزراء الإسرائيلى: اتفاق فصل طويل المدى يضمن، وبشكل نهائى، وضع القضايا الصعبة جانباً، مثل قضايا الحدود النهائية، وضع القدس، ومصير اللاجئين. وفى ضوء مثل هذه النوايا المتباينة يبدو الوقت الحالى ليس بالوقت المناسب لاتفاق ثنائى بل لاتفاقيات أحادية الجانب: انسحاب إسرائيل من غزة وشمال الضفة الغربية، قيام الجانب الفلسطينى بإعادة ترتيب الأوضاع الداخلية، إعادة بناء المؤسسات، والحركة الوطنية نفسها، التخلى الكامل عن العنف، استعادة الصلات الدولية، والإعراب بوضوح عن المطالب الفلسطينية الأساسية غير القابلة للتغيير. ويعتقد «أبو مازن» أن الجانب الإسرائيلى غير المستعد الآن لمفاوضات تؤدى إلى تسوية دائمة، سيكون مستعداً لذلك فى مرحلة ما بعد شارون، وأن الشعب الفلسطينى يمكنه أن يحصد فوائد مرحلة الهدوء الذى طال انتظاره.

ويظل الدعم المتوافر حالياً لرؤية «أبو مازن» دعماً غير ثابت، وعرضة للتقلب، لأسباب تتجاوز مدى الالتزام بشخصه أو برنامجه، وتتعلق بـ «الحالة السائدة» وحالة الصدمة الراهنة بين الفلسطينيين من المحتمل أن تخبو، ويتلاشى خوفهم، ويزول عنهم الإنهاك فترتفع الأصوات بمطالب سياسية من إسرائيل مثل إطلاق سراح السجناء، وقف بناء المستوطنات، أو إنهاء الاحتلال. ومع مرور الوقت تصبح كثرة الخيارات، والإعداد كذلك، أمام «أبو مازن» مسألة حتمية. سوف ينفض من حوله الذين يؤيدونه بأنصاف قلوبهم، تظل إمكانية وجود معارضة منظمة ومؤثرة، وتكثر الدعوات المطالبة بالعودة إلى العنف. ويأمل «أبو مازن» أن يكون قدم، مع مجيء ذلك الوقت، مكاسب ملموسة ناجمة عن الاستقرار وإعمال النظام والقانون وتحسين مستوى المعيشة وحرية الحركة: تراكمات تضاف إلى رصيده السياسى وتحدث التوازن ما بين المؤيدين لبرنامجه، والمعارضين له فى الدوائر الانتخابية.

ويحتاج «أبو مازن» لكى ينجح إلى مساندة المجتمع الدولى، وخاصة الولايات المتحدة، لكى يتمكن من الوصول إلى ما هو أبعد من التحسينات المادية للأوضاع الفلسطينية. إن إنهاء العنف، وإصلاح المؤسسات وإعمال القانون والديمقراطية، أهداف يؤمن بها «أبو مازن» ويدرك، بعمق، أن تحقيقها هو فى صالح شعبه، لكنه يرى فيها - أيضاً - فائدة «إضافية» ومهمة، وهى أن يضع الرئيس بوش فى اختبار ويواجهه بكلماته. ولأكثر من مرة قال بوش إن كبح جماح الجماعات المسلحة و«دمقرطة» المجتمع الفلسطينى سيؤديان إلى حل وإلى قيام دولة فلسطينية. ويرى «أبو مازن» أن قيام



بفقدان الزعيم الوحيد الذى يعرفه، أصيب الشعب الفلسطينى بصدمة شعر معها بالخوف والإنهاك. أصبح الجميع فى حالة مزاجية ملت الحرب، وأصبح «أبو مازن» الخيار الطبيعى والوحيد للجميع



الجانب الفلسطيني بما عليه من التزامات يعني أن تفي الولايات المتحدة بالتزاماتها وتمارس ضغطًا على إسرائيل من أجل الاعتراف السياسي الذي يحتاجه بشدة لقيام الدولة الفلسطينية».

يعتقد «أبو مازن» أيضًا أن الوضع الأكثر هدوءًا، والمغاير للوضع الراهن، يمكن أن يحدث تغييرًا داخل إسرائيل يسفر عن ضغط داخلي من أجل اتفاق شامل، وأن السعي إلى إحداث هذا التغيير، بالسرعة الكافية، سوف يمكنه من السيطرة على نفاد الصبر الفلسطيني وتجنب العودة إلى المواجهات المسلحة.



خلاصة الأمر أن «أبو مازن» يرى أن عليه الدفع باتجاه خلق حركة كافية، وبالسرعة الكافية، من إسرائيل، ومن المجتمع الدولي. حركة شبيهة بتلك التي حاول خلقها، دون جدوى، في مستهل فترة رئاسته للوزراء، وإن تميزت بثلاثة مستجدات حيوية: رحيل عرفات، اختياره للخلافة وانتخابه، والفارق الزمني بين المحاولتين والذي ربما يكون سمح للولايات المتحدة وإسرائيل بتأمل الدروس المستفادة من تلك المحاولة السابقة المشئومة، والعمل بها.

هنا، أيضًا، يبدو وجه اختلاف آخر، وملموس، ما بين «أبو مازن» وعرفات. ففي الوقت الذي يقف فيه الأول، حيث يقف الآن، بفعل تناغم «المزاج السائد» مع برنامجه، نجد أن الثاني قد جاهد طويلاً، ودون كلل، لكي يحقق التناغم مع «حالة المزاج السائد». لقد ضمن عرفات أن مكانته محصنة إزاء تقلب الأحداث وذلك بالاشتباك النشط مع كل دائرة انتخابية، في حين أن الوضعية التي ضمنها «أبو مازن»، بالارتفاع فوق الشاحنات، تظل وضعية مقيدة بالأحداث وتقلبها. ورغم تمتعه الآن بسلطة تكاد تكون مطلقة، والاحتمال الأكبر أنها مؤقتة، لكن «أبو مازن» محرر من عبء الحاجة إلى إرضاء كل دائرة انتخابية. هامش المناورة يتسع أمامه بشكل ملحوظ، لكن الإجماع الذي تشكل، بسرعة، حوله، سرعان ما يتبخر ويتلاشى إذا ما تغير المزاج السائد، وفشلت الولايات المتحدة في الضغط على إسرائيل، أو فشلت إسرائيل في الاستجابة.

تحديان إضافيان، متناقضان، يواجهان «أبو مازن»: الأول: أن الفلسطينيين لديهم قناعة في قدرة الولايات المتحدة على أن تحصل من إسرائيل على ما لا يستطيعون هم الحصول عليه. وهذه القناعة تقترن الآن بإدراكهم أن رصيد «أبو مازن» الأساسي مستمد من سمعته أو مكانته الدولية أكثر من مصداقيته المحلية، وهم ينتظرون منه أكثر مما كانوا ينتظرون من عرفات. التحدي الثاني يتمثل في أن عودة أبو مازن، وإلى الآن، تعد نتيجة للإنهاك الشعبي. وكلما نجح «أبو مازن» في تحسين الموقف، كلما خف الإنهاك وزاد المطلوب منه. فلسطينيًا. وكبرت مخاطر انفضاض الدعم الشعبي من حوله.

وبين الألغام الكامنة هنالك لغمان يرقدان، مباشرة، أمام «أبو مازن». الأول يكمن في انسحاب إسرائيل من غزة. الانسحاب خطوة لا يستطيع معارضتها. ولأول مرة، في تاريخ الصراع، ترد الأرض إلى الفلسطينيين ويتم إخلاء المستوطنات. وغزة الحرة من التواجد الإسرائيلي سيعاد إعمارهما وتتحول إلى نموذج أمام بقية الأراضي المحتلة. لكن غزة هذه تعني أمرًا ليس في مقدور «أبو مازن» احتضانه بسهولة: خشية الكثير من الفلسطينيين من قيام إسرائيل، مع توجه كل الأنظار إلى غزة والانسحاب منها، بتكثيف أشد لكتل المستوطنات داخل الضفة الغربية وأجزاء داخل المنطقة الاستراتيجية من القدس، والاستمرار في بناء الجدار العازل، وكل ذلك في إطار خطة مشبوهة هدفها فرض حدود الأمر الواقع، التي تقسم الضفة إلى «كنتونات». الموازنة بين الحالتين، وما بهما، ولهما، من اعتبارات، ربما تجعل «أبو مازن» يحبذ الانسحاب من غزة كإنجاز يعد جزءًا من خريطة الطريق، ويحتفظ بالتنسيق مع إسرائيل في حده الأدنى، محولاً زخم الاهتمام الدولي إلى الضفة الغربية.

اللغم الثاني الذي يعرفه «أبو مازن» ويعرف أنه موجود بالقرب منه، يتمثل في اقتراح إسرائيل الخاص بإقامة دولة فلسطينية، بحدود فاصلة، في غزة وأجزاء من الضفة الغربية. وقد تؤدي «اللهفة» السائدة لتحقيق إنجاز سياسي، و«الهوس» بأمر البناء المؤسسي، إلى ممارسة الولايات المتحدة، وأوروبا، الضغط على «أبو مازن» لكي يوافق على الاقتراح الإسرائيلي. كما أن بعض الدول العربية، المتلهفة على الاستقرار، قد ينضم إلى «كورس» الضغط. لكن ما يراه البعض كاعتراف إسرائيلي بدولة فلسطينية، يراه أبو مازن كفخ ومحاولة لتنفيس الصراع وتفريغه من قواه المعنوية وتحويله إلى نزاع حدودي بسيط قابل للاحتواء، وإرجاء للتسوية الشاملة. ومن المؤكد أن «أبو مازن» سوف يناضل من أجل إيجاد الوسائل الكفيلة لضمان المساندة الدولية في مواجهة الاقتراح الإسرائيلي. كيف؟ لا أحد يعرف، وهو نفسه لا يعرف.

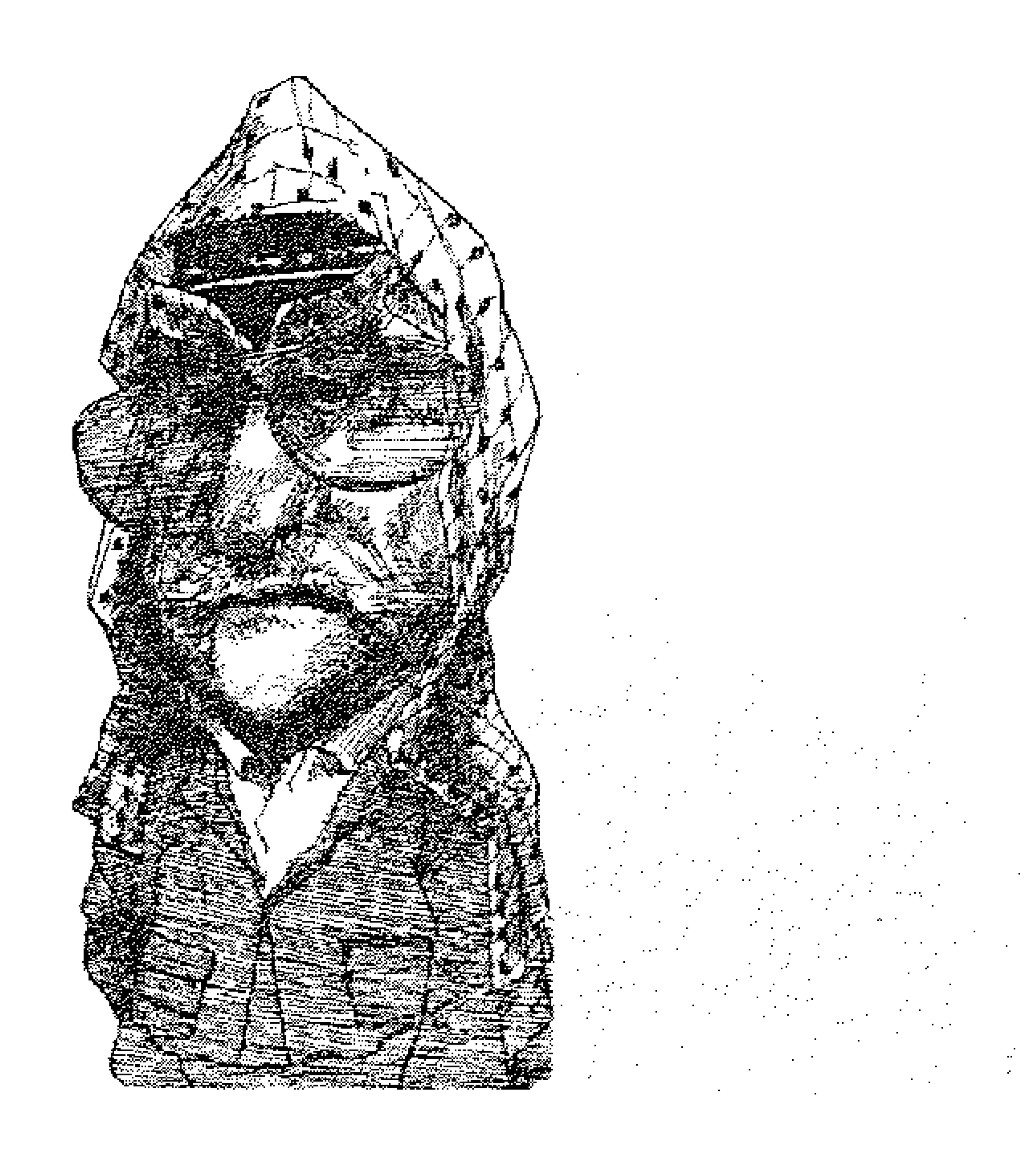


لا شك أن «أبو مازن» سوف يتأثر بالسلطة كما تأثر بها، من قبله، كل من مارسها. وقد كان عليه، بالفعل: اكتساب، أو اختلاق، نكهة للخطابة وحشد الجماهير، والتي اشتهر بها عرفات. وأكثر من ذلك، يتطلب بقاء «أبو مازن» السياسي، أداء صارم التوازنات من النوع الذي يمقته بطبيعته. وبدلاً من ذلك سوف يصب جهده على إجراء تحسينات مادية، دون إهمال للقضايا السياسية، وأن يحوز ثقة الإسرائيليين والأمريكيين دون أن يفقد ثقة حماس أو الجهاد الإسلامي، أن يفرض الانضباط على الجماعات المسلحة دون تحطيمها، وأن يحافظ على وحدة «فتح» دون أن تعيقه، أن يستجيب لطلبات واشنطن دون أن يظهر كراضخ لكل رغباتها، وأن يضع نهاية للعنف دون أن يبدو كخاضع لإسرائيل، وأن يباعد - بطبيعة الحال - بينه وبين أسطورة عرفات، دون انفصال عنها. والتحدي الأساسي سوف يصبح، مع مرور الوقت، ما إذا كان في إمكانه التوفيق بين هذا الكم من التوقعات التي يجسدها الآن، وتفعيل الدعم، الفاتر بعض الشيء، الذي يحظى به حاليًا من جماعات كثيرًا ما تصارعت. في هذا السياق يمكن القول إن نتائج الانتخابات أسفرت إما عن مبالغة في تقدير قوته، أو إساءة تقدير لها.. إن نسبة «الأكثر من ٦٠ بالمائة» لا تعني أن كل من أعطاه صوته يبارك برنامجه، كما أن نسبة «الأكثر من ٣٠ بالمائة» التي لم تنتخبه لا تعني أن الذين لم يصوتوا له يشكلون وحدة مترابطة، أو معارضة مؤثرة.

هناك أيضًا سلسلة تساؤلات تبحث عن إجابات: ماذا سوف يحدث إذا لم يستطع «أبو مازن» أن يحقق ما تطلبه الولايات المتحدة وإسرائيل؟، وماذا سوف يحدث إذا لم يقدم بوش وشارون ما يحتاجه أبو مازن؟ ماذا لو أن «أبو مازن» غير قادر على التوصل إلى اتفاق مع حماس، الجهاد الإسلامي، ومسلحي فتح، أو توصل إلى اتفاق لم يستمر، أو استمر لكن إسرائيل استمرت في هجماتها العسكرية؟ ماذا لو أن التوافق السياسي الهش انهار من حوله، أو اندلع العنف بين المتنازعين؟

خلال توليه لمنصب رئيس الوزراء في عام ٢٠٠٣. في الوقت الذي نال فيه التأييد من الولايات المتحدة، الأمم المتحدة، أوروبا، والكثير من دول العالم العربي: وقتها تساءلنا: لماذا شعر «أبو مازن» بأنه وحيد وهو وسط كل هذا الحشد[٢]. لقد كان يتحرك وقتها دون مساندة شعبية، ومع وجود معارضة معتبرة، وفي حضور، وظل، «أب» مؤسس وطاغ. بعد ذلك بعام ونصف العام ذهب الأب وأصبح «أبو مازن» أملاً لتحقيق عدد لا يحصى من الرغبات المتعذرة: فهو الحامي والمنقذ، الشخصية الانتقالية وأفضل وآخر من تتطلع إليه أجيال فلسطينية. هو «الشيطان الذي نعرفه» بالنسبة للبعض، و«أهون الأشرار» للبعض الآخر. أصبح «أبو مازن»، بالنسبة للفلسطينيين، هو كل هؤلاء، وفي لحظة أصبح مزدحمًا مشغولاً ولم يعد وحيدًا أو معزولاً. وعندما ينظر إلى ما ينتظره، فيما بعد، لابد أنه يتعجب ويتساءل: من أين جاء كل هؤلاء الناخبين؟، وكم من الوقت سوف يقفون خلفه؟، وماذا فعل لكي يستحق صحبتهم الغزيرة المتدفقة والتي كثيرًا ما تكون ثقيلة باهظة؟ ■

يبدو «الإنهاك» الفلسطيني، في الوقت الحاضر، وكأنه يخدم أهداف الرجلين (شارون وأبو مازن)، رغم الاختلافات الحادة في نوايا كل منهما إزاء توظيف هذا الإنهاك



هوامش:

(١) Borgesian، نسبة إلى جورج لويس بورجيس (١٨٩٩ - ١٩٨٦) الكاتب والشاعر والروائي الأرجنتيني الذي تميزت أعماله الإبداعية بإعمال الاستعارة والمجاز. المترجم.
(٢) يشير الكاتبان إلى دراسة لهما بعنوان The Menin a Boat نشرتها مجلة The New York Review (اغسطس ٢٠٠٣).

كتاب يقرؤه بوش



محمد السطوحي



- إن العدل لا يمكن أن ينتظر حتى تتحقق الديمقراطية.

- لا يوجد عدل بدون ديمقراطية.

العبارة الأولى للكاتب الصحفي الأمريكي المحافظ بات بيوكانان، أما العبارة الثانية فكانت الرد الجاهز لناتان شارانسكي الوزير في الحكومة الإسرائيلية وصاحب أشهر الكتب السياسية الصادرة مؤخرا في الولايات المتحدة بعنوان «دفاعا عن الديمقراطية».

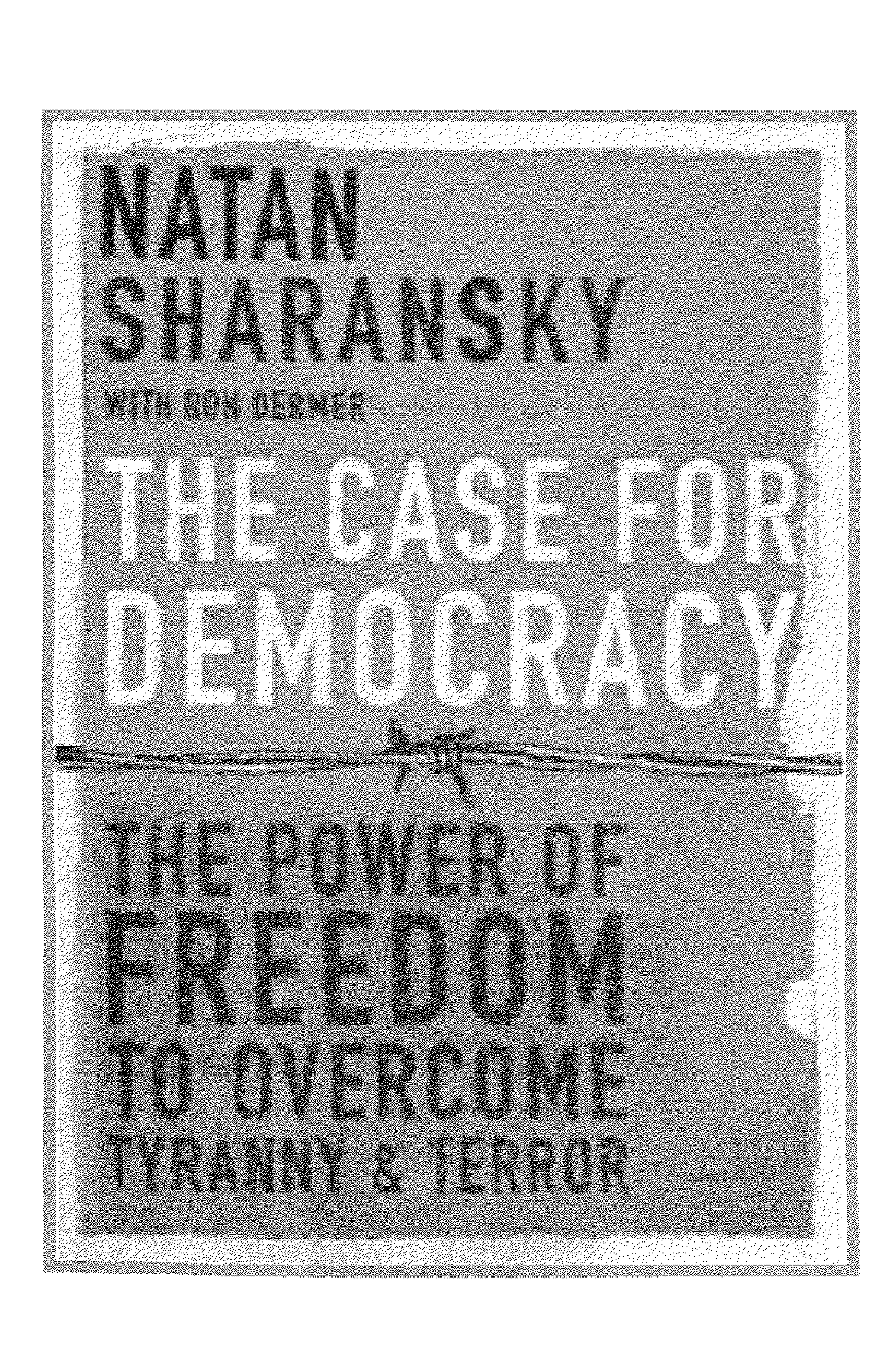
وقد وردت هاتان العبارتان في نهاية مناظرة ممتعة لبيوكانان وشارانسكي في برنامج شبكة NBC التليفزيوني الشهير «واجه الصحافة».

والعبارتان على اختزالهما الشديد، إلا أنهما تلخصان إلى حد كبير مجمل الجدل الدائر بشأن كتاب شارانسكي، خاصة عند تطبيق ما ورد فيه من أفكار على قضية الصراع العربي الإسرائيلي والقضية الفلسطينية.

فقد انتقد بيوكانان السياسات الإسرائيلية الخاصة باستمرار احتلال الأراضي الفلسطينية وبناء المستوطنات، مؤكدا أن سياسة التدخل والاحتلال هي التي تولد العنف والإرهاب، مشيرا إلى أن العنف انتهى في الجزائر بنهاية الاحتلال الفرنسي، وانتهى في أفغانستان بنهاية الاحتلال السوفيتي، وفي لبنان بنهاية الاحتلال الإسرائيلي، ويطالب بيوكانان إسرائيل بعمل الشيء ذاته بالانسحاب من الضفة الغربية وقطاع غزة لإنهاء العنف والمشكلة بشكل نهائي، مؤكدا أن تحقيق السلام لايتطلب بالضرورة قيادة ديمقراطية.

أما شارانسكي فيرد بأنه لا يمكن تحقيق السلام بدون وجود ديمقراطية فلسطينية وعربية، وعندما يسأله بيوكانان عما إذا كان مستعدا عندها للانسحاب من كل الضفة الغربية وغزة، يرد بعبارة مطاطة أنه سيكون من الممكن التعايش عندها بين الجانبين وأن التنازلات يجب أن تكون بحجم ما تحقق من ديمقراطية. وهو معيار غريب يعني أن الفلسطينيين يجب أن يتحولوا إلى سويديين إذا كان لهم أن يحصلوا على حقوقهم كاملة، بل ربما يخرج عندها السيد شارانسكي بتحفظاته أيضا على شكل الديمقراطية السويدية.

مثل هذا الحوار بين بيوكانان وشارانسكي ما كان يمكن أن يلفت الأنظار، بل ربما كان من غير المرجح حدوثه من الأساس في الظروف العادية، فشارانسكي أصدر هذا الكتاب منذ أشهر عديدة، لم يلفت فيها نظر



The Case for democracy: The power of freedom to overcome tyranny and terror

دفاع عن الديمقراطية

Natan Sharansky

public Affairs 2004.

الكثيرين، كما وجد فيه البعض عيوبا منهجية سنتعرض لها فيما بعد. إلا أن الاهتمام تفجر فجأة بالكتاب وصاحبه بعد أن ذكر الرئيس بوش في مقابلة مع صحيفة واشنطن تايمز أن كتاب شارانسكي يعبر بشكل دقيق عن فلسفته في الحكم وضرورة نشر الديمقراطية في أنحاء العالم، ودعا بوش الناس لقراءة «هذا الكتاب العظيم» الذي وصفه بأنه يمثل الـ DNA أو الحامض النووي لرئاسته. ولم يكتف بوش بذلك، بل إن خطاب توليه السلطة في يناير الماضي، يليه الخطاب الهام عن حالة الاتحاد، اعتمدا بشكل أساسي على ما جاء في هذا الكتاب من أفكار بل أحيانا كان يتم نقل عبارات منه بطريقة تبدو حرفية. عندها انطلق الجميع بحثا عن الكتاب لعل وعسى يفهمون منه ما ينتظرهم في السنوات الأربع القادمة. وقد كنت أنا شخصيا من هذه الفئة الأخيرة التي انتظرت هذا المرسوم الرئاسي البيضاوي، وأعترف أنني بدون ذلك ربما ما خطر لي إدخال مبلغ سبعة وعشرين دولارا في جيب شارانسكي وناشره، إلا أن اهتمامي على مايبدو جاء متأخرا، ووجدت صعوبة في العثور على نسخة من الكتاب بعد أن نفد تقريبًا في العديد من مكتبات منطقة واشنطن التي بحثت فيها هاتفيًا، إلى أن عثرت عليه في مكتبة في إحدى ضواحي العاصمة فطلبت حجز نسخة لي حتى لا تباع قبل وصولي إليها، وهناك وجدت بالفعل عدة نسخ أخرى محجوزة لآخرين.

الديمقراطية والسلام:

وقبل أن أعرض لما جاء في الكتاب أود أن ألفت النظر إلى أنني حاولت قدر المستطاع أن يأتي العرض دون تدخل كثير أو تعليق من جانبي، وذلك لكي أعطي القارئ الفرصة للاطلاع على أفكاره كما هي، ثم أبقيت تقييمي للكتاب في نهاية المقال.

غير أن قراءة كتاب شارانسكي في ذاتها لا تقدم الكثير دون الوقوف قليلا عند سيرته الذاتية، فهي التي يستمد منها ما يعتبره مؤيدوه مؤهلات شخصية فريدة تعطيه حق تلقين العالم هذه المحاضرة عن قيمة وأهمية الديمقراطية.

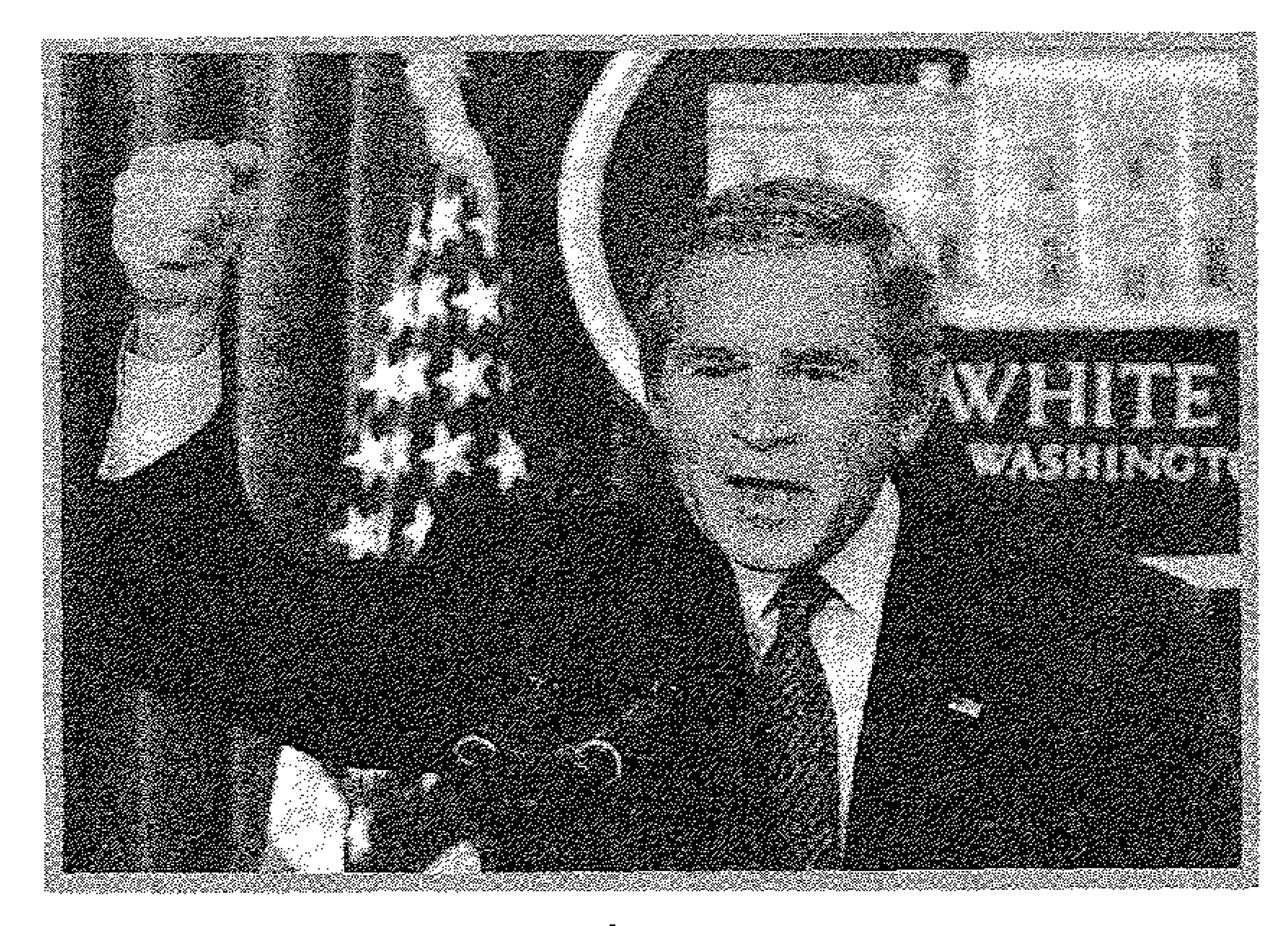
فقد ولد شارانسكي في أوكرانيا عام ١٩٥٤ حيث كانت لاتزال جزءا من الاتحاد السوفيتي قبل انهياره في بداية التسعينيات من القرن الماضي. وقدم طلبا للهجرة إلى إسرائيل عام ١٩٧٣ فرفض لأسباب أمنية، فأصبح ناشطا صاخبا ضمن حركة يهودية معارضة في موسكو مما أدى إلى اعتقاله عام ١٩٧٧ ثم إدانته بالتجسس لصالح الولايات المتحدة والحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثة عشر عاما، قضى منها شارانسكي نحو عشر سنوات، نظمت فيها أكبر حملة من نوعها للإفراج عنه، شارك فيها الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجان، إلى أن اضطر الرئيس ميخائيل جورباتشوف للإفراج عنه، ضمن صفقة تم

فيها تبادل الإفراج عن بعض الجواسيس من الجانبين. وهاجر بعدها شارانسكى إلى إسرائيل حيث استقبل فيها كبطل قومى وصار صاحب نفوذ هائل فى الحياة السياسية نظرا لدوره فى توجيه أصوات الناخبين من المهاجرين السوفييت إلى إسرائيل وعددهم يتجاوز المليون، أغلبهم من المتعلمين وأصحاب الخبرات العلمية والعملية الكبيرة، كما أن مواقفه من عملية السلام تحسب على تيار المتشددين فى الساحة السياسية داخل إسرائيل، وهو ماسنعرض له فيمابعد.

وما يقوله شارانسكى ببساطة هو أن الطريق الوحيد لتحقيق السلام وتأمينه فى العالم كله وفى العالم العربى على وجه الخصوص هو طريق الديمقراطية. وهو فى ذلك يعلن مخالفته للمفاهيم التى يروج لها بعض السياسيين بأن التغيير غير مضمون العواقب وأن التعامل مع الديكتاتوريات القائمة هو ضمانة الاستقرار والحل الأمثل والمضمون.

ولشرح وجهة نظره، يقول شارانسكى إن الحرب ضد الإرهاب ليست مقصورة على منظمة القاعدة لمسئوليتها عن هجمات سبتمبر، لكن أهدافها تمتد لتشمل إزاحة مصادر التهديد الإرهابى وبصفة خاصة الإرهاب الإسلامى الأصولى، بما يضمن أمن العالم الحر، وهذا يقتضى حسب قوله أن يتم بناء مجتمعات حرة فى الشرق الأوسط،ويشير إلى أن ذلك يمثل بالنسبة للرئيس بوش ورئيس الوزراء البريطانى تونى بلير أحد عنصرين لاستراتيجية مكافحة الإرهاب: فالعنصر الأول أو المرحلة الأولى تتضمن إنهاء مساندة الدول للإرهاب، أما الثانية فتكون بتغيير الأنظمة المؤيدة للإرهاب بحكومات ديمقراطية.

ويرفض شارانسكى فكرة أن الانتصار فى الحرب ضد الإرهاب يتطلب فقط استهداف المنظمات الإرهابية وتجفيف ينابيع الإرهاب ومصادر تمويله، حيث يرى مؤيدو هذا الرأى أن إسقاط الأنظمة غير الديمقراطية ليس ضروريا لتحقيق النصر، وبالتالى فلا يجب التمسك بإسقاطها إلا إذا شاركت مباشرة فى عمليات إرهابية. ويرد على ذلك بأن ظاهرة الإرهاب ترتبط أساسا بغياب الديمقراطية. وهو فى ذلك يكرر أيضا ماقاله آخرون من بينهم الكاتب الصحفى المعروف توماس فريدمان بصحيفة نيويورك تايمز،الذى كثيرا مايضرب مثالا بأن ثانى أكبر كتلة سكانية إسلامية هى الهند، لكننا لم نر تلك الظاهرة الإرهابية من مسلمى الهند، لأن الديمقراطية الهندية أعطتهم مساحة الحرية التى تستأصل جذور الإرهاب. غير أن شارانسكى يمضى خطوة أبعد من ذلك ليؤكد على ضرورة تدخل ما يصفه بالدول الحرة من أجل ضمان نشر الديمقراطية فى المناطق التى تحكمها أنظمة مستبدة، وبصفة خاصة فى منطقة الشرق الأوسط التى يقول إنه لا يوجد بها نظام ديمقراطى واحد باستثناء إسرائيل.



بـــــوش



شـــارانســـكى

وينفى مقولة إن ما يحدث داخل الدول الأخرى لا علاقة لنا به طالما لا يؤثر على السلام والأمن الدوليين، مؤكدا أن هجمات الحادى عشر من سبتمبر أنهت بشكل قاطع تلك الحجة، بحيث أصبح نشر السلام ومنع الإرهاب مرتبطا تماما بنشر الحرية والديمقراطية. ويركز شارانسكى على السعودية التى يرى الكثيرون فى الغرب أن المهم بالنسبة لها هو الاستقرار وليس الديمقراطية، لكن هجمات سبتمبر كما يقول أكدت أن ثمن الاستقرار فى الدول غير الديمقراطية هو انتشار الإرهاب خارجها. ويشيد بكل من الرئيس بوش ورئيس الوزراء البريطانى تونى بلير لما أظهراه من تصميم على تحقيق الديمقراطية فى العراق وأفغانستان وبقية دول الشرق الأوسط.

ويرد شارانسكى على من يقولون إن نشر الديمقراطية غير ممكن فى بعض المناطق والثقافات، فى إشارة للعالم العربى، وهو فى ذلك يستخدم عبارات وأمثلة مشابهة تماما للتى يستخدمها الرئيس بوش فى حديثه عن التحول الديمقراطى فى كل من ألمانيا واليابان رغم شكوك الكثيرين فى إمكانية ذلك بعد الحرب العالمية الثانية. ويبرر شارانسكى تفاؤله بشأن العالم العربى فقط بأن هناك رغبة عامة فى الطبيعة البشرية وبين كل الشعوب تجعلها تفضل الحرية على الخوف والاستبداد، وهو يقول ذلك بعد مراجعة الآراء التى تشير إلى أن العرب مختلفون. فهم فى منطقة (كما يقول) تتميز بالوحشية، ولم تشهد الديمقراطية فى تاريخها، وعندما كان الناس يضيئون الشموع فى لندن وسول و فى تل أبيب، حزنا على ضحايا مذبحة سبتمبر، كان الناس يرقصون فى رام الله وبغداد، كما أن أسامة بن لادن يعد بطلا بالنسبة لعشرات الملايين من المسلمين. ثم ينقل الكثير من المقولات التى تربط بين الدين والدولة فى الإسلام بما يجعل من غير الممكن الفصل بينهما طبقا لمقتضيات الليبرالية الديمقراطية، كما أن المسلمين طبقا لهذه الآراء التى يعرضها يتخلفون بسنوات ضوئية عن الغرب فى أسلوب معاملتهم المرأة والتمييز ضدها، كما أن تعايش المسلمين فى ظل الديمقراطية فى الغرب يمكن الرد عليه حسب قوله بأنهم أقلية مضطرة لذلك. أما وجود الديمقراطية فى بعض الدول الإسلامية حاليا فيمكن القول إنها فقط تمر بمرحلة ديمقراطية عابرة فى ظل مسلسل طويل من الاضطهاد والاستبداد والانقلابات العسكرية. والمدهش بعد كل هذه القرائن التى تشكك فى إمكانية انتشار الديمقراطية فى العالم العربى بما فيها من إساءة لهم وتشويه لتاريخهم، يعود شارانسكى ويقول إنه لا يزال يؤمن بإمكانية انتشار الحرية والديمقراطية فى المنطقة، ليس لأن كل ما يقال خطأ، فهو صحيح من وجهة نظره، لكنه لا يغير من ثقته فى اختيار الشعوب للحرية وليس الاستبداد.

مجتمع الحرية ومجتمع الخوف:

كعادته فى كل فصول الكتاب يتحدث شارانسكى عن قضية ما بشكل عام، ويعرض تجربته السوفيتية بشأنها ثم يعود فيسقط كل ذلك على المشكلة الفلسطينية، وصولا إلى النتيجة التى يسعى لتأكيدها طوال الوقت: وهى أن انعدام الديمقراطية الفلسطينية هو المشكلة، وأن الحل يكمن فقط فى وجود هذه الديمقراطية.

فى هذا الفصل يقول شارانسكى إن الشعوب فى مجتمعات الخوف تنقسم إلى ثلاث جماعات: الأولى مؤمنة بالنظام القائم والأفكار السائدة وتستفيد منها، والثانية تعارضها صراحة. أما الثالثة فهى لا تؤمن بالأيديولوجية السائدة لكنها تخشى المخالفة وتقول مالا تؤمن به تماشيا مع السلطة وسطوتها، وهى تمثل الأغلبية. كما يتحدث عن عمليات غسيل المخ التى تقوم بها السلطات فى مجتمعات الخوف. وهنا ينتقل إلى الفلسطينيين الذين ساعدهم الحكم العسكرى الإسرائيلى فى رأيه على التعرض للديمقراطية فى إسرائيل. إلا أنه مع نقل السلطة إلى ياسر عرفات والسلطة الفلسطينية فإنها بدأت فى عملية غسيل المخ، بتحريض الفلسطينيين على كراهية إسرائيل، وتدريب أطفال الحضانات على العمليات الانتحارية. ويضيف أن كثيرا ممن يتحدثون علنا بين الفلسطينيين عن كراهية إسرائيل ومواجهتها هم من الفئة الثالثة التى تقول مالا تضمر تفاديا لنقمة السلطة الفلسطينية التى تتحكم فى معاشهم وأرزاقهم. إلا أن شارانسكى يؤكد أيضا محدودية تأثير عمليات غسيل المخ، ويشير إلى ظاهرة وجود تأييد أكبر للولايات المتحدة بين الشعوب التى تحكمها أنظمة معادية لواشنطن كما هو الحال فى إيران. أما فى دول مثل مصر والسعودية، فإن كراهية أمريكا تزداد لأنها تؤيد الأنظمة الحاكمة فيها.

لا سلام مع مصر:

يقول شارانسكى إنه لا يمكن تحقيق السلام مع الأنظمة الديكتاتورية، وإنه عندما يذكره بعض الإسرائيليين بأن السلام تحقق مع مصر منذ

عام ١٩٧٩، فإنه يرد عليهم بأن فترة الهدوء على الجبهة المصرية واكبها هدوء آخر على الجبهة السورية دون معاهدة سلام. ثم يؤكد أن الهدوء في الحالتين يعود لقوة الردع الإسرائيلية. ويدعي شارانسكي أن الحكومة المصرية تشجع الناس على كراهية إسرائيل، والسبب من وجهة نظره هو خلق العدو الخارجي من أجل استمرار الاستقرار الداخلي وسطوة الحكم القائم.

الديمقراطية وعملية السلام:

أخطر ما في هذا الكتاب هو الطريقة التي يترجم بها كل الآراء السابقة فيما يتعلق بعملية السلام بين إسرائيل والدول العربية. فهو يربط ما يصفه بالتنازلات الإسرائيلية في المستقبل، بالتطور الديمقراطي في الدول المجاورة، لأنه لا سلام بدون ديمقراطية. وهو هنا يعرض قصة رواها له الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر، الذي يرى أن السلام لا يجب أن ينتظر تحقيق الديمقراطية، ويدلل على ذلك باجتماع له مع الرئيس السوري الراحل حافظ الأسد عرض فيه كارتر تقريرا استخباريا حول انتهاك سوريا لالتزاماتها في مسألة أمنية وهو ما نفاه الأسد بشدة. وقد أبدى كارتر بعدها أسفه لمعاونيه لأن الأسد لم يكذب عليه من قبل كما فعل في هذه الحالة، إلا أنه وهو في طريقه إلى المطار تلقى مكالمة اعتذار من الأسد بأنه راجع الأمر ووجد أنه كان مخطئا، ووعد بتصحيح الخطأ.

من هذا الكلام يصل كارتر إلى نتيجة أن الأسد لا يكذب وأنه يمكن الثقة به، فهو إن وقع على اتفاق مع إسرائيل سينفذه ويحافظ عليه.

إلا أن شارانسكي يعتبر ما قاله كارتر نموذجا لسهولة فقدان الناس في المجتمعات الحرة لما يصفه «بالوضوح الأخلاقي» بحيث تتحول رغبتهم في السلام إلى سلاح في يد الطغاة.

وعبارة الوضوح الأخلاقي هذه لها حكاية يذكرها المتابعون للسياسة الأمريكية، وتعود إلى بداية هجوم القوات الإسرائيلية عام ٢٠٠٢ لإعادة احتلال المناطق الفلسطينية التي كانت خاضعة للحكم الذاتي الفلسطيني. عندها خرج الرئيس بوش بغضب واضح على وجهه ملوحا بإصبعه وهو يطالب إسرائيل بوقف الهجوم وسرعة سحب قواتها من المناطق التي أعادت احتلالها. في ذلك الحين ومنذ هجمات سبتمبر كان توجيه الانتقاد لبوش وسياسته يعد من وجهة نظر كثير من المعلقين اليمينيين تعبيرا عن نقص الانتماء والمشاعر الوطنية لدى المنتقدين. إلا أنه لم يكد بوش يتعرض لإسرائيل حتى خرج هؤلاء المعلقون أنفسهم متهمين بوش بافتقاد هذا «الوضوح الأخلاقي» وإلا فكيف يساوي بين إسرائيل الديمقراطية، وبين الإرهابيين الفلسطينيين. ولماذا يعطي بوش لنفسه الحق في مهاجمة القاعدة في أفغانستان أو أي مكان آخر، ثم ينتقد إسرائيل إذا دافعت عن نفسها ضد حماس وغيرها من المنظمات الإرهابية؟ وكلنا يعرف بالطبع ما حدث بعد ذلك، فقد تجاهل إيريل شارون تحذيرات بوش، وواصلت قواتها هجماتها، وتراجع بوش عن انتقاداته، بعد أن تبين له بوضوح أن من يقولون في واشنطن إنهم يؤيدونه ويتبعونه، لا يفعلون ذلك في الحقيقة إلا إذا كان هو الذي يتبعهم.

نعود من قضية الوضوح الأخلاقي إلى عملية السلام التي بدأت مع اتفاقية أوسلو عام ١٩٩٣، والتي يقول شارانسكي إنه عارضها منذ البداية، ليس من منطلق رفضه للسلام في ذاته، ولكن لأنها لم تربط السلام بتحقيق الديمقراطية والحرية للفلسطينيين. وهو هنا لا يقول لنا كيف يرى تلك الديمقراطية والحريات تحت الاحتلال الإسرائيلي لعشرات السنين. إلا أنه يعرب عن أسفه لأمر واحد، وهو تصويته في حكومة نيتانياهو لصالح قرار إعادة انتشار القوات الإسرائيلية في الخليل طبقا لاتفاقية أوسلو، ويضيف أنها أضعفت موقف القوات الإسرائيلية في الدفاع عن «الجالية اليهودية» في المدينة. وهو يصف موقف الفلسطينيين من السلام باعتباره مجرد هدنة، يدلل على ذلك بقول ياسر عرفات إن اتفاقية أوسلو مثل صلح الحديبية، ثم يروي قصة هذا الصلح بأنه تم «بين مؤسس الإسلام وقبيلة قريش العربية». وعندما زادت قوة محمد بعدها بعامين، فإنه نقض عهده وقام بتدمير قريش وذبح كل من فيها من ذكور، ومن هنا فإن الفلسطينيين كانوا يرون في السلام مجرد هدنة يمكنهم نقضها عندما تتاح لهم الفرصة على حد تعبيره.

ويخصص شارانسكي الجزء الثاني من كتابه بشكل كامل لعرض تاريخ المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية، بقراءة يمينية خالصة، وبانتقائية واضحة لمسيرة عملية السلام التي عارضها منذ بدايتها لمبررات أيديولوجية، فقد عارض أوسلو، ومفاوضات كامب دافيد، عارض خارطة الطريق التي قدمتها المجموعة الرباعية، بل إنه عارض حتى خطة الانسحاب الإسرائيلي من غزة التي قدمها إيريل شارون، وهي كلها باسم الدفاع عن حرية الفلسطينيين وديمقراطيتهم المفقودة. ومع سرده لكثير من التفاصيل الخاصة بعملية السلام فإن القارئ قد يتساءل عن علاقة هذا الكلام بقضية الحريات والديمقراطية، خاصة عندما يتعلق الأمر بقضايا تفصيلية دقيقة ترتبط بالقدس والمستوطنات والحدود واللاجئين وغيرها. فمواقف شارانسكي بالنسبة لهذه القضايا واضحة تماما، وهو لن يغيرها حتى لو تحول الفلسطينيون في يوم وليلة إلى ديمقراطية جيفرسونية على الطريقة الأمريكية. إلا أنه بعد أن يخوض بنا في تفاصيل كثيرة للتأكيد على موقف اليمين الإسرائيلي من عملية السلام، يعود فيقحم مسألة الديمقراطية بشكل يبدو أحيانا في غير موضعه، رغم اتفاقنا معه في بعض ما يقوله بشأن أسلوب عمل السلطة الفلسطينية خلال السنوات الماضية. وقد لفت نظري في المناظرة التي أشرت إليها في مقدمة هذا المقال أن بات بيوكانان سأل شارانسكي عن المستوطنات الإسرائيلية، ولماذا لا يطرح مصيرها في استفتاء للفلسطينيين إذا كان يؤمن فعلا بالديمقراطية. وبالطبع لم تكن هناك إجابة، سوى أنه يربط التنازلات للفلسطينيين بقدر ما لديهم من ديمقراطية وحريات. إلا أن الإجابة عن سؤال بيوكانان تبدو أكثر وضوحا في كتاب شارانسكي، فهو يرى أن حق اليهود في (يهودا والسامرة) أو ما يسميه الحق التاريخي لليهود في أرض أسرائيل، لا يقل عن حق الفلسطينيين فيها. لكن المدهش أنه يغلف ذلك الموقف المغالي في تطرفه بعبارات منمقة عن الديمقراطية والحريات وحقوق الإنسان للفلسطينيين.

أخطاء منهجية

تذكرت وأنا أطالع هذا الكتاب فيلما شاهدته منذ فترة لوحيد حامد عن شخص خرج من السجن (محمود عبد العزيز) ولكن عندما أتيحت له الفرصة والأموال لبدء حياة جديدة، فإنه اختار أن يبني سجنا آخر يعود إليه. فقد خرج من السجن إلا أن السجن لم يخرج منه.

وربما تكون هذه هي الإشكالية الأساسية في كتاب شارانسكي، فهو رغم مرور نحو سبعة عشر عاما على خروجه من المعتقل السوفيتي في سيبيريا، إلا أنه لا يزال يبدو أسير ذلك السجن في أفكاره المطروحة وفي رؤيته للعالم بشكل عام والمنطقة الشرق الأوسط بشكل خاص، لذلك فهو يقوم بإسقاط التجربة السوفيتية بما فيها من خصوصية على العالم بكل مافيه من تنوع وتعقيد. كما أنه يختزل القضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي في قضية واحدة، هي عدم توافر الحريات والديمقراطية لدى الدول العربية والفلسطينيين بما يسمح بتحقيق السلام معهم.

إلا أن أكبر التناقضات في شخص شارانسكي وأفكاره، هي مواقفه الأساسية من الفلسطينيين. فكيف لرجل مثله يتحدث باسم الدفاع عن الحريات والديمقراطية وحقوق الإنسان، أن يقبل بما حدث للفلسطينيين على مدى العقود الماضية من ظلم وقتل واحتلال وطرد من أراضيهم، دون أن تأرق له عين، بل إنه يدافع عما حدث لهم ويقدم كل التبريرات الممكنة وغير الممكنة؟ لقد طرحت ذلك التساؤل على شخصية أمريكية لها ارتباطها الشديد بالمنطقة، فقال لي إنه أيضا فكر في هذا الأمر وأثاره مع بعض الإسرائيليين الذين يعرفون شارانسكي جيدا، فبرروا ذلك بأنه يعود لتجربته السوفيتية، واعتقاله هناك لسنوات طويلة، وتعمق الهاجس الأمني لديه. ورغم أن ذلك لا يبدو من وجهة نظري تبريرا منطقيا، لأن المفترض أن تساعده هذه التجربة أكثر على تفهم معاناة الفلسطينيين في سجون الاحتلال الإسرائيلي لا أن تزيده تطرفا في مواجهتهم، إلا أنني قلت لمحدثي الأمريكي، إنني قد أتفهم هذا التفسير إذا كنا نتحدث عن مواقف متطرفة لسياسي إسرائيلي متشدد، ولكن كيف نقبل به لشخص يزعم أنه بطل للحريات وحقوق الإنسان.

وفي اعتقادي أنه لا يمكن أخذ هذا الكتاب



ما يقوله شارانسكي ببساطة هو أن الطريق الوحيد لتحقيق السلام وتأمينه في العالم كله وفي العالم العربي على وجه الخصوص هو طريق الديمقراطية. وهو في ذلك يعلن مخالفته للمفاهيم التي يروج لها بعض السياسيين بأن التغيير غير مضمون العواقب وأن التعامل مع الديكتاتوريات القائمة هو ضمانة الاستقرار والحل الأمثل والمضمون



إلا على أنه لمؤلف صاحب أجندة سياسية، ويروج لأفكار حملها معه من تجربته السوفيتية ويريد فرضها على كل شئون الكون بما يخدم النتيجة التي حددها سلفا. ومن هنا فالتقييم العلمي له يكشف عن ضحالة وخلل في كثير من الأمور. ولأوضح ذلك فإنني أنقل هنا تحليلا غريبا أورده في الصفحة ٩٢ لمواقف عدة دول من إسرائيل وهي تركيا والمغرب والأردن ومصر وسوريا، ويقول إنها أكثر قربا وصداقة لإسرائيل بهذا الترتيب، ثم يورد ما ذكره تقرير مؤسسة بيت الحرية (Freedom House) عن مستوى الحريات والديمقراطية في تلك الدول ويقول إنها أيضا بنفس الترتيب (تركيا أكثرها حرية وسوريا أدناها) ثم يخرج شارانسكي من ذلك بنتيجة أن الدول الأكثر حرية تكون أقل عداء لجيرانها. هكذا، دون أي تحليل تاريخي أو الوقوف عند الأبعاد السياسية والجغرافية والثقافية وارتباطها بمواقف تلك الدول من إسرائيل، ودون اعتبار لأربع حروب مع مصر، أو لاستمرار احتلال إسرائيل لمرتفعات الجولان السورية. إن مثل هذا الخطأ المنهجي لا يقع فيه طالب في المرحلة الثانوية، إلا أن شارانسكي يردده في كتابه وفي لقاءاته التليفزيونية دون أن يطرف له جفن، ثم يجد جوقة المهللين في واشنطن. ليس لأن فيما يقوله ابتكارا أو عبقرية، ولكن لأنه يقول لهم ما يحبون الاستماع له. وربما يصل بنا ذلك إلى ما أريد قوله بصدد مدى تأثير هذا الكتاب. فمع كل الإشادة التي لقيها من الرئيس بوش، إلا أن من الصعب القول إنه تأثر به إلى حد كبير، والأقرب إلى الصواب - في تقديري - هو أنه وجد فيه تعبيرا عن أفكاره التي آمن بها منذ سنوات، وسياساته التي طبقها منذ الحادي عشر من سبتمبر. ومن هنا فقراءة الكتاب أو عرضه، هي في النهاية محاولة لقراءة ما يدور في عقل ساكن البيت الأبيض للسنوات الأربع القادمة. وهذه النقطة بالتحديد هي ما يهمنا في الكتاب.

بوش وحديث الديمقراطية

اهتمام بوش بما جاء في الكتاب ليس مقصوراً فقط على الإشادة به التي أوردناها في بداية المقال، و لا على نقل بعض عباراته بشكل واضح في خطاباته، ولكن نلاحظ تطبيقا عمليا لما جاء في الكتاب في بعض سياسات إدارته. والنموذج الواضح على ذلك هو تأكيد الرئيس بوش على أن تحقيق الديمقراطية الفلسطينية هو الشرط الأساسي للسلام. وليس المهم هنا إن كان بوش تأثر بما في الكتاب، أو أن الكتاب يعبر عما كان في رأس بوش مسبقا، فالمحصلة واحدة: إن هذه هي طريقة تفكير بوش والفريق المحيط به ليس فقط بالنسبة للقضية الفلسطينية، ولكن أيضا في نظرتهم إلى أوضاع منطقة الشرق الأوسط بشكل عام. فمن الواضح أن واشنطن تعني ما تقوله عندما تتحدث عن ضرورة الإصلاح في المنطقة، إلا أنها على ما يبدو لم تحدد بعد كيفية الدفع في اتجاه الإصلاحات، وإلى أي مدى يمكنها أن تفعل ذلك خاصة مع حكومات الدول الحليفة. كما أن الجدل لا يزال دائرا بين المسئولين وفي المؤسسات الفكرية بشأن ما يمكن أن تفرزه العملية الانتخابية الحرة من تيارات أصولية تهدد المصالح الأمريكية. لذلك وجدنا ما يبدو أنه تخبط وأحيانا بعض التضارب في السياسات. فقد بدأت بوضع ما يشبه روشتة للإصلاح تصورت أن من الممكن تطبيقها بسهولة، ثم فوجئت بردود الفعل المعارضة لها خاصة في مصر والسعودية، فعادت لتؤكد بصورة مكررة أنها لا تريد أن تفرض الإصلاح على أحد، بل تساعد الآخرين على تنفيذ ما يختارونه لأنفسهم من برامج إصلاحية. و أذكر أنني تحدثت مع مسئول أمريكي كبير قبيل انعقاد مؤتمر الـ G 8 للدول الثماني في جورجيا منذ حوالي عام والذي ركز على قضية الإصلاح في المنطقة، وحضرته بعض الدول العربية ولم تحضره مصر، فلما سألته عن رأيه في عدم حضور مصر، أجاب ببساطة متعمدة بأنه لا توجد أي مشكلة، ألم نقل إن المسألة اختيارية؟ من أراد أن يحضر فهذا جيد، ومن لم يرد فهذا شأنه.

وتحاول واشنطن أن تجند الدول الأوروبية بالتحديد في جهودها لدفع الإصلاحات في المنطقة، إلا أنه ورغم اتفاق الجانبين على ضرورة تشجيع التغيير والإصلاح، فإن هذا الاتفاق جاء كما لو كان الطرفان يبحثان عن شيء يتفقان عليه تعويضا عن الخلاف والتوتر الذي شاب العلاقات الأطلسية بسبب غزو العراق، وقد بدا ذلك واضحا في جولة الرئيس بوش الأوروبية الأخيرة. إلا أن تلك الرغبة لم تخف الاختلاف بينهما في الأسلوب، وفي رؤيتهما لإيقاع التغيير وجوانبه. وقد عطل ذلك ظهور الجانب المؤسسي الذي يوفر إطارا تنظيميا للحوار مع الدول العربية بشأن الإصلاح. صحيح أنه تم إنفاق عشرات الملايين من الدولارات خصصتها واشنطن لهذا الهدف، كما عقد أكثر من مؤتمر، وتم الإعلان عن مبادرة الشرق الأوسط الأوسع، وكذلك مبادرة الشراكة، إلا أن هناك تسليما كما تقول إحدى الأوراق التي صدرت مؤخرا عن مؤسسة كارنيجي بواشنطن، بأن الاعتماد الأساسي هو على دعوات الرئيس بوش القوية للتغيير الديمقراطي بما يمثل ضغطا على أنظمة المنطقة لاتخاذ خطوات محددة في اتجاه الإصلاح.[1]

الرئيس بوش من جانبه لم يتوان عن هذه الدعوات، التي خصص لها خطابا هاما في نوفمبر عام ٢٠٠٣ بالمؤسسة القومية للديمقراطية. كما كان خطاب توليه الفترة الرئاسية الثانية ومن بعده خطابه عن حالة الاتحاد تأكيدا على أن بوش جاد على الأقل في استخدام المنبر العلني للدفع في هذا الاتجاه. إلا أن ذلك ظل في إطار العبارات العامة والدعوات التي تعبر عن رغبات أكثر منها سياسات محددة. ولكن ينبغي ألا نقلل من تأثير هذه الكلمات المعلنة، وأعرض هنا لحالتين. فقد أحرج بوش ضيفه التونسي في المكتب البيضاوي بتأكيده على تناول الإصلاحات في تونس أثناء محادثاتهما، وكذلك فعلت وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس في مؤتمرها الصحفي مع وزير الخارجية المصري أحمد أبو الغيط حينما عبرت بوضوح عن قلقها العميق وقلق الرئيس والكونجرس والشعب الأمريكي بشأن قضية اعتقال رئيس حزب الغد أيمن نور، ومؤكدة على أن الدور المصري في عملية السلام لا ينبغي أن يعفيها من اتخاذ خطوات أسرع في اتجاه المزيد من الحريات السياسية.

ورغم أن أسلوب الضغط العلني لا يلقى القبول من بعض الخبراء ومنهم أنتوني كوردسمان بمركز الدراسات الاستراتيجية والدولية بواشنطن، باعتبار أنه ليس الأسلوب الملائم لدفع عملية التغيير بكل تعقيداتها، إلا أنه ولا شك يحرج الحكومات المعنية، ويشجع التيارات المعارضة على رفع صوتها أكثر، خاصة بعد أن وعد بوش في خطاب حالة الاتحاد بأن واشنطن ستساند من يقفون للدفاع عن حرياتهم.

بوش ـ شارانسكي

اعتقادي الشخصي أن الرئيس بوش أخطأ بإعلان تأييده لما ورد في كتاب شارانسكي بصرف النظر عن مضمون الكتاب، فواشنطن تعاني أساسا من الشكوك التاريخية في المنطقة تجاه النوايا والسياسات الأمريكية، وتجاربها السابقة بمساندة الحكومات الديكتاتورية الحليفة. وانعكست هذه الشكوك على نظرة العرب لمبادرات الديمقراطية الأمريكية، بصرف النظر عن مدى صحة هذه الشكوك. فكثيرا ما ترتبط الرسالة بمن يحملها صوابا كان أو خطأ. لذلك فإن آخر ما تحتاج إليه الولايات المتحدة وبوش تحديدا، هو أن يأتي معه بمن يساعده في حمل الرسالة، ليس من بين العرب والمسلمين أنفسهم، ولكن من الجانب الإسرائيلي، ومن شخص عرف بمواقفه المتطرفة في قضايا الصراع العربي الإسرائيلي.

وفي كل الأحوال، فإن الاختبار الحقيقي لمدى التزام بوش بقضايا الديمقراطية والحريات، لن يكون بالخطابات المنمقة مهما كانت أهميتها، ولكن في أن يترجم ذلك الالتزام إلى سياسات محددة. وقد سبق له هو نفسه أن أدان سياسات إدارات أمريكية سابقة ربطت المصالح الأمريكية بأنظمة ديكتاتورية بحثا عن الاستقرار، فعلينا إذن أن ننتظر لنرى كيف سيغير تلك التوجهات بعيدا عن الميكروفون. لقد ذكر بوش عبارة الحرية بمشتقاتها المختلفة ثلاثا وأربعين مرة في خطاب تولية الفترة الثانية، ويبقى أن نراه ينحاز لهذه الحرية ولو مرة واحدة حتى إن كان فيها ما يبدو متعارضا مع المصالح الأمريكية. ■



ذكر الرئيس بوش في مقابلة مع صحيفة واشنطن تايمز أن كتاب شارانسكي يعبر بشكل دقيق عن فلسفته في الحكم و ضرورة نشر الديمقراطية في أنحاء العالم، ودعا بوش الناس لقراءة «هذا الكتاب العظيم» الذي وصفه بأنه يمثل الـ DNA أو الحامض النووي لرئاسته





هـــامـــش:

(1) Marina Ottaway and Amr Hamzawy (Political Reform in the ME, Can the US and Europe work together?

أمـــريكـــا وإيـــران

[١]

في عام ٢٠٠٢، ساعد كتاب كينيث پولاك «العاصفة الوشيكة: حجة غزو العراق» The Threatening Storm: The Case for Invading Iraq على إقناع البعض بأنه سيكون على الولايات المتحدة عاجلاً أو آجلاً (وحبذا لو كان عاجلاً) الإطاحة بصدام حسين حمايةً لأمنها. وعرض پولاك حجته بحرص وبراعة يفوقان حرص وبراعة الكثير من الجمهوريين المؤيدين لـ«تغيير النظام» في العراق، ولكنه اتضح أنه كان مثلهم مخطئاً بشأن التهديد الذي يمثله صدام حسين للولايات المتحدة. كما أخفق مثلهم في التكهن بالتداعيات الخطيرة للغزو. وعلى عكس الكثير من الأعضاء الصقور في إدارة بوش، والكثير جداً من الكُتَّاب الصحفيين ورؤساء تحرير الصحف، كان لدى پولاك من الكياسة ما جعله يعتذر عن أخطائه. وبما أن حكومة بوش تحاول اتخاذ قرار بشأن الطريقة التي ينبغي أن ترد بها على دولة معادية ثانية في الشرق الأوسط، وهي إيران التي تشك في أنها تسعى لامتلاك الأسلحة النووية، فقد كتب پولاك كتاباً طويلاً آخر بعنوان «اللغز الفارسي: الصراع بين إيران وأمريكا» The Persian Puzzle: The Conflict Between Iran and America ينصح فيه بما ينبغي عمله.

مع أنه وُجد أن حكم پولاك كان قد جانبه الصواب، فهو أكثر كفاءة من معظم من يكتبون عن السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط. فإلى جانب كونه مديراً لشئون الخليج الفارسي والشرق الأدنى وشئون جنوب آسيا في مجلس الأمن القومي في عهد بيل كلينتون، فقد أعد مراراً دراسات عن السياسة تجاه إيران (وكذلك العراق) لوكالة الاستخبارات الأمريكية وللعديد من مراكز الأبحاث والجامعات. وتبرر مساعي إيران الأخيرة لامتلاك التكنولوجيا النووية المتقدمة مقولته إن الوقت مناسب الآن لتكريس الاهتمام بالجمهورية الإسلامية. وهو يقول: «ما لم ننتهز نافذة الفرص المفتوحة هذه للتعامل مع برنامج إيران النووي، فلا شك في أننا سوف نأسف في يوم من الأيام على عدم انتهازها».

The Persian Puzzle: The Conflict Between Iran and America

(اللغز الفارسي: الصراع بين إيران وأمريكا)

Kenneth M. Pollack

Random House, 539 pp., $26.95

عن New York review of Books

ترجمة: أحمد محمـــود

تشعر الولايات المتحدة وغيرها من الدول، وخاصة الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي واليابان وكندا وأستراليا، بالقلق مما تحرزه إيران من تقدم نحو قدرتها على تخصيب اليورانيوم وفصل البلوتونيوم، وهما العمليتان اللتان يمكنهما إنتاج إما الوقود لمفاعلات محطات الطاقة المدنية أو للقنابل النووية. وطبقاً لشروط معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية التي صدقت عليها إيران في عام ١٩٧٠، يحق للإيرانيين صنع تلك التكنولوجيات للأغراض المدنية، ولكن الطريقة السرية التي أجروا بها ذلك أثارت الشك في اعتزامهم إنتاج القنابل، إلى جانب الطاقة للاستخدام السلمي. وكجزء من التزام إيران بمعاهدة منع انتشار الأسلحة النووية، وقعت على «اتفاقية الضمانات» مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية، مما يسمح لموظفي الوكالة بمراقبة أنشطتها بانتظام.

اعتباراً من صيف ٢٠٠٢، وفي ضوء الشكوك التي طال أمدها في الأنشطة النووية التي ظلت مخفية عن أعين المفتشين، وضعت الوكالة البرنامج الإيراني تحت المراقبة الدقيقة. وأثبتت المراقبة منذ ذلك الوقت انتهاك إيران لاتفاقية الضمانات التي كان المقصود بها جعل أنشطتها النووية تتسم بالشفافية ومقصورة على الأغراض السلمية. وتشمل هذه الانتهاكات عدم إبلاغ إيران عن شراء وصنع مواد نووية، وعدم الإعلان عن وجود العديد من مواقعها النووية.

استرشاداً بسلوك الحكومة الإيرانية فيما مضى، يتوقع بعض منتقديها حدوث المزيد من الانتهاكات. فهم مقتنعون بأنها تكذب بإصرارها على أن برنامجها النووي مقصور على الأغراض المدنية، كما يعتقدون أنها تعتزم امتلاك القدرة على صنع القنبلة النووية سراً. ولكي تحرم الوكالة إيران من امتلاك هذه القدرة، تحاول إقناعها بالتخلي عن الحق الذي تنص عليه معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية في تطوير «دورة الوقود»، وهي مجموعة من العمليات الصناعية لازمة لإنتاج الوقود من اليورانيوم أو البلاتينيوم حيث يمكن استخدامه في إنتاج إما الكهرباء أو القنابل النووية.



لنفترض للحظة أن أمريكا نجحت في فرض الاستقرار في العراق وأقامت حكومة موالية للولايات المتحدة هناك. هنا سوف نتساءل عما سيكون لذلك من أثر على تفكير پولاك بشأن إيران وتقدمها تجاه بناء المنشآت النووية، وعما كان سيقوله هو وغيره من المسئولين السابقين في إدارة كلينتون عن غزو الجمهورية الإسلامية. ربما كان العزاء الوحيد الذي يُستمد من الحالة البائسة الحالية في العراق هو أنه لا حاجة إلى طرح هذه الأسئلة.

على أية حال، فإن پولاك الذي كتب «اللغز الفارسي» رجل متعظ. فالفصل الأخير من الكتاب وعنوانه «نحو سياسة إيرانية جديدة» به جزء بعنوان «الحجة ضد غزو إيران» يعتمد إلى حد ما على النموذج العراقي. وهو يقول إن «تهديد امتلاك إيران للأسلحة النووية» لا يبرر «ما يمكن أن يكون غزواً على قدر كبير جداً من التكلفة والمخاطرة». ومن بين تلك العوائق التي يوردها پولاك حجم إيران الضخم، وتضاريسها القاسية، والعداء الذي يعتقد أن الإيرانيين سوف يبدونه تجاه محتليهم.

في الفصل الأخير، ينتقد پولاك الدول الغربية بقسوة وبشكل مبرر لجعلها حسابات الميزة التجارية تؤثر على مقاربتها السياسية لإيران. ويشير پولاك إلى أن الأوروبيين، ابتغاء منهم لعلاقات تجارية أفضل، يودون أن يقدموا للإيرانيين «الجزر» مثل فرصة الدخول في اتفاقية تجارية مع الاتحاد الأوروبي،



خـــاتـمـى

والقنبلة

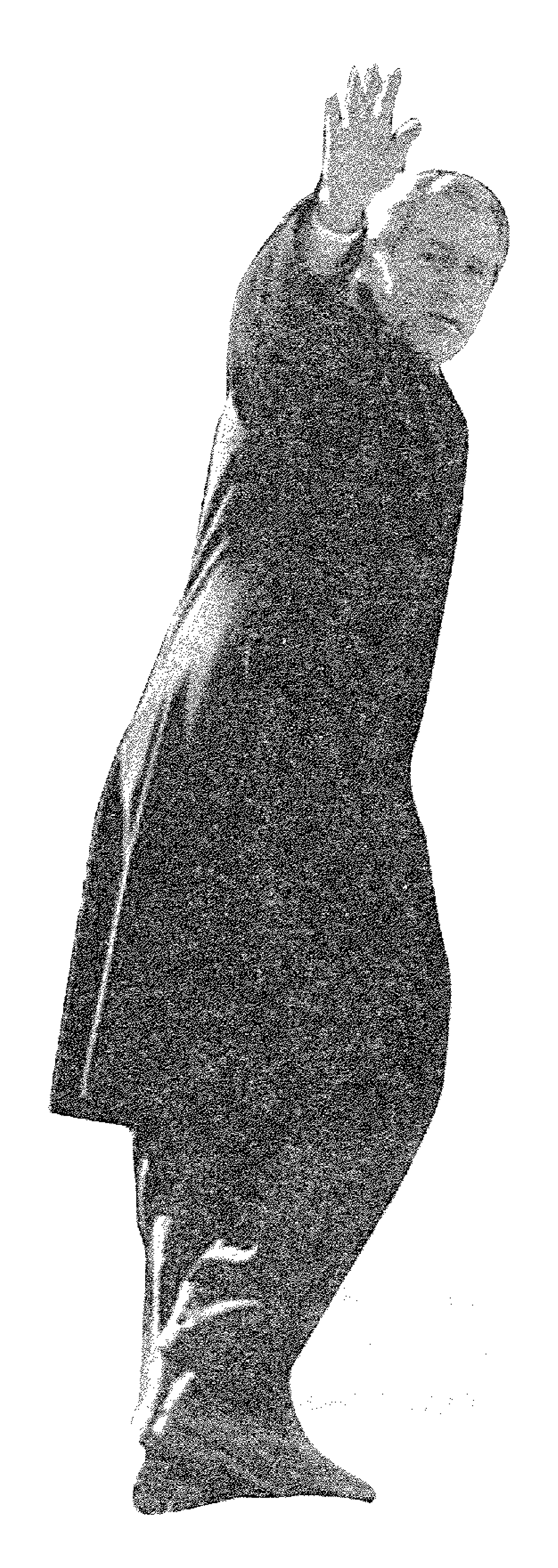
كريستوفر دى بيليج

وكذلك التكنولوجيا النووية شديدة التحديد. ومن ناحية أخرى، يمسك جورج بوش، الذى ضم فى ولايته الأولى إيران إلى «محور الشر»، بالعصا فى شكل عداء إدارته لإيران، وتأييده لفرض عقوبات ضد الجمهورية الإسلامية، بالإضافة إلى العقوبات التجارية التى تبقى عليها الولايات المتحدة الآن. ويؤيد پولاك أن تكون هناك توليفة من المقاربتين فيما بين الدول الغنية والقوية؛ بعبارة أخرى أن يكون هناك تصميم عام على مكافأة إيران إن هى أحسنت التصرف، ومعاقبتها إن لم تحسن تصرفها. ومن المؤسف أن پولاك انتهى من تأليف كتابه قبل ١٤ نوفمبر ٢٠٠٤، وإلا فكان سيجد الكثير مما يقوله عن الاتفاق الذى وقعته إيران فى ذلك التاريخ مع فرنسا وبريطانيا وألمانيا.

كان المقصود باتفاقية نوفمبر أن تكون الخطوة الأولى فى اتجاه إزالة الشكوك فى كون برنامج إيران النووى وراءه هدف عسكرى. وكانت فرنسا وألمانيا وبريطانيا قد هددت قبل إبرام الاتفاق، ومساندة من الاتحاد الأوروبى، بدعم الخطوات الأمريكية التى تهدف إلى إحالة البرنامج الإيرانى إلى مجلس الأمن باعتباره انتهاكاً لمعاهدة منع انتشار الأسلحة النووية. واستجابةً للضغط، قَبِل الإيرانيون المطالب الأوروبية الخاصة بتعليقهم الأنشطة المتصلة بتخصيب اليورانيوم وفصل البلوتونيوم كافة. كما اتفقت إيران مع الدول الأوروبية الثلاث على بدء المفاوضات حول «ترتيبات طويلة المدى» تجعل من المستحيل تحويل برنامج إيران إلى الاستخدامات العسكرية، وكذلك على بدء المفاوضات بشأن «التعاون التكنولوجى والاقتصادى والتعهدات الثابتة بشأن القضايا الأمنية». وحسبما قاله خاڤيير سولانا رئيس السياسة الخارجية للاتحاد الأوروبى، فإن الاتفاقية قد تكتب «فصلاً جديداً» فى العلاقات بين أوروبا وإيران.

الأمر الغريب هو أنه كان من المفترض أن يبدأ هذا الفصل الجديد على وجه التحديد تقريباً فى وقت سابق. ففى ٢١ أكتوبر ٢٠٠٣ وقعت إيران والدول الغربية الثلاث نفسها اتفاقية تكاد تكون مطابقة تهدف إلى إزالة شكوك مماثلة. ووقتها كذلك كان الإيرانيون قاب قوسين أو أدنى من إحالة أنشطتهم النووية إلى مجلس الأمن. وتحت ضغط من الولايات المتحدة وكذلك من الأوروبيين والوكالة الدولية للطاقة الذرية، تعهدت إيران «بتعليق أنشطة تخصيب اليورانيوم وإعادة معالجته كافة». وكان المأمول أن تمهد هذه الاتفاقية السبيل إلى «التعاون طويل الأمد» الذى يمكن لإيران بمقتضاه «الحصول بطريقة أيسر على التكنولوجيا والإمدادات فى عدد من المجالات». ووافق الإيرانيون على تزويد الوكالة الدولية للطاقة الذرية بسجل كامل لبرنامجها النووى حتى ذلك التاريخ. وأعلن وزير خارجية ألمانيا يوشكا فيشر ٢١ أكتوبر ٢٠٠٣ «يوماً مهماً... سوف يجعل المنطقة فى حالة استقرار».

الاتفاقية الجديدة مشابهة، والأطراف هى نفسها، ولكن من المؤكد أن خطأً ما قد وقع خلال العام الذى انقضى بين الاتفاقيتين. فمع أن اتفاقية ٢٠٠٣ سمحت للوكالة الدولية للطاقة الذرية والدول الأعضاء فيها بمعرفة قدر كبير عن البرنامج الإيرانى، فهى لم توقف تقدم إيران نحو دورة الوقود النووى بالقدر الذى كان الأوروبيون يعنونه. فقد استغل الإيرانيون ما فى النص من غموض، وخاصة فيما يتعلق بما يشكل «أنشطة التخصيب وإعادة المعالجة». وظلوا كما قال أحد المسئولين «يركلون العلبة الصفيح على أرض الشارع». فقد استمروا فى تجميع آلات الطرد المركزى، وهى تلك الأجهزة التى تخصب اليورانيوم الغازى بإدارته بسرعات عالية. وفيما بعد، وتحت الضغط الدبلوماسى، أوقفوا تجميع آلات الضغط المركزى ليبدءوه من جديد فى صيف ٢٠٠٤. وقد أنتجوا ما يكفى لصنع عدة قنابل نووية من اليورانيوم وغيره من «مواد التغذية» الخاصة بعملية التخصيب، إن هم قرروا صنعها.


بوش

ميزة الاتفاقية الجديدة أن تحديدها الواضح والشامل لـ «الأنشطة المتصلة بالتخصيب وإعادة المعالجة» يصعب على الإيرانيين أن يكونوا ملتبسين من الناحية الدلالية. فإن أنتج الإيرانيون كميات أكبر من اليورانيوم الغازى، فلن يكون هناك شك كبير فى أن مجلس حكام الوكالة الدولية للطاقة الذرية سوف يحيل أعمالهم إلى مجلس الأمن.

يشكو الكثير من الدبلوماسيين الأوروبيين من أن الولايات المتحدة تسيطر عليها فكرة إحالة إيران إلى مجلس الأمن ولكنها لم تتوصل بعد إلى ما تريد عمله فى حال توجيه التهمة إلى إيران. ويشك هؤلاء الدبلوماسيون فى أن اثنتين من الدول دائمة العضوية فى مجلس الأمن، وهما روسيا والصين، لا تريدان لقضية إيران أن تعرض على مجلس الأمن، وسوف تحاولان إثناء الولايات المتحدة وحلفائها عن اتخاذ أى إجراء لمعاقبة الإيرانيين.[١] وبناء على ما نقرؤه بين سطور التقرير الأخير عن البرنامج الإيرانى الذى كتبه محمد البرادعى المدير العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية وصدر فى ١٥ نوفمبر ٢٠٠٤، يتضح أنه لا يعتقد أن هناك أساساً لإحالة قضية إيران إلى مجلس الأمن.[٢] وهو يشير إلى أنه وصف تعاون إيران مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية قبل أكتوبر ٢٠٠٣ بأنه يتسم بـ «الإخفاء الشامل، والمعلومات المضللة وتعطيل الوصول إلى المنشآت». ولكنه يقول إنه منذ ذلك الوقت تحسن هذا التعاون بشكل يستحق التقدير.



تتناقض وجهة نظر البرادعى التى تبدو متفائلة مع نزعة التشاؤم التى يعبر عنها أشد نقاد إيران حدة؛ وهو التناقض الذى يعكس المقاربات المختلفة اختلافاً لا يكاد يُدرك لمسئولى الوكالة الدولية للطاقة الذرية من ناحية والدول الأعضاء فيها من ناحية أخرى. وبغض النظر عن أفكار البرادعى عن الموضوع، فهو ليس فى وضع يسمح له بأن يطلب من إيران علناً التخلى عن دورة الوقود: ففى ظل اتفاقية منع انتشار الأسلحة النووية، وهى الاتفاقية التى من واجب البرادعى الحفاظ عليها ودعمها، يعطى لإيران الحق فى إنجاز هذه الدورة. بل إن إيران لم توقع اتفاقيتها لعام ٢٠٠٣ مع الوكالة وإنما مع ألمانيا وفرنسا وبريطانيا، وبذلك لا يصل انتهاك روح تلك الاتفاقية

بالضرورة إلى حد انتهاك اتفاقية الضمانات. ويوضح البرادعي في تقريره لشهر نوفمبر أن الوكالة تخلصت خلال العام المنصرم من معظم شكوكها فيما يتعلق بمدى برنامج إيران النووي المعلن. وقد حققت إيران بنص كلامه «تقدماً طيباً» نحو تصحيح الانتهاكات السابقة لاتفاقية الضمانات الخاصة بها. ويعتقد البرادعي أنه لابد من تعديل اتفاقية منع انتشار الأسلحة النووية لتصعيب إنجاز دورة الوقود على الدول. وإلى أن يحدث ذلك فلا يمكن مطالبة إيران بالتخلي عن هدف يعطيها القانون الحق في تحقيقه.

تتصرف إيران بشكل أفضل من قبل في إطار اتفاقها مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية. ومن الناحية العملية، تزداد الريبة في نوايا إيران أكثر من أي وقت مضى.[3] فسبب نقض إيران لاتفاقية ٢٠٠٣ مع الأوروبيين، يزداد اقتناع منتقدي إيران في مجلس حكام الوكالة الدولية للطاقة الذرية بأن الإيرانيين عازمون على إساءة استخدام حقهم في إنجاز دورة الوقود، وعلى تحويل الوقود الذي ينتجونه إلى الاستخدام العسكري. ولم يقلل عدم كشف المنتقدين عن انتهاكات إيران الأخيرة لاتفاقية الإجراءات الوقائية من شكهم في أن إيران مشغولة في أنشطة نووية سرية، أو أنه قد يمكن تصنيفها بالفعل على أنها دولة مسلحة تسليحاً نووياً بمجرد إنجازها دورة الوقود.

يؤكد الدبلوماسيون الأوروبيون المتشائمون أن العالم الخارجي كسب الوقت باتفاقية ٢٠٠٤، إن لم يكن قد كسب ما هو أكثر من ذلك. إلا أن مقدار هذا الوقت ليس واضحاً على وجه التحديد. فالاتفاقية ليست محددة بزمن معين؛ غير أن المسئولين الإيرانيين يؤكدون أن الاتفاق لن يدوم طويلاً؛ حيث لن يتعدى ذلك ستة أشهر حسب بعض التقديرات. علاوة على ذلك، فقد دخلت إيران ومحاوروها الأوروبيون في اتفاق ذي أهداف مختلفة. فالأوروبيون يرونه خطوة أولى نحو تفكيك منشآت دورة الوقود الإيرانية. أما الإيرانيون فينظرون إليه على أنه خطوة أولى نحو إقناع الأوروبيين بالسماح بتشغيل تلك المنشآت. وفي ٢٧ أكتوبر ٢٠٠٤ وصف آية الله خامنئي إى المرشد الأعلى المحافظ لإيران، وصاحب الكلمة الأخيرة في كل القضايا السياسية، أية تكهنات تشير إلى أنه سيجري تعليق تخصيب اليورانيوم على المدى البعيد بأنها «غير منطقية». وقد حذر من أن إيران سوف «تعيد النظر» في تعاونها إذا تورط الأوروبيون في التهديدات «غير المنطقية». وبعد وقت قصير من عقد الاتفاق الأخير، وصفه الرئيس المعتدل محمد خاتمي بأنه:

ضمان مقابل ضمان. فنحن نضمن ألا نغير مسارنا في اتجاه الأسلحة النووية، ويضمنون هم لنا في المقابل أن... تكون لدينا دورة وقود.

في إطار اتفاقية الرابع عشر من نوفمبر، شكلت الترويكا الأوروبية والإيرانيون ثلاث مجموعات عمل لمناقشة التعاون التكنولوجي والنووي والأمني. وفي مقابل منح إيران مزايا تجارية وغيرها من المزايا، قيل لي إن الأوروبيين يريدون من إيران تعليق أنشطة دورة الوقود بشكل مؤقت. حيث يطالبونها بالحصول على الوقود اللازم للمفاعلات المدنية من الخارج. مع أنهم قد لا يصرون على الإعلان العلني عما يفيد ذلك. ولإدراكهم أن الحصول على البلوتونيوم من الصنف اللازم لصنع الأسلحة من مفاعل الماء الثقيل أسهل من مفاعل الماء الخفيف، فسوف يعرضون أن يبيعوا لإيران مفاعل ماء خفيف إن هي تخلت عن برنامجها الحالي الخاص بمفاعل الماء الثقيل. وسوف يعرضون على إيران إمدادات مستمرة من الوقود النووي المناسب لمفاعل الماء الخفيف، على أن تُعاد إلى الدول التي توردها بعد استخدامها، شريطة أن تتخلى إيران عن خططها لتخصيب اليورانيوم وتلتزم بإنتاج الطاقة النووية للاستخدام السلمي.

كنوع من الحوافز، يعرض الأوروبيون دعم طلب إيران إلى منظمة التجارة العالمية الذي لم يبت فيه. وسوف يستأنف الاتحاد الأوروبي وإيران المحادثات المعلقة منذ العام الماضي حول عقد اتفاقية للتجارة والتعاون. وسوف يؤكد الاتحاد الأوروبي فرضيته الحالية التي تقول إن الجماعة الإيرانية المعارضة مجاهدي خلق المتمركزة في العراق منظمة إرهابية خطيرة، وسوف يفعل الإيرانيون الشيء نفسه فيما يتعلق بالقاعدة.

قال دبلوماسي أوروبي إن جهوده لإقناع الإيرانيين بقبول هذه الشروط تشبه «بيع السجادة نفسها مرتين»؟ وقد أيدت أوروبا منذ فترة طويلة طلب انضمام إيران إلى منظمة التجارة العالمية، إلا أن الولايات المتحدة كانت تستخدم حق النقض ضده باستمرار. وفي ديسمبر لم يعر الأمريكيون أي اهتمام للاعتراضات الأمريكية ومنعوا منظمة التجارة العالمية مرة أخرى من بدء مفاوضات الانضمام مع إيران. وأعلن الاتحاد الأوروبي ككل، إلى جانب بعض الدول الأوروبية منفردة، أن مجاهدي خلق، المنظمة المسلمة اليسارية المعادية لإيران التي كانت تتمتع بشعبية فيما مضى، منظمة إرهابية. ويسعى الإيرانيون إلى ترحيل أعضاء مجاهدي خلق الذين تحتجزهم القوات الأمريكية حالياً في معسكر شرقي العراق. وفي عام ٢٠٠٣ رفضت الولايات المتحدة طلباً بمبادلة بعض أعضاء مجاهدي خلق ببعض المشتبه في انتمائهم إلى القاعدة ممن تحتجزهم السلطات الإيرانية. ولا يبدو أن الموقف الأمريكي تغير منذ ذلك الوقت.

هناك كذلك سبب واضح لافتراض أن عقد دورة أخرى من المحادثات بشأن قدرة إيران النووية سيحقق نجاحاً. فقد انهارت المحادثات السابقة بسبب عدم تغيير إيران سياساتها التي يعترض عليها الأوروبيون، وخاصة في مجالي حقوق الإنسان والشئون الخارجية. ورغم ذلك فقد أصبحت إيران منذ ذلك الوقت أكثر عناداً. فهي تُعرّض التزامها بالديمقراطية لمزيد من الخطر من جراء الانتخابات البرلمانية التي أجريت في فبراير ٢٠٠٤ التي حُرم فيها ما يزيد على ألفي مرشح إصلاحي من حقهم في الترشيح. وقد بات التزامها بالتجارة الحرة موضع شك نتيجة للاتجاهات الانعزالية للمتشددين الذين فازوا في تلك الانتخابات. ويرغم مطالبة الأوروبيين، لم تحسّن إيران سجلها الخاص بحقوق الإنسان أو تقلل دعمها للجماعات المتشددة التي تعارض السلام بين إسرائيل والفلسطينيين.

قد يكون الحافز الأكثر إغراء من بين كل الحوافز الأوروبية هو عرض مفاعل المياه الخفيفة. ولدى إيران مفاعل كهذا كاد المقاولون الروس ينتهون من العمل فيه في ميناء بوشهر على الخليج الفارسي. وتود إيران الحصول على آخر، غير أن الدول الأخرى مترددة في إثارة غضب الولايات المتحدة بتوريده. إلا أنه ليس من المؤكد أن الإيرانيين على استعداد للتخلي عن برنامجهم الخاص بمفاعل الماء الثقيل مقابل فرصة شراء مفاعل الماء الخفيف الذي سوف يحدث انتعاشاً في برامج الطاقة المدنية لديها.

الأمر الواضح هو أن الولايات المتحدة، وليس أوروبا، هي التي يمكنها تقديم الحوافز الأكثر جاذبية لإيران. فالأمريكان لديهم «مجاهدي خلق» تحت رعايتهم ويمكنهم أن يوافقوا على دخول إيران منظمة التجارة العالمية. وكان للعقوبات الأمريكية التي فُرضت على التجارة مع إيران أثر مدمر على الاقتصاد الإيراني، ويود الإيرانيون وقف العمل بهذه السياسة. وأهم شيء هو أن الأوروبيين لا يمكنهم أن يقدموا لإيران الضمانات الأمنية التي يسعون إليها، بينما يمكن للأمريكيين أن يقدموها لهم.

غالباً ما تُصوّر مراوغات إيران وردودها الملتبسة فيما يتعلق ببرامجها النووية على أن وراءها غرضاً عدوانياً، غير أني استنتج من المحادثات التي أجريتها مع المسئولين أن الإيرانيين يرون تكتيكاتهم على أنها رادعة؛ لإسرائيل، خصمهم الإقليمي المسلح تسليحاً نووياً، والولايات المتحدة، القوة العظمى المعادية التي غزت اثنتين من الدول المجاورة لها على مدى السنوات الثلاث الماضية. ولا يبدو أن الإيرانيين قد تخلوا عن طموحاتهم في الحصول على دورة الوقود. وإذا كان لابد من تغيير القيادات الإيرانية لسياساتها تغييراً حاسماً والتوقف عن سعيها للحصول على دورة الوقود، فلابد أن تكون مقتنعة بأن أمنها، ومستقبل الجمهورية الإسلامية، سوف يحظى بقدر أكبر من الحماية نتيجة لذلك. ولكن إدارة بوش، التي تكره الجمهورية الإسلامية وترغب في سقوطها، لم تستوعب هذه الحقيقة غير المستساغة. وزعم سيمور هيرش في





يشكو الكثير من الدبلوماسيين الأوروبيين من أن الولايات المتحدة تسيطر عليها فكرة إحالة إيران إلى مجلس الأمن ولكنها لم تتوصل بعد إلى ما تريد عمله في حال توجيه التهمة إلى إيران



عدد ٢٤ يناير الماضي من «ذا نيويوركر» أن الولايات المتحدة «تقوم بمهام استطلاعية داخل إيران منذ الصيف الماضي على الأقل» بهدف تحديد أماكن العشرات من المواقع النووية التي «يمكن تدميرها بضربات شديدة الدقة وغارات فدائية قصيرة المدى».

وقد نفى البنتاجون جزءاً كبيراً من تقرير هيرش. وبالمثل بدا المسئولون الإيرانيون غير مكترثين؛ فمهما كانت حقيقة تأكيدات هيرش، فهم لن يعترفوا طواعية بوقوع انتهاك لحدودهم. ومن الممكن أن يساعد القلق الذي من هذا النوع الأوروبيين على انتزاع تنازلات أثناء مفاوضاتهم. إلا أنهم سوف يرسخون على المدى البعيد الرأي الأوروبي المتشائم القائل بأن الولايات المتحدة تعتزم، بعد تخريبها المحادثات إلى حد كبير برفضها الانضمام إليها، استخدام فشلهم ذريعة لزيادة الضغط على الجمهورية الإسلامية.

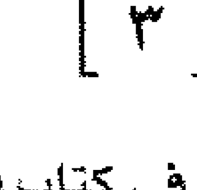
[٢]

حاول بيل كلينتون في ولايته الأولى عزل إيران بفرض عقوبات أشد عليها وبالجهود الدبلوماسية، بغرض منعها من شراء التكنولوجيا النووية، وهو ما لم يحقق إلا نجاحاً جزئياً. وفي عام ١٩٩٦، كما يروي پولاك، كادت الحرب تنشب بين البلدين بعد قصف المجمع السكني العسكري الأمريكي في السعودية على أيدي عملاء كان يعتقد أن إيران تساندهم. وبعد فترة قصيرة من الهجوم وافق الكونجرس على قانون العقوبات الإيرانية الليبية الذي منح الرئيس سلطة فرض عقوبات ثانوية على شركات في العالم الثالث لها استثمارات في قطاع الطاقة الإيراني. وفي العام التالي بدا أن انتخاب الرئيس الإيراني الإصلاحي محمد خاتمي يشير إلى إمكانية وجود جمهورية إسلامية جديدة معتدلة نسبياً وأقل عنفاً في معارضتها للمصالح الأمريكية. وأمضى كلينتون ما تبقى من ولايته في تعديل سياسته لمصلحة إيران. ويصف پولاك كيف شجع كلينتون اتصالات «الأشخاص بالأشخاص» وخفف بعض العقوبات الثنائية ضد التجارة، وأعلن أنه لن يلجأ إلى قانون العقوبات الإيرانية الليبية الذي أُقر في عام ١٩٩٦. كما سمح لمادلين أولبرايت بالاعتذار عن تاريخ أمريكا الخاص بالتدخل في السياسة الإيرانية الداخلية.

كان المقصود بتنازلات كلينتون، كما يسميها پولاك، إقناع خاتمي بتقديم مقترحات خاصة به، ولكن الرئيس الإيراني خسر الصراع على النفوذ مع المؤسسة المحافظة التي شعرت بتهديد من محاولاته تعزيز الديمقراطية ونبرته الأكثر هدوءاً تجاه الولايات المتحدة. وفي نهاية فترة رئاسة كلينتون كان من الواضح أن الكلمة العليا في إيران للمتشددين. ومع ذلك ساهمت إيران بحماس في أعقاب هجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ في جهود جورج بوش لهزيمة جارتها الشرقية الكريهة حكومة طالبان. وبدأ مسئولو الخارجية الأمريكية في الحديث إلى الإيرانيين بشأن اتباع سياسة وفاق أوسع نطاقاً. ولكن الإسرائيليين اعترضوا في بداية ٢٠٠٢ سفينة تحمل أسلحة كان هناك اعتقاد كبير بأنه قد جيء بها من إيران وأنها في طريقها إلى السلطة الفلسطينية، وهو ما زعموا أنه انتهاك للاتفاقيات التي بين الفلسطينيين وإسرائيل. وتغير الوضع.

بعد بضعة أسابيع وضع بوش إيران ضمن «محور الشر» إلى جانب العراق وكوريا الشمالية. وهو يحاول منذ غزو العراق الضغط على كوريا الشمالية كي تفكك منشآتها النووية، ولكنه مقاربته لإيران يلفها الغموض حتى الآن. وتوضح الحكومة الأمريكية برفضها إقامة علاقات دبلوماسية واقتصادية مع إيران أن واشنطن لا تعتبر الجمهورية الإسلامية دولة تتمتع بالشرعية. وفي الوقت نفسه تطالب الولايات المتحدة إيران بالتعاون في جهودها لجعل الأوضاع مستقرة في العراق ومعارضة حدوث تمرد هناك.

تود الجمهورية الإسلامية من جانبها أن يكون العراق مستقراً. وسوف تضمن الانتخابات الديمقراطية أن تكون السلطة بيد أبناء مذهبهم من الشيعة. ومن ناحية أخرى، فإنهم لا يريدون أن يكون العراق دولة عميلة للولايات المتحدة، أو أن يصبح نموذجاً للأيديولوجيين في واشنطن الذين يظنون أنه لابد من وضع الديمقراطيين الموالين للولايات المتحدة في السلطة في أنحاء الشرق الأوسط. ويسعى الإيرانيون منذ فترة طويلة للحصول على ضمانات بعدم تعرض أمنهم للخطر عند تعديلهم سياساتهم الخارجية لمصلحة أمريكا، غير أن إدارة بوش رفضت تلك المقترحات.[٤] وكانت نتيجة ذلك أن الإيرانيين يساعدون الأمريكان في العراق ببعض الطرق ويعوقونهم بطرق أخرى. فقد شجع الإيرانيون حلفاءهم الشيعة في العراق على دخول الانتخابات المنتظر إجراؤها في بداية العام الحالي. وفي الوقت نفسه يقول الأمريكيون والبريطانيون إن عملاء الإيرانيين الذين يستخدمون السلاح والمال يرعون جماعات إيرانية كثيرة، ليست جميعها من الشيعية، بما في ذلك العديد من الجماعات النشطة في المثلث السني. ولا يشك أحد في قدرة إيران على خلق المزيد من الفوضى في العراق؛ رداً على هجوم إسرائيلي أو أمريكي على المنشآت النووية، على سبيل المثال.



[٣]

نقطة البداية في كتاب پولاك «اللغز الفارسي» هو اعتقاده أن أمريكا تستحوذ على تفكير القيادات الإيرانية لأسباب تاريخية، وأن «تاريخ العلاقات الأمريكية الإيرانية يتضمن دروساً كثيرة تستفيد منها إدارة السياسة الأمريكية في المستقبل». ويخصص پولاك حوالي ١٤٠ صفحة لتلخيص تاريخ العلاقات الأمريكية الإيرانية حتى ثورة ١٩٧٩. وهو يولي اهتماماً خاصاً بالانقلاب الذي أطاح بمحمد مُصَدِّق رئيس الوزراء الإيراني الوطني في عام ١٩٥٣ بترتيب من وكالة الاستخبارات المركزية، والفهم الإيراني الشائع للشاه على أنه أداة للسياسة الأمريكية. ويعتقد پولاك أن الأخطاء، الحقيقي منها والمتصور، التي ارتكبتها أمريكا في إيران قبل الثورة الإسلامية مازال أثرها واضحاً على السياسة الأمريكية، وهو يرجع جزءاً كبيراً من عداء الإيرانيين في الفترات اللاحقة إلى الرغبة الوطنية في الانتقام من تلك الأخطاء.

كثيراً ما يكون استعراض پولاك التاريخي غير دقيق[٥] وهو يكتب في بعض الأحيان بطريقة تبعث على الحيرة والارتباك. ففيما يقوله لا تُحدث الأفعالُ ردود أفعال؛ بل هي «تستجديها». فقد استطاع الإيرانيون «الفوز سريعاً بالحظوة في المجتمع اللبناني». وفيما يتعلق بالحرب الإيرانية العراقية، التي قدمت فيها الولايات المتحدة دعماً كبيراً للعراق، لا يتحدث پولاك عن استئناف القصف الجوي، بل عن «تكراره». وهو لم يستغرق سوى ثلاثة أشهر فحسب في كتابة كتابه، وهو الأمر الذي يدل عليه الكتاب.

في الفصل الأخير من الكتاب، وعنوانه «نحو سياسة إيرانية جديدة»، يورد پولاك قائمة بالسياسات الأمريكية التي تجد الولايات المتحدة أنها أبغض ما يكون:

دعمها لـ... الإرهاب الدولي، ومعارضتها العنيفة لإبرام اتفاقية سلام عادل بين العرب والإسرائيليين، وسعيها لامتلاك أسلحة الدمار الشامل النووية... وسجلها السيئ الخاص بحقوق الإنسان.

بولاك محق في أن أمريكا تستحوذ على تفكير القيادات الإيرانية، غير أن التاريخ ليس السبب الرئيسي أو الأهم وراء ذلك. فلو كان التاريخ هو العامل المحدد لسياسة إيران لما كان للجمهورية الإسلامية علاقات جيدة إلى حد ما مع بريطانيا، معذبتها الإمبريالية الجديدة، أو علاقات طيبة مع روسيا، تلك القوى الكبرى التي سعت إلى السيطرة على بلاد فارس. إن الخلاف بين إيران والولايات المتحدة يدور حول جهود أمريكا لتحديد مستقبل الشرق الأوسط وتعزيز سياستها هناك، والخطر الذي يمثله ذلك بالنسبة للدولة الثورية التي تأسست على مبادئ تتناقض مع مبادئ الولايات المتحدة. فليست هناك دولة غربية تسعى وراء مصالحها في الشرق الوسط بقوة ونشاط يزيد عما تسعى به الولايات المتحدة وراء مصالحها في المنطقة. ومن الطبيعي أن تنظر إيران إلى





في ٢٧ أكتوبر ٢٠٠٤ وصف آية الله خامنئي المرشد الأعلى المحافظ لإيران، وصاحب الكلمة الأخيرة في القضايا السياسية، أية تكهنات تشير إلى أنه سيجري تعليق تخصيب اليورانيوم «غير منطقية»



أمريكا على أنها أكبر ما يواجهها من تهديدات. ويقوم عداء إيران لإسرائيل في المقام الأول على رؤيتها لإسرائيل على أنها وكيل أمريكي. ويعتقد المسئولون الإيرانيون أن أحداً لا يتخيل ارتكاب إسرائيل فظائعها ضد الفلسطينيين بدون موافقة أمريكية.

مفتاح تفكير بولاك هو إعلانه أن «إيران بصورة كبيرة هي من حدد نبرة واتجاه العلاقات» بين طهران وواشنطن. ومن الغريب، وربما كان تعبيراً عن الصخب أو مجرد البقعة العمياء، أن يبدو بولاك وكأنه لا ينظر إلى وجود أمريكا الكبير والنشط في أنحاء الشرق الأوسط على أن له تأثيراً كبيراً على «نبرة واتجاه» علاقاتها مع إيران. وعلى أية حال فإن هناك اعترافاً على نطاق واسع بأنه لم يكن للإيرانيين ضلع في هجوم الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١، وأن «الرؤية الإستراتيجية» لجورج بوش شملت غزو العراق ودعم أرييل شارون. ولم تعد إيران بالقوة والثقة اللتين يجعلانها تحاول تصدير الثورة. ويكاد سلوكها، طاب أو ساء، يكون تفاعلياً بالكامل.

قد يكون من المفيد التفكير في التكتيكات الإيرانية التي يعد سعي طهران إلى الغموض النووي مثالاً لها. بغض النظر عن مدى عدوانيتها في حد ذاتها. على أنها جزء أساسي من إستراتيجية دفاعية في جوهرها. فالجمهورية الإسلامية في وضع المدافع من أوجه عديدة: ضد الشعب الذي تحرر من الوهم في الداخل، وضد أمريكا المعادية على حدودها الشرقية والغربية. فقد أقامت الولايات المتحدة قواعد عسكرية جديدة على مقربة من إيران في قرغيزستان وأوزبكستان، بالإضافة إلى قواتها المتمركزة في العراق وأفغانستان. ومن الواضح في رأي المصادر العليمة في الخارج أن القيادات الإيرانية تحاول وقف مد التاريخ، الذي يميل عاجلاً أو آجلاً إلى إغراق الأيديولوجيات غير المرنة ومؤيديها المستبدين.



يتسم بولاك بالدهاء حين يصف هذا الموقف في إيران. فهو محق في تحذيره واضعي السياسات الأمريكية من الاعتماد على المشاعر المؤيدة لأمريكا بصورة عامة فيما بين الكثير من الإيرانيين. وهو كذلك على حق في رؤيته هذه المشاعر على أنها إلى حد ما رد فعل لمشاعر حكامهم غير المحبوبين المعادية لأمريكا التي تتسم بالنقد القاسي. وباعتباره أحد أعضاء مجلس الأمن القومي في إدارة كلينتون، فقد كان على صواب في تعريفه الرئيس محمد خاتمي بأنه مؤيد مخلص للإصلاح. ومع أن جهوده لتشجيع خاتمي لم تفض إلى شيء، فقد كانت جهوداً مشرفة وجديرة بالاحترام. وقد وجدت أن ما قاله عن تلك الجهود هو الجزء الأكثر لفتاً للانتباه في الكتاب.

يعتقد بولاك أن القيادات الإيرانية «يمكنها إقناع الشعب الإيراني بتحمل تضحيات كبيرة في السعي وراء أفكار مجردة من قبيل: مقاومة النفوذ الأجنبي». غير أن قضاء بضعة أيام في طهران قد يقنعه بما هو عكس ذلك. فالقيادات الإيرانية تعلم أن الأفكار المجردة التي تروجها في خطب الجمعة تحظى بالقليل من التأييد الشعبي. وهي تخشى أن تدفع أية فترة من المصاعب الاقتصادية الناس إلى التعبير عن تعاستهم بطرق لا يمكن التنبؤ بها. فالساسة الإيرانيون، وخاصة من يتحكمون في أموال البلاد، يبددون فائض النفط الإيراني في نوبات إنفاق لا ضابط لها ولا رابط. وقد شجعت القيادات الإيرانية ثقافة النزعة الاستهلاكية التي تتناقض مع قيم المساواة التي تزعم الإيمان بها. كما أنها ليست على استعداد للمخاطرة بوجود معدل بطالة أكبر لكي تصلح اقتصادها غير الفعال إلى حد كبير ويسيطر عليه القطاع العام الفاسد المحمي من أية منافسة. ورغم كل ما يبدو على إيران من استقرار، فهي دولة غير واثقة في شعبها.

لو امتلكت إيران القدرة على صنع القنابل النووية على وجه السرعة، إلى جانب إنجازها دورة الوقود اللازمة للأغراض السلمية، فقد تشعر بقدر أكبر من الأمان؛ إلا أنه من غير المرجح أن تعيد تنشيط سياستها الخارجية القديمة التي تتسم بقدر كبير من الولع بالقتال. ولو بدأت من ناحية أخرى في اغتيال المعارضين في الخارج، ووجهت ضربات مباشرة إلى أهداف غربية، فمن المؤكد أنها ستجبر أمريكا وحلفاءها. حتى الأوروبيين منهم الذين يرجح أنهم مهمومون في المقام الأول بمصالحهم. على اتخاذ إجراء قوي. وإيران عرضة لأن تُتخذ ضدها إجراءات تفرض عليها المزيد من العزلة. وقد يكون لفرض الاتحاد الأوروبي شريكها التجاري الأساسي عقوبات عليها، أو حتى التهديد بفرض تلك العقوبات، أثر يؤدي زعزعة استقرارها بشكل حاد.

في أعقاب اتفاقية ٢٠٠٣ بين الأوروبيين وإيران، تعجلت في تكهني بأن إيران سوف تلتزم بتعهداتها.[٦] إلا أن الإيرانيين سخروا من روحهم. فأثناء المحادثات اللاحقة كان المفاوضون الإيرانيون يثيرون غضب شركائهم الأجانب بما يقدمونه من طلبات غير متوقعة في لحظات أساسية من المفاوضات؛ كما حدث في نهاية نوفمبر من عام ٢٠٠٣ بينما كان مجلس حكام الوكالة الدولية للطاقة الذرية يعد مسودة القرار الخاص ببرنامج إيران النووي. وفي النهاية ضمن الإيرانيون الصياغة التي تجعل من الأسهل لهم، في رأيهم، استئناف نشاطهم الخاص بالتخصيب وإعادة المعالجة في المستقبل، وذلك في مقابل سحب طلب السماح لهم بإجراء تجارب على عشرين جهاز طرد مركزي.

في غياب استطلاعات الرأي التي يُعوَّل عليها، يعتقد الكثير من المراقبين الأجانب أن معظم الإيرانيين سوف يؤيدون امتلاك إيران للأسلحة النووية. وهم يفترضون بشكل منطقي أن الإيرانيين مستاءون من امتلاك جيرانهم وجيرانهم الأقربين مثل باكستان والهند وإسرائيل أسلحة نووية بينما هم لا يملكونها. وليس مستغرباً أن يشك الإيرانيون في دوافع الدول المسلحة نووياً التي تحمي التكنولوجيات الحساسة. ولكن يبدو كذلك أن المراقبين الأجانب يفترضون أن أعداداً كبيرة إلى حد ما من الإيرانيين تتفق في الرأي مع قادتها ومع القرارات التي يتخذونها. غير أنه قد لا يكون ذلك هو الحال.

على امتداد العام المنصرم، زرت موقعي كارثتين إيرانيتين كبيرتين. كانت الكارثة الأولى في مدينة بام الواقعة في الجنوب الشرقي من إيران حيث قتل الزلزال ما يزيد على ٢٦ ألف نسمة في الشتاء الماضي. أما الثانية فكانت في باكداشت، ذلك الحي الفقير الواقع خارج طهران حيث حُكم مؤخراً بالإعدام على رجل ارتكب جرائم قتل (واغتصاب في كثير من الحالات) راح ضحيتها عشرون شخصاً، معظمهم صبية صغار. ويعتبر تأخير «إعادة إعمار» بام بسبب العجز والتنازع فيما بين الإدارات والفساد المزعوم فضيحة قومية. وكذلك كان رد الفعل تجاه باكداشت، حيث كانت السلطات المحلية على امتداد فترة تزيد على السنة تبدي عدم اكتراث واضح عند اختفاء أبناء أناس عاديين بشكل منفرد. وقد وجدت أن سكان تلك المناطق تخلوا عن تردد الإيرانيين المعتاد في سب السلطات أمام الأجانب. فقد فاض بهم الكيل إلى حد كبير من الدولة، ولم يعودوا يثقون في دوافعها، ويرفضون ما تدعيه من كفاءة واقتدار.

هذان نموذجان متطرفان للعلاقة السيئة بين الحكام والمحكومين التي تنعكس على تزايد شك الإيرانيين من سكان المدن في السياسة. (كانت نسبة مشاركة الناخبين في انتخابات فبراير، التي كثرت فيها العيوب والأخطاء، حوالي ٣٥ بالمائة في المدن الكبرى، بما في ذلك طهران.) ولا تعكس افتتاحيات الصحف الملتهبة المؤيدة للبرنامج النووي «جدلاً» قومياً بشأن الموضوع، بل تعكس خطاب الجماعات المتنافسة داخل البلاد. فالبرنامج مهم على المستوى الداخلي بالنسبة لجماعة صغيرة من الساسة الذين يسجلون النقاط على بعضهم بعضاً. (في ١٦ نوفمبر، على سبيل المثال، استدعى البرلمان الإيراني، الذي ليس له تأثير على صياغة السياسة الخارجية،





برغم مطالبة الأوروبيين، لم تحسن إيران سجلها الخاص بحقوق الإنسان أو تقلل دعمها للجماعات المتشددة التي تعارض السلام بين إسرائيل والفلسطينيين



كبير المفاوضين النوويين وأنّبه على الاتفاق مع الأوروبيين، الذين قيل إنهم طالبوا إيران بتقديم تنازلات أكثر مما يجب.) إلا أن معظم الإيرانيين يرون أن ثمن الخبز وفشل الحكومة فى خفضه أكثر أهمية.

لقد أصبحت برامج إيران النووية وما إذا كانت ستسعى لتحقيقها أم لا مسألة مهمة بالنسبة لطموح الجمهورية الإسلامية الأوسع فى الشئون الخارجية. ومن غير المحتمل أن يزعزع تقرير هيرش إيمان معظم الإيرانيين بأن الإسرائيليين أو الولايات المتحدة لا يعتزمون شن هجوم على منشآتهم النووية.[٧] ولكنهم يعرفون ويعرف الأوروبيون أن اتفاقية نوفمبر ٢٠٠٤ لن تحقق الكثير ما لم ينضم الأمريكيون إلى المفاوضات، حيث يقدمون مزايا مثل الضمانات الأمنية وعقد اتفاق بشأن الأصول الإيرانية فى الولايات المتحدة، وإمكانية وجود علاقات اقتصادية طبيعية. ويحذر الأمريكيون إلزام أنفسهم بتلك السياسات ما لم يوافق الأوروبيون وغيرهم، وخاصة روسيا والصين؛ على اتخاذ إجراء عقابى فى حال مضى إيران قُدُمًا نحو إنجاز دورة الوقود التى يمكن أن تنتج الأسلحة النووية. والمطلوب للتعامل مع إيران وطموحاتها النووية هو تشكيل تحالف دولى يضم الأمم المتحدة؛ وليست تلك هى البراعة التى يتسم بها جورج بوش.

الـهـوامـش

(١) وافقت الصين فى أكتوبر على شراء كمية كبيرة من الغاز الطبيعى الإيرانى وتطوير أحد حقول النفط الإيرانية. وتتوقع إيران حصولها على الدعم الدبلوماسى الصينى فى مقابل تزويد بكين بالطاقة، ومن المرجح أن يحدث ذلك. وقد تشعر روسيا التى زودت إيران بالتكنولوجيا والمعدات النووية، إلى جانب الطائرات المدنية والسلاح، بالحرج إذا أحيلت إيران إلى مجلس الأمن.

(٢) «تنفيذ اتفاقية الضمانات الخاصة باتفاقية منع انتشار الأسلحة النووية فى جمهورية إيران الإسلامية» تقرير كتبه المدير العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية فى ١٥ نوفمبر ٢٠٠٤. وكان ذلك التقرير ضروريًا بالنسبة لما ارتكبته إيران من جنح فى السابق، إلا أن نبرته المتفائلة فى مجملها أثارت غضب إدارة بوش التى لا تخفى كراهيتها للبرادعى. وطبقًا لما ذكرته «ذا واشنطن بوست» فقد تجسست حكومة بوش على المكالمات التليفونية بين البرادعى والإيرانيين فى محاولة منها لإيجاد أدلة على تحيز المدير العام المزعوم لإيران من الواضح أنها جزء من السعى للاستغناء عن البرادعى حين تنتهى فترة عمله الثانية كمدير عام فى نهاية العام الحالى. ويحظى البرادعى بدعم معظم الدول الأعضاء فى الوكالة الدولية للطاقة الذرية، وربما لم تقترح إدارة بوش مرشحًا بديلاً لهذا السبب؛ ويتكهن بعض مسئولى الإدارة الأمريكية الآن بأن يبقى البرادعى فى منصبه. وكان البرادعى قد أثار غضب الإدارة فى البداية حين شكك. واتضح أن لديه سببًا منطقيًا فى شكه. فى المعلومات الاستخباراتية الأمريكية بشأن برامج أسلحة الدمار الشامل العراقية قبل غزو ٢٠٠٣ للعراق. وبناء على ما ذكره داريل كمبل المدير التنفيذى لاتحاد منع الأسلحة، وهو جماعة سياسية لمنع الأسلحة مقرها واشنطن، فإن «البعض فى إدارة بوش يسعون للعقاب فحسب».

(٣) يوضح قرار إيران فى بداية العام الحالى بالخضوع للضغط وفتح مجمعها العسكرى الشاسع فى پارتشين خارج طهران للمفتشين هذا الاختلاف فى المفاهيم. فطهران ترى أن القرار يقدم المزيد من الأدلة على انفتاح إيران، بينما يؤكد الأمريكان من جانبهم ومنذ فترة طويلة أن الإيرانيين يسعون إلى صنع رأس حربية فى الموقع ويفترضون أنهم قد أخفوا ما يدل على قيامهم بذلك هناك. وإذا لم يجد المفتشون شيئًا فى پاتشين، فلن يقتنع الأمريكيون بأن الإيرانيين صادقون حين يقولون إنه ليس لديهم برنامج لصنع الرءوس الحربية فى پاتشين.

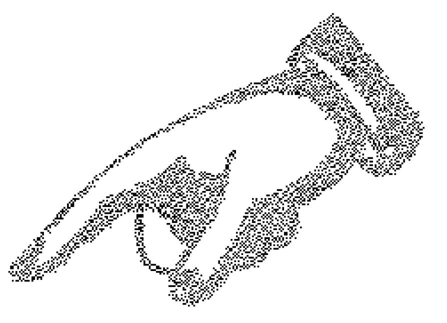
(٤) على هامش المؤتمرات الأكاديمية، ومن خلال مبعوثها إلى الأمم المتحدة، وعن طريق الوساطة، عبرت إيران عن استعدادها لإبرام «صفقة كبيرة» لإنهاء العداء مع الولايات المتحدة. وبناء على ما جاء فى مقال كتبه مؤخرًا بارتون جيلمان ودافنا لينزر فى «ذا واشنطن بوست» («مكالمات قوية غير مسبوقة للقوى الخطرة» ٢٦ أكتوبر ٢٠٠٤)، فقد أبلغ البرادعى بوش فى أكتوبر ٢٠٠٢ أنه «تحدث إلى القيادات الإيرانية ويعتقد أنها مازالت مقتنعة بالعدول عن تخصيب اليورانيوم. وبناء على ما ذكرته مصادر مطلعة على نص مكتوب للقاء بوش والبرادعى، فقد قال البرادعى إن الإيرانيين يريدون إجراء محادثات وعرضوا المساعدة فى فتح قناة للاتصالات الهادئة. ولكن بوش اعترض». وطبقًا لما جاء فى المقال نفسه، فقد رفض جون بولتون وكيل الخارجية الأمريكية لانتشار الأسلحة النووية الذى يتسم بالتشدد مقترحات لاحقة بقوله «لسنا مهتمين بأية صفقة كبيرة».

(٥) على سبيل المثال، لم يكن مجمع الإمبراطور دارا الإكمينى فى بيرسبوليس على وجه التحديد «العاصمة الإمبراطورية» التى يقول پولاك إنها كذلك. لقد كانت مركزًا للطقوس؛ ذلك أنه كان هناك مكان آخر تدار منه الإمبراطورية ويُستقبل فيه المبعوثون الأجانب. ولم يسيطر الميديون الذين خَلَفَهم الإكمينيون على إيران «قرونًا طويلة» كما يقول پولاك، بل استمرت إمبراطوريتهم بالكاد ستين سنة. وليس «المُلاّ» كما يقول هو «مصطلح فارسى يعنى رجل الدين»، بل هو كلمة عربية تعنى المُعَلِّم. ولا يعنى رستاخيز، وهو اسم الحزب الوحيد الذى سمح به الحزب السياسى الموالى للشاه فى عام ١٩٧٥، «النهضة» كما يقول پولاك، وإنما «البعث».

(٦) انظر مقالى «صفقة كبيرة فى إيران»، The New York Review of Books, February 26, 2004.

(٧) يتوقع الإيرانيون أن الطابع المشتت لمنشآتهم، والتداعيات المحتملة لتلك الضربة، سوف يبعد أعداءهم. وأجاب وزير الدفاع الإيرانى عن سؤال بشأن الرد الإيرانى على الضربة العقابية بقوله: «لن نقف مكتوفى الأيدى. فأمريكا ليست الوحيدة الموجودة فى المنطقة. ذلك أن لنا وجودًا من خوست إلى قندهار فى أفغانستان، ونحن موجودون فى الخليج الفارسى، ويمكن أن نوجد فى العراق.» وقد يضيف معظم الناس إسرائيل إلى هذه القائمة. حيث يعمل حزب الله وآخرون ممن لهم صلة بإيران. وطبقًا لما قاله سفير الاتحاد الأوروبى فى طهران، فإن الهجوم قد يعطل تطور إيران النووى، ولكنه «سوف يكون أفضل طريقة لضمان تسخير إيران لمواردها وخبراتها كافة للحصول على القنبلة النووية بأسرع ما يمكن».





أبو بكر الرازى

مقالة فى النقرس

يعد أبو بكر محمد بن زكريا المعروف بالرازى أحد أهم الشخصيات التى تألقت فى سماء التاريخ العربى الإسلامى، بل الإنسانى عامة. واشتهر الرازى المتوفى عام ٣١٣ هجرية بمنهجيته العلمية وبأنه أرسى الطب على قاعدة البحث الإكلينيكى. ولم يغرق فى البحوث النظرية. وللرازى أعمال أخرى غير الحاوى بعضها فلسفى. وبعضها طبى مثل مقالة فى النقرس. وهى مخطوطة من ضمن مقتنيات مكتبة الإسكندرية. وقد أعادت المكتبة نشرها بعد أن حققها الدكتور يوسف زيدان، وتنشر «وجهات نظر» صفحات من المقالة.

صورة زنكوغرافية من المخطوطة الأصلية

تأمل (مجّ mug) مملوءاً بالقهوة أمريكية. إنها متوافرة فى كل مكان. يمكن أن يصنعها أى كان. رخيصة وإعادة ملئها مجانا. ولأنها بدون نكهة مميزة تقريبا فيمكن تخفيفها حسب الذوق. فما تفتقده بالجاذبية تعوضه بالحجم.

من بين كل الوسائل التى ابتكرت، هذه هى الأكثر ديمقراطية لضخ الكافيين فى عروق البشر.

الآن خذ قدحا من الاسبريسو الإيطالية. تحتاج لصنعها إلى آلة غالية الثمن ولا مجال لتحديد السعر حسب الحجم فذلك يوحى باللامبالاة بالمستهلك وجهل بالسوق. إن الإحساس بالمتعة الجمالية للمشروب يتجاوز كثيرا تأثيرها الكيماوى على الجسم. إنها ليست مشروبا بل تحفة فنية.

تنطبق هذه المقارنة على الاختلافات بين أمريكا وأوروبا: اختلافات تتأكد هذا اليوم بتكرار متصاعد وحاد على جانبى الأطلنطى. فالانتقاد المتبادل شائع. فالمعلقون الأمريكيون يرون أوروبا متصلبة ويفتقر العمال وأصحاب العمل والقوانين فيها إلى المرونة والقدرة على التكيف الموجودة لدى نظرائهم فى أمريكا.

إن تكاليف دفعات الضمان الاجتماعى الأوروبى والخدمات العامة لا يمكن احتمالها، وسكان أوروبا المتقدمون فى السن مرفهون وغير منتجين. فى دنيا العولمة يبدو (النموذج الاجتماعى الأوروبى) سرابا مقضيا عليه. وهذه نتيجة توصل إليها حتى المراقبون الأمريكيون (الليبراليون) الذين يختلفون عن النقاد المحافظين (والمحافظين الجدد) فى أنهم لا يستمدون بهجة من الانتقاد.

وعلى أية حال وفى نظر أعداد متزايدة من الأوروبيين، فإن أمريكا هى التى فى خطر وكذلك (طريقة الحياة الأمريكية) التى لا يمكن تحمل أعبائها. إن السعى الأمريكى للثروة والحجم والوفرة. حيث تعوض المادة عن السعادة - غير ممتع جماليا وكارثى بيئيا. فالاقتصاد الأمريكى مبنى على رمال (وبتعبير أدق: أموال الآخرين) وبالنسبة لكثير من الأمريكيين يتلاشى الأمل بالوعد بمستقبل أفضل.

وتتسم الثقافة الجماهيرية فى الولايات المتحدة بالسوقية والبرقشة ولهذا لا عجب أن الكثير من الأمريكيين يتحولون الآن إلى الكنيسة للبحث عن السلوى.

تشكل هذه المفاهيم الفجوة الأطلنطية الحقيقية وتوحى بأن شيئا قد تغير. فى العقود الأخيرة بدا من المفترض - سواء برضا أو ندم - أن أوروبا وأمريكا تتمحوران حول نموذج (غربى) منفرد ولدته الرأسمالية المتأخرة بقيادة الولايات المتحدة - كالعادة - وسوف يسحق منطق المعدلات والسوق والكفاءة والربح المتغيرات المحلية والتقاليد الثقافية المتوارثة. الأمركة (أو العولمة وكل من التعبيرين مرادف للآخر) شىء لا يمكن تفاديه والأمل الأفضل - و بالتأكيد الوحيد - للمنتجات والثقافات المحلية هو الانخراط فى دوامة العولمة ثم يعاد تعليبها باعتبارها سلعا (عالمية) للاستهلاك العالمى. وهكذا فإن منتجا إيطاليا هو القهوة الاسبريسو - يمكن

أوروبا



أن ترحل إلى الولايات المتحدة وسوف تتحول من سلعة خاصة بذوق الصفوة إلى سلعة شعبية ثم يعاد تعليبها وبيعها إلى الأوروبيين بوساطة سلسلة متاجر أمريكية.

ولكن حدث خطأ ما فى هذه القصة. فلم تصادف محلات ستاربكس مقاومة أجنبية غير متوقعة لصنف القهوة بدون كافايين بالقرفة وبالحليب منزوع الدسم (ماعدا فى المملكة المتحدة) فقط، وإنما قاطع الأوروبيون المسيسون السلع الأمريكية.

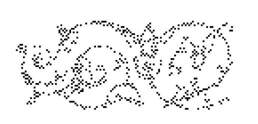
لقد أصبح من الجلى أن أمريكا وأوروبا ليستا محطتين على خط الإنتاج التاريخى، مما يمكن للأوروبيين أن يتوقعوا وراثة أو محاكاة التجربة الأمريكية بعد فترة مناسبة من الزمن. انهما كائنان مختلفان تماما وربما يتحركان فى اتجاهين متضادين.

بل إن هناك بعض الكتّاب ممن يرون أن أوروبا ليست هى الواقعة فى فخ الماضى وإنما الولايات المتحدة.

إن غرائب الثقافة الأمريكية (كما تراها أوروبا) معروفة: التدين الواضح، الولع الانتقائى[1]، شغفها بالمسدسات والعنف والسجون (لدى الاتحاد الأوروبى ٨٧ سجينًا لكل ١٠٠ ألف شخص ولدى أمريكا ٦٨٥) وتأييدها لعقوبة الإعدام.



فى السويد تحصل النساء على ٦٤ أسبوعًا إجازة وثلثى الأجور. حتى البرتغال تضمن إجازة أمومة لثلاثة أشهر بكامل الأجر. أما فى الولايات المتحدة فإن الحكومة الفدرالية لا تضمن شيئا





توني يوت

وكما عبر عنه ت.ر. رايد فى كتابه (الولايات الأوروبية المتحدة): « نعم. الأمريكيون يضعون لافتات عملاقة تقول - أحب جارك - ولكنهم يقتلون ويغتصبون جيرانهم بمعدلات تصدم أى شعب أوروبى». ولكن غرائب الاقتصاد الأوروبى والنفقات الاجتماعية هى التى تجذب أنظارنا الآن.

يعمل الأمريكيون ساعات عمل أكثر بكثير من الأوروبيين: فطبقا لـ (منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية OECD) يعمل الموظف الأمريكى النمطى ١٨٧٧ ساعة حسب إحصاء عام ٢٠٠٠ مقارنة بـ ١٥٦٢ ساعة يعملها نظيره الفرنسى. ويعمل واحد من بين كل ثلاثة أمريكيين أكثر من ٥٠ ساعة أسبوعيا ويحصل الأمريكى على إجازات مدفوعة الأجر أقل من الأوروبى.. ففى حين أن السويديين يحصلون على أكثر من ٣٠ يوما إجازة مدفوعة الأجر فى السنة ويحصل البريطانيون على متوسط ٢٣ يوما ولكن كل ما يرجوه الأمريكى هو ما بين ٤-١٠ أيام اعتمادا على مواقع عملهم. والبطالة فى الولايات المتحدة أقل من دول أوروبية كثيرة (ولكن طالما أن العاطل الأمريكى يفقد كل حقوقه فى مزايا البطالة ويحذف من السجلات فإن مثل هذه الإحصائيات غير دقيقة تماما). ويبدو أن أمريكا أفضل فى خلق الوظائف، وهكذا فإن عدد البالغين الأمريكيين الذين يعملون هم أكثر من الأوروبيين كما أنهم يعملون ساعات عمل أكثر ولكن ماذا يحصلون مقابل جهودهم؟

ليس الكثير إلا إذا كانوا أغنياء. إن الولايات المتحدة أفضل مكان للثراء. فى عام ١٩٨٠ كان المدير التنفيذى الاعتيادى يحصل على ٤٠ ضعف ما يحصل عليه العامل فى الإنتاج. الآن معدل الطبقة العليا من رؤساء مجالس الإدارات هو ١/٤٧٥ ويمكن أن تكون هذه النسبة أكبر بكثير إذا أخذنا بعين الاعتبار رؤوس الأموال الثابتة وليس الدخل فقط. وللمقارنة: النسبة فى بريطانيا هى ٢٤/ ١ وفرنسا ١/١٥ وفى السويد ١/١٣ وهذه الأقلية المتميزة تحصل على أفضل علاج طبى فى العالم ولكن ٤٥ مليون أمريكى لا يملكون أى نوع من التأمين الصحى على إطلاق (من بين دول العالم المتقدمة تنفرد الولايات المتحدة وجنوب أفريقيا بعدم وجود تغطية طبية عامة). وطبقا لمنظمة الصحة العالمية تتبوأ الولايات المتحدة المركز الأول فى النفقات الصحية لكل فرد والمركز ٣٧ فى نوعية الخدمات الصحية.



نتيجة لذلك يعيش الأمريكيون حياة أقصر من مواطنى أوروبا الغربية ويموت أطفالهم بعد الولادة أكثر احتمالا: ترتيب الولايات المتحدة السادس والعشرون بين الدول الصناعية فى وفيات الأطفال بمعدل ضعف الوفيات فى السويد وأعلى من سلوفينيا وأعلى قليلا من لتوانيا. هذا رغم أن الولايات المتحدة تصرف ١٥٪ من الناتج المحلى الأمريكى الكلى على (العناية الصحية) - يستنزف معظمه النفقات الإدارية للشبكات الخاصة التجارية). بالمقارنة بذلك فإن السويد تكرس ٨٪ من دخلها القومى للصحة.

وصورة التعليم لا تختلف. فالولايات المتحدة تصرف أكثر على التعليم بالمقارنة بشعوب أوروبا الغربية ولديها حتى الآن أفضل جامعات البحوث فى العالم ولكن الدراسات الأخيرة تبين أنه مقابل كل دولار تصرفه الولايات المتحدة على التعليم تحصل على أسوأ النتائج من أى دولة صناعية أخرى. والأطفال الأمريكيون أقل أداءً من نظرائهم الأوروبيين سواء فى التعلم والعدد.

حسن جدا. هذا ما يمكن أن تستنتجه: الأوروبيون أفضل وأعدل فى توزيع المنافع الاجتماعية وهذا ليس جديدا. ولكن لا يمكن أن تكون هنالك منافع أو خدمات بدون ثروة وبالتأكيد فإن الشىء الوحيد الذى تحسنه الرأسمالية الأمريكية والتى يحتاج الأوروبيون الميالون إلى الدعة أن يقتبسوه هو التوليد الديناميكى للثروة.. ويبدو هذا واضحا فى يومنا هذا.

الأوروبيون يعملون أقل: ولكنهم يعملون بأقصى طاقاتهم. فى ١٩٧٠ كان الدخل القومى لكل ساعة فى الاتحاد الأوروبى ٣٥٪ أقل من الولايات المتحدة. اليوم الفجوة أقل من ٧٪ وتتقارب بسرعة.

فالإنتاجية لكل ساعة عمل فى إيطاليا والنمسا والدانمارك تماثل حاليا تلك التى فى الولايات المتحدة ولكن أيرلندا وبلجيكا ولكسمبورج وألمانيا وفرنسا يتفوقن على الولايات المتحدة فى هذا القياس.

إن تفوق أمريكا فى الأجور والإنتاجية - نمطية الحجم والموقع والتاريخ - تبدو فى تراجع مما يؤثر على الهيمنة الأمريكية على المشهد التجارى الدولى. فالاقتصاد الأمريكى الحديث ليس فقط مرهونا للصيارفة الدوليين مع دين خارجى يصل إلى ٣،٣ تريليون (٢٨٪ الدخل القومى) بل إن الاقتصاد الأمريكى يصبح يوما بعد آخر ملكا للأجانب. فى عام ٢٠٠٠ تجاوز الاستثمار الأوروبى المباشر فى الولايات المتحدة، الاستثمار الأمريكى فى أوروبا بما يقرب من الخمسين. من بين عشرات الشركات والمنتجات (الأمريكية) المملوكة لأوروبيين: إخوان بروكس وDKNY وراندوم هاوس وسجائر كنت وصابون دوف وكرايسلر وBirds Eye وبنزويل ولوس انجيليس دودجرز.

ويبدو أن الأوروبيين افضل من الأمريكيين فى توليد الأعمال الصغيرة ومتوسطة الحجم. هناك شركات صغيرة فى الاتحاد الأوروبى أكثر من الولايات المتحدة وهذه الشركات توفر وظائف (٦٥٪ من الوظائف

---

1 - The United States of Europe: The New Superpower and the End of American Supremacy
(الولايات المتحدة وأوروبا: القوى العظمى الجديدة ونهاية السيطرة الأمريكية)
Reid .R.T
Penguin, 305 pp., $25.95

2 - The European Dream: How Europe's Vision of the Future Is Quietly Eclipsing the American Dream
(الحلم الأوروبي: كيف تتجاوز الرؤية الأوروبية الحلم الأمريكي)
Jeremy Rifkin
Tarcher/Penguin, 434 pp., $25.95

3 - Free World: America, Europe, and the Surprising Future of the West
(عالم حر: أمريكا وأوروبا والمستقبل المباغت للغرب)
by Timothy Garton Ash
Random House, 286 pp. $24.95

عن:
The New York Review of Books

ترجمة: بثينة الناصرى

الأوروبية في ٢٠٠٢ كانت في الشركات الصغيرة والمتوسطة مقارنة بـ ٤٦٪ في الولايات المتحدة) وهم يرعون موظفيهم بشكل أفضل. إن ميثاق الاتحاد الأوروبي للحقوق الأساسية ينص على (حق إجازة الأمومة بعد الولادة أو التبني) وكل دولة أوروبية غربية توفر دعما ماديا خلال هذه الإجازة. في السويد تحصل النساء على ٦٤ أسبوعاً إجازة وثلثي الأجور. حتى البرتغال تضمن إجازة أمومة لثلاثة أشهر بكامل الأجر. أما في الولايات المتحدة فإن الحكومة الفدرالية لا تضمن شيئا. وكما قال فالجارد هوجلاند وزير النرويج الديمقراطي المسيحي لشئون الأطفال والعائلة: «يحب الأمريكيون الحديث عن القيم العائلية ولكننا قررنا أن نتجاوز الحديث إلى الفعل. إننا نستخدم عوائد ضرائبنا لندعم القيم العائلية».

ورغم التحسر على الإعاقة البيروقراطية والمالية للإنتاج، يبدو أن الأوروبيين يدبرون أمورهم جيدا. ومن الطبيعي أن دولة الرفاهية ليست مجرد قيمة بحد ذاتها. في تعبير أستاذ الاقتصاد في مدرسة لندن للاقتصاد نيكولاس بار: إنها وسيلة جيدة ضد عجز السوق». وهي إعاقة حكيمة للمخاطر الاجتماعية والسياسية التي تسببها اللاعدالة المفرطة. كان ونستون تشرتشل هو الذي أعلن في مارس ١٩٤٣: « ليس هناك استثمار افضل لأي مجتمع من ضخ الحليب في أطفالنا». وبالنسبة لأتباعه في أمريكا المعاصرة كان هذا قولا يفوح بالرفاهية. في أمريكا اليوم تتركز ٣٨٪ من الثروة في أيدي أغنى ١٪ وهم يعيدون توزيعها طبقا لأولويات مصالحهم. في حين أن أمريكي بالغ من كل خمسة يعيش في فقر مدقع - مقارنة بواحد من كل ١٥ في إيطاليا. ولم تعد المنافع تنهال مطلقا. وبالنسبة لكثير من الأجانب لا تثير هذه الرؤية شهيتهم. إن (أسلوب الحياة الأمريكية) يفقد بريقه. كنموذج اقتصادي ليس من الممكن تكرار الولايات المتحدة[٢]. وكنموذج اجتماعي لم تعد الولايات المتحدة تملك مؤهلات منقذة. وهذا يستدعي إلى الذهن انطباعات الشاعر اوليفر جولدزميث القاتمة حول عصر سابق من الجشع الخاص واللامبالاة العامة:

البلاد في تردٍ والكارثة القادمة فريسة..
حيث تتراكم الثروة ويتهالك الإنسان[٣]

[٢]

هذه هي القضية التي بنى عليها جيرمي رفكن و ت.ر. رايد كتابيهما. رفكن كان الأكثر طموحا بين الاثنين. وفي الواقع كان طموحا أكثر من اللازم: يزخر كتابه (الحلم الأوروبي) بالجهد لتلخيص كل شيء من تاريخ الكنيسة إلى الفلسفة التنويرية إلى نهاية توضح أن أمريكا الانفرادية هي التي وقعت في مصيدة الزمن وأن أوروبا المتعاونة هي التي تمثل المستقبل.

وهو في الأساس على صواب ولكن ينتقص من الكتاب: الملخصات التي لا قيمة لها لـ (خلق البرجوازية) أو (قيام دولة الأمة) والشرح الذي يقلل من المادية الأمريكية والإيحاءات المختلطة لنظرية الفوضى (السلسلة العظيمة للوجود) هوبز، ديكارت، هيجل.

إن كتاب (الحلم الأوروبي) ليس سيئا كما قال بعض النقاد وهو يحاول أن يقول شيئا مهما.

يكتب رفكن عن أمريكا المعاصرة:

«بحماستنا الدينية التي ليس لدينا ما نتشبث به غيرها أصبحنا شعبا مختارا مما جعل أمريكا أرضا أكثر خطورة وقفارا». ولكن كان يمكن للكتاب أن يكون أفضل بكثير لو أن رفكن تمسك بما يعرفه بدلا من أن يحاول جهده ليقول شيئا (مهما).

أما ت.ر. رايد فهو صحفي وكتابه عن التفوق الأوروبي يغطي نفس منطقة ومجال رفكن ولكنه أكثر إيجازا وعمقا وإمتاعا وأقل خيلاء. وله أسلوب موجز ومكثف في الوصف: مثلا الأبرياء الأمريكان: جاك ويليتش وجورج دبليو بوش (ومؤخرا بيل جيتس) واقعون بشرنقة عالم جديد شجاع من القوانين الأوروبية التي لا يستطيعون أن يفهموها أو يتجاهلوها. ورايد مثل رفكن يوضح بكفاءة السبب في ضرورة أن ينظر الأمريكان إلى الاتحاد الأوروبي بقواه المنظمة وثروته ونموذجه المؤسساتي بجدية شديدة في العقود القادمة.

ولكن رغم أن كتابي الرجلين يأتيان في الوقت المناسب فلا يقول أي منهما شيئا جديدا تماما. إن ما ذكراه من خصائص الولايات المتحدة معروف للأوروبيين. في عام ١٩٥٦ تفوه جيمي بورتر في مسرحية جون أوزبورن (انظر خلفك بغضب) بملاحظة سوداوية: «من الهول العيش في العصر الأمريكي» وقد تردد صدى هذه الكلمات بشكل أو بآخر عبر العقود إلى يومنا الحاضر. ولكن ليس معنى أن هناك شيئا ناقصا في الولايات المتحدة اليوم وشيئا جذابا في العقد الاجتماعي الأوروبي: هو رخصة لنا لرواية قصص خيالية.

من يبحث في هذين الكتابين عن أصول الاتحاد الأوروبي سوف يتوه في دروبهما. فإن رايد ورفكن يتعثران بامتداح الآباء المؤسسين لأوروبا لبعد نظرهم وحكمتهم في توجيه أوروبا إلى البزوغ الحالي. طبقا لرايد في (السنوات التي تلت إعلان شومان اجتاحت الحركة الأوروبية القارة مثل عاصفة) كان مجتمع الفحم والفولاذ الأوروبي (نجاحا اقتصاديا هادرا) ويذهب رفكن أبعد من ذلك: يكتب (أوروبا مختبر تجريبي حر وعملاق لإعادة التفكير في الوضع البشري)(١).

إن هذه الآراء عجيبة فالاتحاد الأوروبي هو ما هو عليه: كائن غير مقصود - بشكل كبير - لعقود من المفاوضات بين السياسيين الأوروبيين الغربيين الساعين لتطوير وتنمية مصالحهم القومية والخاصة. وهذا جزء من قضية الاتحاد الأوروبي: إنه توافق على مستوى القارة خططت له مئات اللجان وفي الواقع هذا يجعل الاتحاد الأوروبي أكثر أهمية وأشد تأثيرا مما لو كان مجرد تجسيد لنموذج اليوتوبيا.

وبنفس المنوال يبدو من السخف أن يكتب المرء كما فعل رفكن حول انغماس أمريكا بالصناعات الهامشية مثل صناعة قطاعات الفطائر المنزلية، كمثال على تواضع الموهبة الأمريكية، دون الالتفات إلى القذى في العين الأوروبية.

هذا رجل لم ير وحشية ما بعد الحرب في مدينة سارسيليه شمال باريس، ولم يمت قليلا في ميلتون كينيس، رجل يتفادى الضواحي الخارجية في مدينة ميلانو المعاصرة.

كان رايد محقا في الإصرار على أن أوروبا لديها أفضل الطرق وأسرع القطارات وأرخص أسعار طيران. و. أجل. بالتأكيد أن الاتحاد الأوروبي كما وصفه رفكن، أقرب إلى (نبض التغيير الذي يحول العالم إلى مجتمع عولمي) ولكنه ليس كاملا بأية حال من الأحوال.

بالتأكيد تواجه أوروبا مشاكل حقيقية ولكنها ليست تلك التي يرددها نقاد السوق الحرة الأمريكيون بشماتة قاتمة. ونعم تبدو الفوضية الأوروبية من



نفسها مهرجا كبيرا بين حين وآخر بإصرارها على تنظيم حجم الواقى الذكرى واستدارة الخيار.

لقد انهارت بشدة معاهدة الاستقرار للجم المصاريف والدين القومى والتى تعتبر مفخرة الاتحاد الأوروبى رغم أن انهيارها لم يضر باليورو الذى صممت المعاهدة لحمايته ضررا بالغا.

ودعم المعاش والمنافع الاجتماعية الأخرى سوف لن يجد تمويلا كبيرا فى العقود القادمة ما لم يلد الأوروبيون أولادا أكثر ويرحبون بمهاجرين أكثر ويعملون عدة سنوات أخرى دون تقاعد ويأخذون تعويضات بطالة أقل كرما. ويسهلون لأصحاب العمل توظيف الشباب. ولكن هذه ليست عيوبا هيكلية عميقة فى أسلوب الحياة الأوروبية. إنها اختيارات سياسية صعبة ذات نتائج سياسية ليس فيها ما يتضمن تفكيك دولة الرفاهية.

ولكن مشاكل أوروبا الحقيقية تكمن فى جانب آخر.

فى هولندا وفى باريس وانتويرب والمدن الأخرى ينمو العداء وعدم الفهم بين السكان المحليين الأصليين وأقلية من المسلمين (مليون فى هولندا؛ اكثر من ٥ ملايين فى فرنسا، ربما ١٣ مليونًا فى الاتحاد الأوروبى حتى الآن) وقد انتقل هذا العداء من مجرد الكتابة على الجدران إلى مناطق محظورة إلى أسلحة إلى اعتداءات واغتيالات.



لقد بدأ الأتراك والمغاربة والتونسيون والجزائريون فى التوافد على أوروبا الغربية منذ ستينيات القرن الماضى. إننا الآن نرى بروز جيل ثالث: جزء كبير منه عاطل عن العمل وغاضب ويشعر بالغربة وعرضة بازدياد لتوجهات الإسلام الأصولى.

على مدى أربعة عقود تقريبا أغمض السياسيون فى أوروبا الغربية عيونهم عن كل هذا: تأثير السكن المنعزل والمجتمعات المعزولة غير المندمجة وتصاعد تيار مرعب من الناخبين البيض الذين لديهم قناعة بأن المركب كامل العدد.

وقد تطلب الأمر جان مارى لوبان والسياسى الهولندى القتيل بيم فورتوين ورهط من الأحزاب الديماجوجية - المعادية للمهاجرين - من النرويج إلى إيطاليا من أجل إيقاظ الأوروبيين إلى هذه الكارثة. ومما ينذر بالشؤم أن رد فعل كل شخص من تونى بلير إلى فاليرى جيسكار ديستان هو الهتاف «كارثة» وطوى الجسر المتحرك.

المشكلة الأخرى التى تواجه أوروبا - والاثنان بطبيعة الحال متصلان - هى الضغط على حافاتها الخارجية. إن الاتحاد الأوروبى جذاب أكثر مما فى مصلحته - بالمقارنة مع الولايات المتحدة المكروهة على نطاق واسع لما تفعله.

ويحاول اللاجئون والمهاجرون غير الشرعيين من نصف أفريقيا بين حين وآخر القيام بجهد يائس لعبور مضيق جبل طارق أو النزول على سواحل الجزر الإيطالية الجنوبية أو الهبوط بسلامة لتتم إعادتهم مرة أخرى. وقد حاولت تركيا منذ ٤٠ عاما تقريبا الانضمام إلى النادى الأوروبى قبل أن يقبل طلبها (بتردد) الشهر الماضى. وتأمل أوكرانيا فى مستقبل ديمقراطى مستقر داخل أوروبا أو على الأقل هناك أمل فى أن تكون هناك يوما ما. وهذا سوف يدعم موقف يوشنكو ومؤيديه فى أعقاب فوزهم الأخير.

ونفس الشىء ينطبق على بقية دول يوغسلافيا السابقة. ولكن فى حين أن بروكسل على وعى تام بأن أخطار إهمال أفريقيا أو ترك أوكرانيا أو البوسنة تتلوى على أبوابها - أقل كثيرا من رمى ٧٠ مليون مسلم تركى فى أحضان الإسلام الأصولى - فإن ما يقلق قادة أوروبا بشدة هو افتراض و(كلفة) توسيع الاتحاد الأوروبى إلى حدود آسيا.

هذه هى التحديات الحقيقية لأوروبا. قد يكون الاتحاد الأوروبى كما أوضح رايد ورفكن نموذجا مشعا للتعاون الدولى والعدالة والانسجام ولكنه لن يكون سهلا للاتحاد الأوروبى أن يدمج أقلياته الاثنية والدينية وتنظيم الهجرة أو يقبل تركيا بشروط قابلة للتطبيق. ومع ذلك إذا أساء الاتحاد الأوروبى إدارة الكارثة الدائمة على حدوده الشرقية والجنوبية ستقع أوروبا بمشاكل كبيرة بالتأكيد.

إن هذا هو سبب غضب الكثير من الأوروبيين وقادتهم من الرئيس جورج بوش وليس السبب هو العداء التقليدى لأمريكا أو حد التسلح.

بالنسبة لإدارة بوش: الإسلام فكرة تجريدية وهى الهدف الفاعل السياسى لما يسميه المسئولون فى واشنطن (الحرب الكونية على الإرهاب). بالنسبة للولايات المتحدة تعتبر الشرق الأوسط أرضا نائية. مكانًا مناسبًا لتصدير المشاكل الأمريكية لتفادى معالجتها على أرض الوطن. ولكن الشرق الأوسط بالنسبة لأوروبا هو (الخارج القريب) إضافة إلى أنه الشريك التجارى الرئيسى. من طنجة إلى تبريز أوروبا محاطة بالشرق الأوسط وعدد كبير ويتزايد من الأوروبيين قادمون من هذا الشرق الأوسط. وعندما يبدأ الاتحاد الأوروبى محادثات قبول تركيا سوف يتوقع إدخال الاتحاد الأوروبى فى المقابل إلى داخل الشرق الأوسط.

إن استراتيجية أمريكا للمواجهة الكونية مع الإسلام ليست خيار أوروبا. إنها كارثة.

[٣]

لن يعارض تيموثى جارتون آش على أكثر احتمال جل التحليل أعلاه.

فى كتابه الجديد الساحر يذهب آش أبعد من رفكن ورايد فى بعض المجالات. بصفته مواطنا دوليا يقول إن الولايات المتحدة مقصرة بشكل فادح غير مسئول. لقد قدم الاتحاد الأوروبى ٣٦.٥ بليون دولار لمساعدات التنمية فى عام ٢٠٠٣. وقد ساهمت الولايات المتحدة بما قيمته ثلث ذلك المبلغ فقط ومعظم تلك المساعدات الأجنبية ذهبت إما إلى إسرائيل أو عادت بحبال متصلة بها إلى أمريكا. ٨٠٪ تقريبا من كل (مساعدات التنمية الأمريكية) تجبر المنتفعين على صرف الأموال على استيراد البضائع والخدمات الأمريكية. فى العراق وحده صرفت الولايات المتحدة ثمانية أضعاف المبلغ الذى قدمته للآخرين. إن الولايات المتحدة هى ابخل كل الدول الغنية. فى حين أن الأوروبيين هم الأكثر كرما. وهناك المزيد. تضم الولايات المتحدة ٥٪ من سكان العالم (ويتناقص ذلك باستمرار) ولكنها مسئولة عن ٢٥٪ من إنتاج غاز ثانى أكسيد الكربون فى حديقة العالم كل سنة.

ففى كل عام يستوعب جو الكرة الأرضية ٢٠ طنًا متريًا من ثانى أكسيد الكربون لكل رجل وامرأة وطفل أمريكى ولكن ٩ أطنان فقط لكل أوروبى. وتزداد حصة أمريكا باستمرار مع عرقلة إدارة بوش لأى أى إجراء دولى لتقليل التلوث أو الإحماء الكونى.

إن أسلحة الدمار الشامل الحقيقية فى نظر جارتون آش هى الفقر العالمى والكارثة البيئية. وهو يسخر بازدراء من المثقفين الأمريكيين المعاصرين الذين يبسطون الأمور بفظاعة والذين يثرثرون بفصاحة عن المريخ وفينوس أو صدام الحضارات. ولكنه لا يتسامح مع اللامبالاة الراهنة للبيت الأبيض: «لقد قيل عن روما القديمة أن الإمبراطور نيرون كان يعزف والمدينة تحترق. فى روما الجديدة الرئيس يعزف وكوكب الأرض يحترق».

ومع كل هذا لا يعتبر كتاب (عالم حر) إدانة لأمريكا. فتيموثى جارتون آش يعرف أوروبا أو بالأحرى (الأوروبيات) المتعددة.. الهندسة المتغيرة والمصالح والتحالفات التى تحد من قدرة الاتحاد الأوروبى على أن يجعل نفسه مؤثرا فى السياسة العالمية.

إنه يشارك الظنون الإنجليزية الشائعة حول السيئات التى ترتكبها فرنسا ويوازن



ملاحظاته حول الولايات المتحدة مع إطلاقات صائبة يستهدف بها الصندوق الزراعى المشترك ملاحظا أنه بينما فى عام ٢٠٠٠ تبرع الاتحاد الأوروبى بـ ٨ ملايين لكل رأس لأفريقيا الصحراوية، استطاع الاتحاد أن يحصل جانبا بشكل عوائد على ٩١٣ دولارا لكل بقرة فى أوروبا. ولكل ذلك فإن جارتون آش متفائل تماما فى الواقع فيما يخص أوروبا والولايات المتحدة.

ومما يثير الدهشة أنه متفائل حتى، كما يبدو لى، بشىء من السخرية - حول مستقبل التحالف الأوروبى والدافع فى جزء من هذا هو ما يراه من ضرورة ملحة: يجب على الغرب أن يتوقف عن النزاع ويجد طريقة للعمل معا لخير الجميع لأنه لم يتبق له سوى حوالى عشرين سنة قبل أن تصبح الصين (ثم الهند) قوة كبرى وسوف تختفى الاختلافات الصغيرة النرجسية بين أوروبا وأمريكا: «فى منظور تاريخى أطول قد تكون هذه فرصتنا الأخيرة لوضع أجندة للسياسة الدولية». وتلك الأجندة فى كتاب جارتون آش هو إزاحة الصراعات الراهنة جانبا و«إعادة خلق» غرب ما بعد الحرب الباردة كنموذج وداعية للحرية: الحرية من الفاقة ومن الخوف ومن القهر البشرى والبيئى. (كان عنوان الفصل الخاص بالفقر العالمى والأخطار البيئية موحيا «الجيوش الحمراء الجديدة»)

إن الصدى الروزفلتى ليس مصادفة. كان فى ذهن جارتون آش تحالف أطلنطى جديد وليس صدفة أن ونستون تشرتشل يحتل مركزا بارزا فى مناقشاته إذ أن هذا الكتاب بريطانى قح. والاختيار بين أوروبا وأمريكا مطروح من وجهة نظر أن البريطانيين يفهمون أكثر من أى شخص آخر (فقد عاشوا الأوضاع لمدة ٦٠ عاما) فالمصالحة الأطلنطية هى شىء لن يحققها سوى لندن القابعة بقلق على حافة أوروبا ونصف عينها على واشنطن.

ولكن هل بريطانيا هى حقا (آلة تسجيل زلازل) أو (ترمومتر) العلاقات الأوروبية الأمريكية؟ حقا إن المملكة المتحدة تتمكن اليوم من أن تكون جزءا من الاتحاد الأوروبى وفى نفس الوقت تقتبس تفاهة الثقافة التجارية الأمريكية ولكنى أشك أن هذا ما كان فى ذهن آش. بل إنه يبدو وكأنه يرى دور لندن فى تلطيف الضرر الذى يسببه الانفراد الأمريكى من جهة والديغولية الأوروبية من جهة أخرى (نسخة شيراك للديغولية الأوروبية لا تقود إلى شىء). نموذجه هو (أطلنطية أوروبية) دولية التوجه يجسدها تونى بلير: « لقد فهم تونى بلير واحتضن هذه المصلحة والدور والفرصة القومية البريطانية أفضل من أى من سابقيه». ومن الطبيعى أن جارتون آش لا يملك أن ينكر أن بلير قد تملص حتى الآن من مواجهة تحدى إقناع الشعب البريطانى الشكاك بالدستور الأوروبى. ولا أعتقد أنه يتبنى أية أوهام حول (العلاقة الخاصة) ولكن مع ذلك يستمر فى الإصرار أن بريطانيا العظمى لها دور حيوى تلعبه فى سد الفجوة الأطلنطية. وأرى أن هذا زعم غريب. قد يكون تونى بلير مناورا سياسيا مع نشاطات جانبية مربحة مع ادعاء أخلاقيات مفصلة حسب المقاس(٤) ولكن مغامراته الدولية أبعدت بريطانيا عن كثير من أعضاء الاتحاد الأوروبى بدون أن يكون لها أى تأثير على واشنطن حيث تتحول زيارات رئيس الوزراء البريطانى إلى تمرين فى الفشل والإذلال.

نعم، فى بعض المجالات أصبحت المملكة المتحدة اليوم شبيهة بأمريكا: معدل الفقر فى بريطانيا وفجوة الدخل بين الأغنياء والفقراء تزداد باطراد منذ سبعينيات القرن الماضى وأصبحت أقرب إلى المعدلات الأمريكية منها إلى أى دولة أوروبية غربية. كما أن الإنتاجية حسب الساعة فى بريطانيا أقل من معظم المعدلات الأوروبية الغربية. ولكن على أية حال كان من المفترض أن يقوم حزب العمال الجديد بالجمع بين أفضل نموذج اجتماعى أوروبى ونموذج المقاولات الأمريكى: ويعترف جارتون آش نفسه أن حزب العمال الجديد لم يتمكن من أن يحقق ذلك(٥).



كتاب (العالم الحر) يقلل من شأن التحدى الذى يواجه البريطانيين - أو الأوروبيين الآخرين - وهو السعى إلى جذب الولايات المتحدة إلى أى مشروع دولى مشترك يتجاوز (الحرب الكونية على الإرهاب). وتيموثى جارتون آش على حق فى إصراره أن أمريكا أكبر من المحافظين الجدد والجهلة الجمهوريين وأن هيمنتها الراهنة سوف تنتهى.

ولكن كتابه يدور حول (هنا) و(الآن) لذلك لا نستطيع تجاهل حقيقة أن صانعى السياسة فى واشنطن لا يهمهم قراءة إعلان (الاستقلال الداخلى) الذى يعلنه جارتون آش، فآخر شىء يريدونه هو (مبادرة مشتركة) ما فى الشرق الأوسط ولا يهمهم أبدا (جيوشه الحمراء الجديدة). اجل، طبقا لمصالحها (لابد أن ترغب أمريكا فى أن تكون أوروبا عامل التوازن لقوتها المتفوقة المنفردة) هذه نصيحة جيدة ولكن لا أحد فى السلطة يستمع إليها. وتتكتل دبابات الفكر المحافظة فى واشنطن ضد أى وجود دولى أوروبى متحد، وبتعبير ديفد فروم وهو عضو معه انتربرايز الأمريكى وكاتب سابق لخطب بوش: «إنها تثير أسئلة استراتيجية مهمة (أى أننا لا نحبها)».

وقد نقل عن وزيرة الخارجية الأمريكية الجديدة كوندوليزا رايس قولها عام ٢٠٠٣: «إن الولايات المتحدة تنوى أن: تسامح روسيا وتتجاهل ألمانيا وتعاقب فرنسا».

وطبقا لتقرير حديث لمجلس الأطلنطى فإن إدارة بوش تعتبر أوروبا مدانا مطلق السراح (تحت المراقبة) حيث يعتمد موقعها المستقبلى مع واشنطن على تحسين سلوكها. ولأول مرة منذ الحرب العالمية الثانية تظهر أصوات مؤثرة تقول إن أوروبا موحدة ستكون خطرا على المصالح الأمريكية وأن على الولايات المتحدة أن تعرقل ظهورها. فوق كل ذلك، فإن القيم الأوروبية الأمريكية المشتركة التى يبنى عليها تيموثى جارتون آش نقاشه قد لا تكون بهذا التقارب كما يوحى فى كتابه.

إن الولايات المتحدة بتدينها الواسع ومكانة الله فى الشؤون العامة وشكها بالمعارضة وخوفها من التأثير الأجنبى وجهلها بالبلاد البعيدة واعتمادها على القوة العسكرية عند التعامل مع تلك البلاد، قد تتماثل مع دول أخرى بهذه الصفات ولكن بالتأكيد ليس من بينها دول أوروبية.

عندما صدرت معاهدة حظر الألغام الأرضية فى الأمم المتحدة عام ١٩٩٧ بتصويت ١٤٢/٠ امتنعت الولايات المتحدة مع روسيا وحفنة دول أخرى. والولايات المتحدة هى إحدى دولتين فقط (الأخرى الصومال) التى لم توقع على معاهدة حقوق الأطفال فى ١٩٨٩. كما أن معارضتنا للمعاهدة الدولية لحظر الأسلحة البيولوجية تشاركنا فيه الصين وروسيا والهند وباكستان وكوبا وإيران.

إن إلغاء عقوبة الإعدام شرط لعضوية الاتحاد الأوروبى فى حين أن الولايات المتحدة حاليا تعدم السجناء بمعدل لا يضاهيها فيه إلا الصين وإيران والسعودية والكونغو. كما أن معارضة أمريكا لإنشاء محكمة جرائم الحرب الدولية لقيت تأييدا داخل الأمم المتحدة وخارجها من قبل إيران والعراق وباكستان وإندونيسيا وإسرائيل.

أما العقيدة الأمريكية الجديدة وهى، (الحرب الوقائية) فإنها تجد صدى الآن فى روسيا باسم (مكافحة الثورة الوقائية)(٦).

أما بالنسبة للأمم المتحدة ذاتها، جوهرة تاج المنظمات الدولية فقد أنشئت بعد الحرب العالمية الثانية من قبل جيل أسبق من القادة الأمريكيين. وبينما اكتب هذا تجرى حملة محمومة من واشنطن للإطاحة بكوفى عنان السكرتير العام ومن أجل تكسيح المنظمة.

إذن، ماذا يمكن أن تفعل أوروبا؟ أولا مقاومة إغراء اعتبار التوترات الحالية فضيلة. إن إنكار وجود توتر مسألة عديمة الجدوى. فى العهود الماضية كان دور (الآخر) بالنسبة لأوروبا - وهو الجار القريب الذى به تقاس هويتهم المتفردة - كان دائما تحتله تركيا وروسيا. اليوم تحتله الولايات المتحدة ولكن مثل جارتون آش، اعتقد أنه من الخطأ اتباع نصيحة جركن هابرماس ومحاولة بناء اتحاد أوروبى قائم باختلافات قيمة عابرة للأطلنطى.

بالتأكيد يحتاج الأوروبيون إلى إيجاد قصد وتحديد دور مشترك ولكن هناك طرقا افضل لتحقيق ذلك. منها التصديق على دستورهم المقترح. إن هذه الوثيقة تثير عصاب وقلق واشنطن (ولندن) ولكنه فى الواقع ممل ولا يعالج المشاكل. معظمه يتكون من وصفات عملية لإجراءات اتخاذ القرار فى هيئة من أكثر من ٢٥ دولة مستقلة ذات سيادة. إن الدستور يدعم أيضا دور المحاكم الأوروبية ويعزز مسألة اعتقال المجرمين عبر الحدود (وهو هدف محمود لأى شخص جاد فى مسألة مكافحة الإرهاب). فيما عدا ذلك لا يقدم الدستور سوى مادة وتطبيق لادعاء الاتحاد الأوروبى فى (تنسيق سياسات العمالة والاقتصاد فى الدول الأعضاء) إنها ليست وثيقة ملهمة كثيرا، ورئيس كتابها فاليرى جسكار ديستان ليس توماس جيفرسون ولكن الدستور مع ذلك سوف يكون من الناحية العملية نافعا إلى حد كبير.

فوق كل شىء، سوف يساعد الدستور أوروبا فى استمرار دعم قوتها الدولية رغم العرقلة الأمريكية ومحاولات إدارة بوش تقريب أو الضغط على بعض الدول الأعضاء بشكل انفرادى. فالاتحاد الأوروبى هذا اليوم ليس مجرد نموذج لقيادة دول متحدة فيما بينها بدون عوائق تجاوز السيادة. لكن أوروبا خبرت القرن العشرين - الغزو والاحتلال والحرب الأهلية والفوضى والمذابح والإبادة والبربرية - إلى درجة لا تضاهى فى أى مكان آخر لهذا فإن المخاطر التى تأتى بها حرب اختيار (العراق) أو تجاهل المنظمات الدولية من أجل مبادرات فردية أو الاعتماد الزائد على القوة العسكرية، يفهمها الأوروبيون أكثر من غيرهم. وكما يقول الفونس فيريلتيس محافظ البنك الوطنى البلجيكى: «يريد الأوروبيون أن يكونوا على يقين من أنه لن تكون هناك

مغامرات فى المستقبل. لقد شبعوا من ذلك».

على عكس من ذلك فإن الولايات المتحدة لم تكن لها تجربة مباشرة بأسوأ أحداث القرن العشرين - ولهذا فهى لا تملك - للأسف - حصانة من دروسها.

إن الوطنية القتالية على الطراز الأمريكى كما يلاحظ جارتون آش نادرة فى أوروبا المعاصرة. إن هذه الكراهية للنزعة القتالية تتجاوز الميل التقليدى للسلام. لم يعد الأوروبيون يفكرون حتى مجرد تفكير بأسلوب عسكرى فيما يخص علاقات الدول ببعضها، وهذا يجعلهم - خلاف ما يظنه النقاد الأمريكيون - أكثر تأثيرا وليس أقل فى معالجة الأزمات الدولية. مازالت الولايات المتحدة ماهرة فى فن صناعة الحروب، ولكن صناعة الحرب هو الاستثناء فى الشئون الدولية المعاصرة. إن التحدى الحقيقى هو منع الحرب وصنع السلام والحفاظ عليه. وهذا فن تجيده أوروبا وسوف تطوره باستمرار.

تقدم دول الاتحاد الأوروبى أكبر حصة من جنود حفظ السلام والشرطة الدوليين. والأوروبيون لديهم قدرة عسكرية حقيقية رغم أنها محدودة ويحتاجون إلى توجيه المزيد من الأرصدة للقوة الأوروبية العسكرية المزمع إنشاؤها من ٦٠ ألف جندى، حتى تكون فاعلة. إن أفضل القوات الأوروبية - مثلا - الجيش البريطانى كان قد تدرب لمدة عقود طويلة للعمل مع السكان المدنيين فى المناطق المحتلة والمحاربة. وهى خبرة يفتقر إليها الجيش الأمريكى بشكل مفزع. سيمر وقت طويل قبل أن يطور الاتحاد الأوروبى وينفذ سياسة خارجية مشتركة - رغم أن الدستور الجديد سوف يسهل ذلك على الأقل بتعيين وزير خارجية أوروبى مفوض بالحديث نيابة عن الاتحاد بشكل عام. ولكن حين يتمكن الاتحاد أخيرا من الحديث ككتلة واحدة سوف يشكل قوة كبيرة.

لن يكون السبب أن الاتحاد غنى أو كبير - رغم أنه يملك كلتا الصفتين. الولايات المتحدة غنية وكبيرة. ويوما ما قد تكون الصين أغنى وأكبر. ولكن أهمية أوروبا تكمن فى مسألة اضمحلال الحدود بين الدول والتى تتمحور حولها أوروبا المعاصرة. إن (العولمة) ليست فى الأساس تخص التجارة والاتصالات والاحتكارات الاقتصادية أو حتى تكوين إمبراطورية. لو كان الأمر كذلك فلن يكون هذا شيئا جديدا. فقد تم (عولمة) مجالات الحياة هذه منذ مائة سنة. إن العولمة هى اختفاء الحدود - الثقافية والاقتصادية والطبيعية واللغوية وتحدى تنظيم عالمنا فى غياب هذه الحدود. وبتعبير جان مارى جينو مدير الأمم المتحدة لعمليات حفظ السلام: «بعد فقدان الراحة التى توفرها الحدود الجغرافية يجب أن نعيد اكتشاف ما يوثق العروة بين البشر ويكون مجتمعا».

وقد بدأ الأوروبيون يفعلون ذلك بكثير من الدهشة أنفسهم وبعض الرعب أحيانا: خلق عروة بين الكائنات البشرية تتجاوز الحدود القديمة ومن أجل خلق مجتمع من هذه الأشكال المؤسساتية الجديدة. وهم لا يحسنون فعل ذلك دائما ومازال هناك بعض الحنين فى بعض القطاعات لتلك الحدود القديمة. ولكن شيئاً أفضل من لاشىء. واللاشىء هو الذى سيبقى لنا إذا تركنا المعاهدات والاتفاقات والوكالات الدولية والقوانين والمؤسسات الهشة والتى أنشأناها منذ ١٩٤٥ تضمر وتتعفن - أو أسوأ أن نتعمد نحن إضعافها وتعفنها. إن الذى يحدث الآن هو أن الأوروبيين يكسرون الحدود ويقيمون المجتمع الواحد أفضل من غيرهم فى حين أن الولايات المتحدة الواقعة مرة أخرى فى كمين أسماه توكفيل: «المديح الأبدى الذاتى» لا تبذل أى جهد حتى من أجل المحاولة. ■

الــــهـــوامـــــش:

(١) انتقدت بشدة شبكة التليفزيون الأمريكية مؤخرا لعرضها لمحة من جسد جانيت جاكسون مبررة ذلك بـ (قلة الذوق والأدب) (كانت المغنية جاكسون قد أسقطت حمالة فستانها وأظهرت أحد ثدييها وهى على المسرح باعتباره سهوا غير مقصود - المترجمة): فى حين أن الإعلانات التجارية عن البضائع التى تزيد فحولة الذكر تمر دون تعليق.

(٢) مثير للشهية أم لا، لا يمكن تكرار النموذج الاقتصادى الأمريكى فى أى مكان آخر. إن الأمريكان هم المستهلكون رقم واحد فى العالم ولكن العجز التجارى فى الميزانية يصل إلى مستويات غير مسبوقة. إن ما يمنع الدولار من الانهيار بشكل تام هم الأجانب الراغبون فى التمسك به: إن الأمريكان يصرفون الآن نقود غيرهم على شراء بضائع غيرهم. لو كانت الولايات المتحدة أية دولة أخرى لكانت الآن بين أيدى صندوق النقد الدولى الذى لا يرحم.

(٣) قصيدة (القرية المهجورة) ١٧٧٠

(٤) فى مؤتمر حزب العمال الجديد الأخير بدلا من محاولة الدفاع عن أسباب الذهاب إلى حرب العراق ابلغ بلير الحاضرين بأنه «يؤمن بأنهم يجب أن يشاركوه إيمانه وفى أى الأحوال إنه (مثل مارتن لوثر) »اقف هنا ولا أستطيع أى شىء آخر«.

(٥) إنه يشير إلى نكتة معروفة: «كانت بريطانيا قد وعدت أن الطريق الثالث لبلير سوف يأتى لها بالجامعات الأمريكية والسجون الألمانية - ولكن ما تحصل عليه بريطانيا الآن هو السجون الأمريكية والجامعات الألمانية».

(٦) المصطلح استخدمه مستشار الكرملين غليب بافلوفسكى لوصف استراتيجية بوتين لمعالجة تحديات (الاحتواء) على الحدود الروسية.

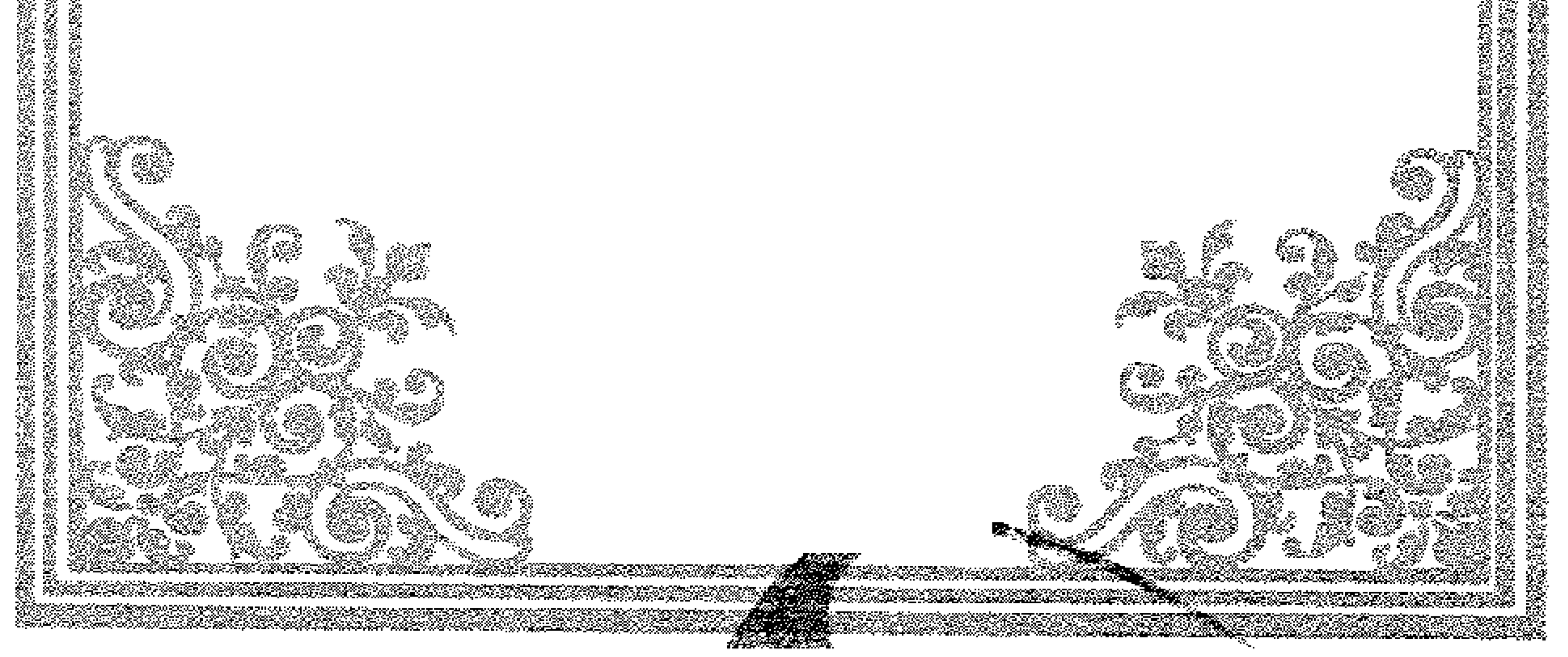
كـتـــاب الـــزاويـــة

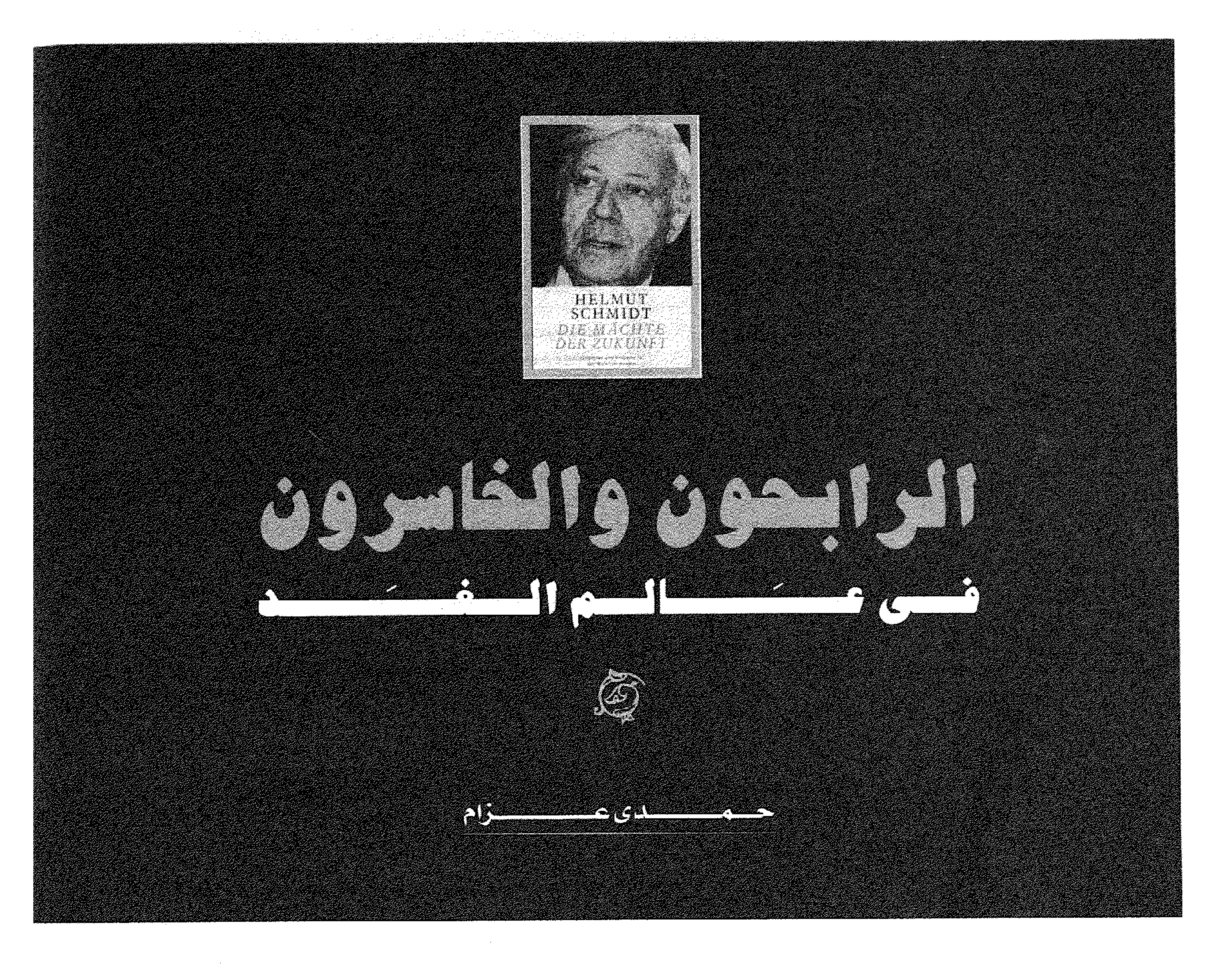
النقرس وأسبابه

أبو بكر الرازى

النقرس هو مرض يعرض فى مفاصل القدمين. يؤلم ألمًا شديداً، ويصير بالإنسان إلى أن يعوقه عن المشى والتصرف بالحركات. والفرق بينه وبين وجع المفاصل - إذا كان حدوثه فى المفاصل - أن وجع المفاصل يعم مفاصل البدن كلها، والنقرس إنما يخص القدمين. فإذا انتشرت الآفة فى اليدين والرجلين معًا حتى تألم فيها المفاصل، كان ذلك وجع المفاصل. وكذلك إن خصت الآفة اليدين، دون الرجلين.

والنقرس يحدث عن اجتماع شيئين، أحدهما: امتلاء فى البدن، والآخر: صحة أعضاء البدن جميعًا، ومساواتها فى القوة. وذلك أن الأعضاء إذا تساوت فى القوة - وكانت صحيحة - وكان فى البدن فضول مجتمعة، دفعها كل واحد من الأعضاء إلى العضو الذى يليه، فلا يزال يتدافع من عضو إلى عضو، حتى يصير إلى أقصى الأعضاء، وهى القدمان. فإذا صار الفضل إليها، لحج (نشب فيه ولزمه) فيها وبقى متحيرًا حتى يخرج منها. إما إخراجًا صناعيًا بالأدوية المشروبة واللطوخات والأضمدة، وما أشبه ذلك. وإما إخراجًا طبيعيًا، بإنضاج الطبيعة للفضول وتحليلها، ودفعها إياها عن العضو.





الرابحون والخاسرون فى عالم الغد

حمدى عزام

تصدرت مذكرات الزعماء السياسيين فى أوروبا والولايات المتحدة والمؤلفات التى انتقدت سياسة الرئيس بوش قوائم الكتب الأكثر مبيعاً فى عام ٢٠٠٤ لتعكس قلقًا على مستقبل عالم القرن الواحد والعشرين، ومع نهاية العام المنصرم صدر كتاب جديد للمستشار الألمانى السابق هيلموت شميت بعنوان «مستقبل القوى» وعنوان جانبى «الرابحون والخاسرون فى عالم الغد» ولقى الكتاب الصادر بالألمانية فى ٢٣٨ صفحة اهتماماً كبيراً وتصدر مع بداية ٢٠٠٥ قوائم الكتب الأكثر مبيعاً لتناوله مختلف الأوضاع فى أنحاء العالم واحتمالات تطورها، مع تركيز على سياسة الولايات المتحدة. ورغم اتجاهاته المؤيدة لتحالف الأطلنطى فإنه ينتقد بشدة سياسة بوش والمحافظين الجدد ورد الفعل الهستيرى على أحداث الحادى عشر من سبتمبر، محذراً من خطورة الخطوات الانفرادية الأمريكية على مصالح أوروبا. ولا يتوقع تغيراً فى الاتجاهات الأساسية للسياسة الأمريكية بعد الانتخابات الرئاسية الأمريكية التى قد تشهد تغيرات تكتيكية وفى أساليب التطبيق وأسلوب ولهجة المخاطبة، وباعتباره سياسياً ومفكراً أوروبياً يرى أنه «لا توجد بالنسبة لغالبية الأمم الأوروبية أية مبررات استراتيجية أو أخلاقية تدفعهم للخضوع للإمبريالية الأمريكية المتوقعة رغم استمرار تفوقها على الاتحاد الأوروبى وسيطرتها فى الفترة القادمة وأن على أوروبا الحفاظ على كرامتها المستندة إلى مسئولياتها وما يمليه عليها ضميرها».

وخصص شميت فقرات طويلة من كتابه عن الإسلام مقراً أن الغرب والدول الصناعية التى لا تعلم شيئاً عن الإسلام والعرب وأهملت ذلك لمدة طويلة حتى وقعت تفجيرات برجى التجارة فى نيويورك وما تبعها من رد فعل أمريكى، جعل هذين الموضوعين محور اهتمام عالمى. وينتهى شميت فى تحليله إلى أن «إقامة علاقات حسن جوار مع العالم الإسلامى ضرورة لضمان مصالح وأمن أوروبا»، مركزاً على النزاع العربى الإسرائيلى، وأن دعم الولايات المتحدة المتواصل لإسرائيل أدى إلى تصاعد كراهية الشعوب الإسلامية لها محذراً بقوة من الاتجاه إلى صدام مع العالم الإسلامى. ولا يغفل شميت الإشارة إلى أن استمرار تدهور أوضاع الدول النامية فى ظل العولمة يهدد مصالح وأمن الدول الصناعية وشعوبها ويتطلب جهداً للتخفيف من حدة الهوة السحيقة بين الأغنياء والفقراء فى العالم.

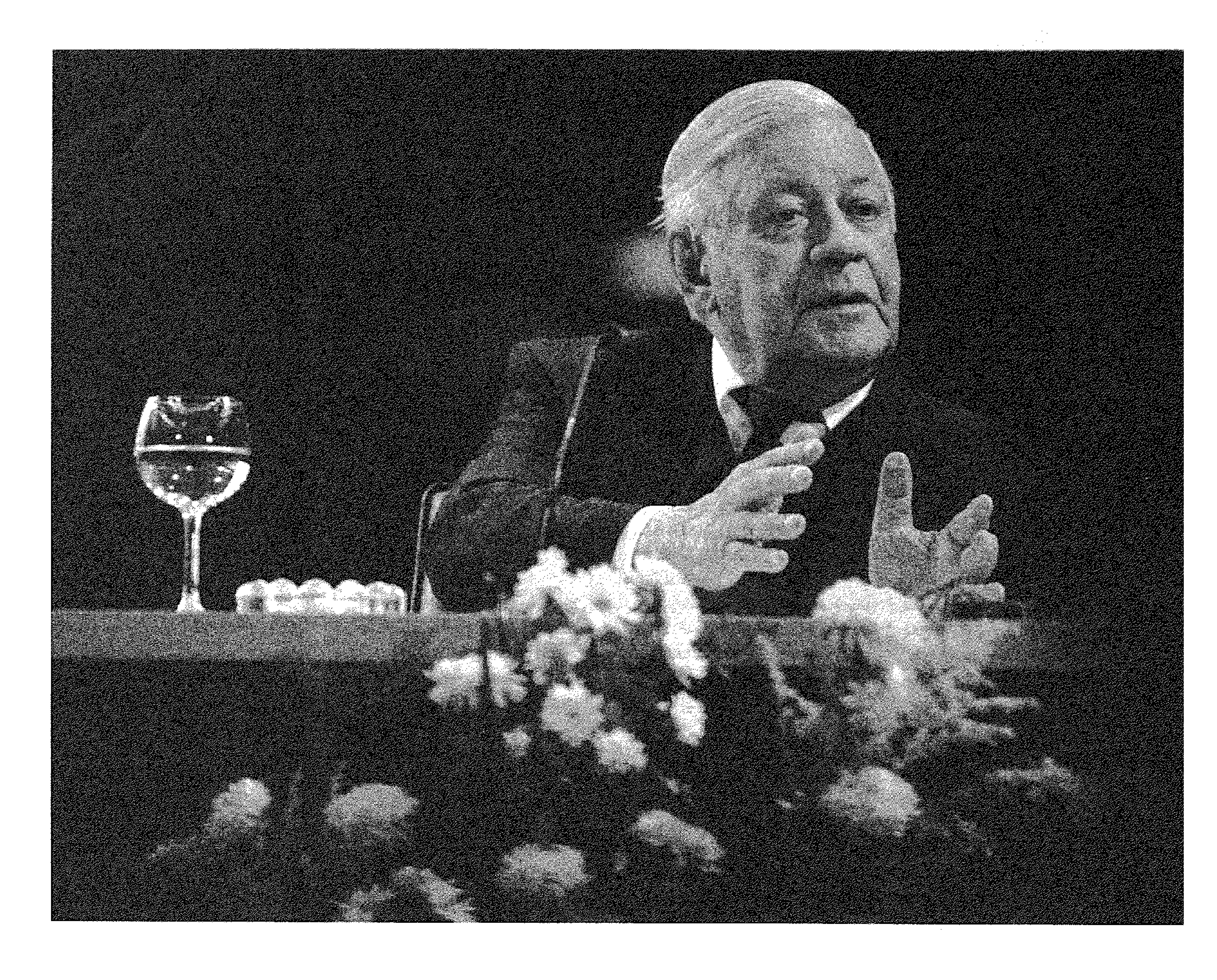
السيناريو المتشائم

تحت عنوان «ما نعرفه وما نجهله عن المستقبل» يطرح المؤلف صورة متشائمة مسجلاً «أنه إذا لم تتغير السياسات التى سادت النصف الأخير من القرن الماضى فستؤدى إلى صدام مدمر بين الغرب والإسلام ولا يصبح تحقق النبوءة البغيضة عن صدام الحضارات أمراً مستحيلاً».

ويستطرد قائلاً: إن خمس سكان العالم يدينون بالإسلام ورغم ذلك وباستثناء دول البترول الصغيرة يعانى غالبيتهم من الفقر. كما أنه باستثناء مصر وتركيا وإيران التى ترجع حدودها إلى تطور تاريخى طويل، فقد رسم المستعمر الأوروبى حدود غالبية الدول الإسلامية بشكل اعتباطى وفق مصالحه لتجمع بين دفتيها قبائل وأعراقاً ولغات وأدياناً متباينة لم يستطع حكمها إلا باستعمال القوة والاحتلال العسكرى. وأن التفاوت بين الغالبية الفقيرة والأقلية مفرطة الثراء وتفشى الفساد أوجد تربة خصبة لانتشار الجريمة والتعصب، وأدى السخط إلى العنف والعنف المضاد من تيمور الشرقية إلى شرق أفريقيا، ومن القوقاز حتى البوسنة، ومن الشرق الأوسط عبر الجزائر حتى غرب أفريقيا.

وبعد انهيار الدولة العثمانية لعبت اللغة العربية والدين الإسلامى دوراً مهماً فى ظهور وتطور شعور قوى بوحدة الانتماء بين العرب دعمه الدور

Die Machte Der Zukunft:
(قوى المستقبل.. الفائزون والخاسرون فى عالم الغد)
Helmut Schmidt
Gewinner und Verlierer in der Welt von Morgen



السياسى للجامعة العربية، ووجود منظمة الأوبك، وحل أعضائها من الدول الإسلامية وازداد هذا الشعور قوة بسبب النزاع القائم منذ نصف قرن بين إسرائيل والفلسطينيين وتطوراته الدموية وتصاعد العداء للولايات المتحدة لدعمها إسرائيل منذ عشرات السنين. وزاد الأمر تعقيداً التدخلات الأجنبية التى كان للولايات المتحدة نصيب الأسد فيها، عن طريق ممارسة الضغوط والتدخل السياسى والعسكرى فى العالم العربى والإسلامى. وقد أرجعته أحيانًا إلى التزامها برسالة تبشيرية غير دينية لنشر الحرية والديمقراطية. وإن كانت الأسباب الحقيقية لتدخلها هى الخوف على مصادر تمويلها البترولية ولضمان أمن إسرائيل، ثم جاءت صدمة أحداث سبتمبر التى نالت من أمن أمريكا الداخلى. وأدى شعورها بأنها أصبحت القطب العالمى الأوحد لتنادى بأنه أصبح من واجبها شن حرب شاملة على الإرهاب ولمصلحة الجميع.

إن الولايات المتحدة تملك أكبر القدرات العسكرية والسياسية والاقتصادية والتكنولوجية رغم أنها لا تشكل أكثر من ٦.٤٪ من سكان العالم، فى حين تشكل الصين الخُمس، والهند السُدس، والدول الإسلامية والمسلمون فى مجموعهم خُمس سكان المعمورة. ومازالت دول صغيرة نسبيًا فى عدد سكانها ذات تأثير كبير على السياسة الدولية والاقتصاد العالمى من أمثلتها بعض دول أوروبية، وروسيا، ودول أصغر كاليابان وحتى إسرائيل التى يقل سكانها عن سبعة ملايين.

إن اتساع الرقعة الجغرافية للتطرف والعنف الذى يشمل الشرق الأوسط الكبير بالمفهوم الأمريكى ويضم إلى ذلك دولاً إسلامية مهمة من الجزائر وشمال نيجيريا إلى إيران وماليزيا واندونيسيا وغيرها سيدفع الولايات المتحدة إلى طلب وقبول مساعدة حلفائها والدول الدائرة فى فلكها.

وعلى ضوء هذا الوضع الدولى المقلق سيؤدى تراجع أوروبا عن دورها المعتدل والمخفف للنزاع واندفاعها إلى مشاركة عسكرية للولايات المتحدة إلى تزايد احتمالات التصادم بين الغرب والإسلام، مما سيؤدى إلى أضرار جسيمة لمليارى شخص مع تصاعد النزاعات الإقليمية لتحصد العديد من الأرواح وترتب أضرارًا اقتصادية ونقدية عالمية تضاعف من خطر الإرهاب الدولى.

تحديات العولمة

العولمة لفظ جديد لوضع قديم، طالما وُجد اقتصاد عالمى وأسواق عالمية. والجديد هو تزايد عدد الدول المشاركة فى الاقتصاد والأسواق العالمية، وتداخل الاقتصاد القومى للدول. ولقد حقق مبدأ حرية التجارة تقدماً كبيراً منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ساعد عليه إنشاء منظمات بأفكار ولمصالح أمريكية كمنظمة التجارة العالمية وصندوق النقد الدولى والبنك الدولى وغيرها، ورغم ذلك فما زال الملايين يعانون من الفقر الذى لم تفلح معونات التنمية فى تخفيف وطأته ولا يتوقع أن يزول هذا الخلل فى توزيع الثروات فى وقت قريب. ولعله من الوقاحة بمكان أن يطالب رجال الدولة الغربيون الدول النامية بفتح حدودها أمام السلع ورؤوس الأموال المؤقتة فى نفس الوقت الذى لا يدخرون وسعاً فى منع دخول المنتجات الزراعية وغيرها من منتجات الدول النامية إلى بلادهم.

المستفيدون من العولمة بلا جدال هى الدول الصناعية وشعوبها، تليها مجموعة محدودة من الدول النامية التى قد تنجح فى اتباع سياسات اقتصادية متفتحة وواعية لتطبقها حكومات مركزية قوية داخلياً. وربما كانت من بينها الصين وبعض دول الخليج العربية.. أما الخاسرون فهم غالبية الدول النامية التى تتبع حكوماتها سياسات اقتصادية واجتماعية فاشلة، ولا نستثنى من ذلك الدول التى نطالبها بمجرد تطبيق الديمقراطية فقد أظهرت التجربة الأوروبية عدم كفاية ذلك بمفرده لتحقيق التنمية والتقدم أتوماتيكياً وتطلب الأمر إضافة إلى ذلك سياسة تربوية تشمل جميع السكان وتأمين احتياجات معيشتهم الأساسية على المدى الطويل لترسيخ الديمقراطية وحقوق الإنسان ومن بينها عدد من الدول العربية والإسلامية ذات النظم القبلية والملكية

الرابحـــــون والخاســـــرون

والرئاسية ذات الحكم السلطوي الذي قد يلتزم نحو الخارج بالقوانين الدولية السائدة ويساهم بحماس في عمل الأمم المتحدة ومنظماتها في حين يطبق في الداخل سلطات استبدادية على شعوبه وتتمتع طبقة الحكام والأمراء فيه بثراء وبذخ في ظل فساد يترتب عليه عدم شعبيتها إضافة إلى تشجيعها النشاط الإسلامي المتطرف خارج حدودها والتغاضي عن تجاوزات بعض رجال الدين ممن يدعون امتلاك الحقيقة المطلقة وحدهم وتطلع بعض القيادات والحركات الدينية للاستيلاء على السلطة السياسية الذي أدى إلى الحكم الديكتاتوري في إيران والممارسات البشعة لنظام الطالبان في أفغانستان باسم الإسلام.

وتعتبر القارة الأفريقية بدولها الثلاث والخمسين أول المرشحين للخسارة، فكلها دول نامية تعاني من الفقر والانفجار السكاني خاصة الدول الأفريقية جنوب الصحراء التي فشلت في تحقيق وحدة قومية nation Building وتعاني غياب البنية الأساسية وانهيار مؤسسات الحكم ونظم التعليم والأوضاع الصحية الكارثية فزاد عدد المصابين بالإيدز على ٣٦ مليوناً ولم تنجب في الماضي من الزعماء البارزين الذين تعدى تأثيرهم حدود بلادهم سوى عبد الناصر والسادات ونلسون مانديلا وربما النيجيري أوباسانجو رغم ما يقابله من صعوبات جمة ولا يتوقع أن تتغلب القارة على أزماتها في القريب العاجل رغم البترول والثروات الطبيعية التي تملكها.

أما أمريكا اللاتينية التي تشترك مع أفريقيا في التفاوت الشديد بين الفقراء والأغنياء وتختلف عنها بوحدة اللغة والدين وتطورها إلى دول قومية، فبالرغم من ارتباط المكسيك وأمريكا الوسطى باقتصاديات الولايات المتحدة وتقدم البرازيل والأرجنتين وشيلي النسبي في نطاق تجمع دول جنوب القارة في اتفاقيات الميركوسور تقابله مشاكل كوبا ودول إنتاج المخدرات كولومبيا وبيرو وبوليفيا وكذلك فنزويلا رغم ثروتها البترولية فلا يتوقع رغم احتمال تحسن الأوضاع في بعض دولها أن تخرج من نطاق الدول النامية على ضوء مشاكلها الداخلية واستمرار التدخل الأجنبي.

أما الصين التي تحقق ارتفاعاً في دخلها منذ عشرين عاماً بمعدل ٨٪ والمتوقع أن تحتل الصين المركز الثاني في العالم من حيث الإنتاج القومي فإن مساحاتها الشاسعة وتعداد سكانها الضخم بأكثر من ١٫٢ مليار نسمة سيؤدي إلى استمرار انشغالها وتركيزها على الوضع الداخلي لفترة طويلة.

أما الهند التي تشارك الصين في ضخامة عدد سكانها والتي حققت سنوياً منذ ١٩٩١ ارتفاعاً في دخلها القومي بنسبة ٥٪ سنوياً وقامت بخطوات لإصلاح وتطوير نظامها الاقتصادي فنصف نسائها أميات وتعاني من انفجار سكاني شديد بعد تخليها عن برامجها القهرية للحد من النسل وتحتاج لوقت طويل لحل مشاكلها الداخلية.

لقد لاقت روسيا صعوبات ومشاكل بانهيار الاتحاد السوفيتي خاصة في المجال الاقتصادي الذي استشرى فيه الفساد وتصاعد التطرف الإسلامي بين العشرين مليون مسلم من الشعب الروسي إضافة إلى الفقر الذي يعاني منه قسط من المواطنين الذين لا يزيد دخل الفرد منهم على ٧٠ دولاراً شهرياً ومع انضمام الجيل الجديد للإصلاح الاقتصادي فمازال الجيل القديم يتخذ في سلبية موقف الانتظار وقد نجح بوتين في الاتجاه إلى إصلاح اقتصادي، فتصاعد النمو وتراجعت نسبة البطالة ونسبة التضخم وازداد تصدير البترول والغاز.

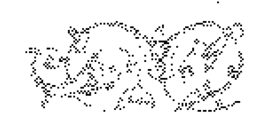
ومازالت روسيا تملك قدراً كبيراً من العلماء والمهندسين في الصناعات الحربية وبرامج الفضاء يمكنها استخدامهم في التقدم والتطور المدني وبحكم اتساع أراضيها وثرواتها الطبيعية الكبيرة وتسلحها الذري الضخم ستظل روسيا إحدى القوى الاستراتيجية الثلاث في العالم مع الاتجاه إلى إكمال الإصلاح الاقتصادي ورفع مستوى المعيشة والعمل على ترابط قوي بينها وبين أوكرانيا وروسيا البيضاء الذي إذا تحقق فمن الخطأ والخطورة بمكان محاولة عرقلته أو إضعافه.

وتحيط بالعالم أخطار جمة على رأسها الانفجار السكاني فبعد أن كان عدد سكان العالم منذ ٢٠٠٠ عام في عهد الإمبراطورية الرومانية لا يزيد على ٣٠٠ مليون تزايد خلال ١٩ قرناً وحتى عام ١٩٠٠ ليصل إلى ١٩٠٠ مليون، ثم حدث الانفجار السكاني في القرن العشرين ليبلغ عدد السكان ٦٠٠٠ مليون، ومن المنتظر أن يصل إلى ٩٠٠٠ مع حلول منتصف القرن الحالي، مع تزايد الفقر وانتشار الأمراض والكوارث البيئية وارتفاع حرارة الجو ونقص المياه وتزايد النزاعات والحروب والهجرات عبر الحدود.

كما تشكل تجارة الأسلحة وانتشارها تهديداً حقيقياً، فلم يشهد العالم في تاريخه مثل هذا القدر من الأسلحة في أيدي عدد كبير من الأفراد، وتبلغ تجارة الأسلحة ٣٠ مليارا سنوياً، ومازال في العالم ١٦٠٠٠ رأس نووي، كما انتشرت الأسلحة الصغيرة والمتفجرات بشكل سرطاني. ويوجد ٦٠٠ مصنع لإنتاج الأسلحة الصغيرة والخفيفة وتنتشر ٥٥٠ مليون قطعة سلاح صغيرة في العالم ولم ننجح في حظر استعمال الألغام الأرضية، وتتجه جهود التسليح الآن إلى تطوير قنابل ذرية صغيرة، وبالإضافة إلى ما سبق فإن عولمة التكنولوجيا والاقتصاد ووسائل المعلومات والإعلام إضافة إلى صعوبة مراقبة والتحكم في الأسواق المالية والنقدية تنطوي على أخطار متزايدة.



ينتهي شميت في تحليله إلى أن «إقامة علاقات حسن جوار مع العالم الإسلامي ضرورة لضمان مصالح وأمن أوروبا»، مركزاً على النزاع العربي الإسرائيلي

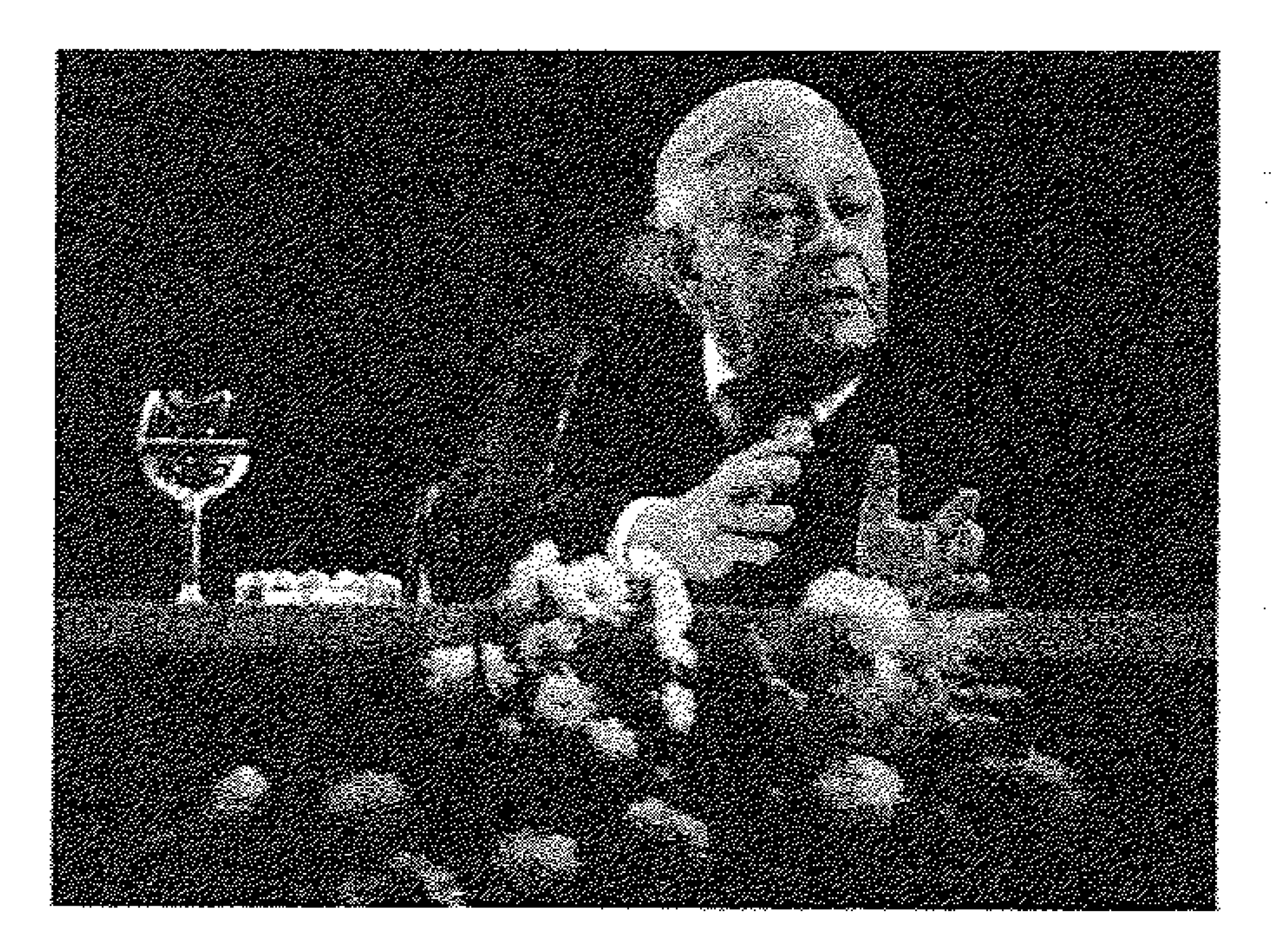


الإمبراطورية الأمريكية

جاء رد الفعل على أحداث سبتمبر متعجلاً وعصبياً وأعلنت أمريكا الحرب على الإرهاب، وأن يتم ذلك باستعمال القوة العسكرية ووافق الكونجرس على زيادة كبيرة في ميزانية التسلح.

وأعلنت أمريكا أنها تملك القوة ولا تحتاج لأحد ولا حتى حلف الأطلسي ومع غزو العراق استكمل هذا الاتجاه بالتأكيد على أن قرار الحرب لن يربط بإرادة الغير ولا حاجة للأمم المتحدة أو مجلس الأمن. وأدى ذلك إلى ظهور نقد وشعور عدائي للولايات المتحدة لم تشهده أوروبا من قبل، زاده حدة تعذيب الأسرى في العراق وجوانتانامو والانطباع بأن أمريكا لا تلتزم بالقوانين الدولية أو حتى بدستورها.

لقد نسي البعض أن تصرفات الولايات المتحدة الأحادية ترجع إلى تقاليد وخلفيات تاريخية لا يغير من حقيقتها تراجع تطبيق ذلك إبان فترة الحرب الباردة لتعود إلى الظهور مرة أخرى بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وبعد أن أصبحت الولايات المتحدة القوة الأعظم الوحيدة بلا منازع معتقدة أنها لا تحتاج لأحد. وانعكس ذلك على حلف الأطلنطي الذي أفرغ من مضمونه السياسي ليصلح ربما فقط أداة لتطويع وتسيير أوروبا. وطرح مبدأ «التدخل لأسباب إنسانية»، وقامت القاذفات الأمريكية بضرب بلجراد وكباري نهر الدانوب، بعد أن سبقها ضرب جزيرة جرانادا في عهد ريجان، والسودان في عهد كلينتون. وازدادت خطوات وقائمة التصرفات الانفرادية في عهد كلينتون وبوش الابن فأوقف الكونجرس سداد حصة أمريكا في ميزانية الأمم المتحدة وألغى الالتزام باتفاق الحد من انتشار الأسلحة النووية، واتفاق الحد من الصواريخ العابرة للقارات ABM. ورفض التصديق على اتفاقية وقف التجارب الذرية CTB، وعدم التصديق على الاتفاقيات حول الأسلحة البيولوجية،



باستثناء مصر وتركيا وإيران التى ترجع حدودها إلى تطور تاريخى طويل، فقد رسم المستعمر الأوروبى حدود غالبية الدول الإسلامية بشكل اعتباطى وفق مصالحه لتجمع بين دفتيها قبائل وأعراقًا ولغات وأديانًا متباينة لم يستطع حكمها إلا باستعمال القوة والاحتلال العسكرى

ومحكمة جرائم الحرب الدولية، واتفاقيات كيوتو، ومنع استخدام الألغام الأرضية، وتبعها فرض الحماية الجمركية على واردات الصلب ونقل الأسرى إلى جوانتانامو.

إن من يرغب فى فهم سياسة الولايات المتحدة اليوم وغدًا عليه الرجوع إلى خلفياتها وتقاليدها التاريخية التى تعكس منذ مائتى عام اتجاهات عامة هى الانعزالية، والإمبريالية، التى قد يتم الخلط بينهما، وعامل ثالث هو الاعتقاد بتكليف إلهى لتغيير العالم وإصلاحه لتسوده الحرية والديمقراطية بمفهومهم.

لقد ظهرت الرغبة الشديدة للتوسع منذ وصول المهاجرين الأوروبيين الأوائل واستيلائهم على أراضى الهنود الحمر بقسوة ثم التوسع غربًا.

واشترى توماس جيفرسون عام ١٨٠٣ منطقة لويزيانا الشاسعة بثمن رمزى واشتريت فلوريدا من إسبانيا ١٨١٢ واقتطعت تكساس من المكسيك ١٨٤٥ وأدت حرب المكسيك فى العام التالى إلى تنازلها عن أراض ضخمة تشكل حاليًا ولايات كاليفورنيا وإريزونا ونيفادا ويوتاه وكولورادو ووايو مينج ونيومكسيكو. ووصل الكوماندوز بيرى بسفنه الحربية فى عملية إمبريالية بحتة فى القرن ١٩ إلى اليابان، ليقضى على حكم الشوجون، وانتزعت الفليبين من سيطرة إسبانيا ١٨٩٨ تبعتها جزر هاواى وجوام وباكه. ثم فصلت بنما عن كولومبيا لبناء قناة بنما الاستراتيجية. وأعلنت الولايات المتحدة حق التدخل البوليسى فى دول أمريكا اللاتينية وتدخل الرئيس ودرو ويلسون فى المكسيك ونيكاراجوا وهايتى والدومينكان، قد يسمى ذلك توسعًا أو يسمى بالإمبريالية المبكرة.

ولقد اتخذ أول رئيس أمريكى مواقف انعزالية بإعلان الحياد فى الحرب بين فرنسا وبريطانيا وحذر فى خطابه الوداعى عام ١٧٩٧ من ربط مصير أمريكا بأى تحالفات خارجية Entangling Alliances ونادى الرئيس جيمس موندو ١٨٣٣ بعدم التدخل فى الحروب الأوروبية وعدم توسع القوى الأوروبية فى شمال القارة الأمريكية وأمريكا اللاتينية.

وبعد الحرب العالمية الأولى رفض مجلس النواب انضمام الولايات المتحدة إلى عصبة الأمم واستمرت العزلة حتى نهاية الثلاثينيات حيث ساندت الولايات المتحدة الحلفاء ضد هتلر وموسولينى واليابان، إلا أنها لم تشترك فى الحرب إلا بعد أن هاجمت اليابان أسطولها فى بيرل هاربور. وخرجت الولايات المتحدة من الحرب منتصرة لتصبح قوة عظمى تقود القوى الغربية فى الحرب الباردة. واتجهت إلى التعددية والتحالفات فوضعت مشروع مارشال وساعدت اليابان وتعاونت مع الأمم المتحدة والمنظمات الدولية واستمر ذلك حتى انهيار الاتحاد السوفيتى وعادت الأفكار والأصوات التى تدعو لمسلك إمبريالى انفرادى إلى الظهور لتبين أن طول فترة التعددية والأحلاف والانفتاح من ١٩٤٥ حتى التسعينيات لا يمثل قاعدة ثابتة فى السياسة الأمريكية، وأصبح تفوق القوة المطلق مغريًا لأى رئيس أمريكى باستعماله.

قوة الولايات المتحدة وضعفها

تعتبر الولايات المتحدة بلا منازع أكبر قوة فى العالم وستستمر على هذا الوضع لفترة من الزمن فلها جنود فى ١٥٧ دولة وقواعد عسكرية وقوات ثابتة فى ٦٣ دولة. وإمكانياتها العسكرية تمكنها من الوصول إلى أى مكان فى العالم وتملك إمكانيات اقتصادية هائلة تمثلها شركاتها العالمية، ويبلغ إنتاجها القومى ٢١٪ من إنتاج العالم وحجم تصديرها ٧٪ من ناتجها القومى مما يقلل من تأثرها بتطورات وتقلبات اقتصاديات العالم الخارجى ومع ذلك فهى تعتمد إلى حد كبير على البترول أكثر من غيرها من الدول الصناعية، ولهذا يمثل استيراد البترول أهمية كبيرة فى استراتيجياتها وتملك قدرات ونتائج متميزة فى مجال البحث والتطوير العلمى مستفيدة من استعمال قسط من ميزانية الدفاع الضخمة لتمويل مراكز البحث العلمى المدنية.

وتقوم جامعات الطليعة ذات المستوى العلمى الذى يفوق نظيراتها الأوروبية بدراسات وأبحاث متقدمة وتؤثر بسياستها المالية على مختلف أنحاء العالم ويستعملها الرئيس الأمريكى لمصلحة بلاده بتعاون بين وزارة الخزانة والبنك المركزى والبورصة وبنوك الاستثمار والعاملين فى البنك الدولى وصندوق النقد الدولى مما يطلق عليه بالتعبير الدارج Washington Consensus.

لقد تزايدت مديونية أمريكا لتصل إلى ٣٠٠٠ مليار دولار، والعجز فى الميزان التجارى ٥٠٠ مليار واستيراد رؤوس الأموال الأجنبية ٥٠٠ مليار فى العام. وظهرت بعض مظاهر الضعف بين طبقة مديرى الشركات من إثراء شخصى ومضاربات وارتفعت قائمة الفضائح المالية التى أدت إلى إفلاس وانهيار عدد من الشركات مما يتطلب إصلاحات اقتصادية. ويشير التطور السكانى إلى أن غالبية الناخبين فى النصف الثانى من القرن ستصبح من اللاتين والسود الذين يطالبون بتحسين وضعهم المعيشى من خدمات ومعاشات وتعليم وفرص عمل وغيرها مما سيؤدى إلى تحول اهتمام الحكام والسياسيين إلى جوانب السياسة الداخلية أكثر من السياسة الخارجية.

ويتمتع الشعب الأمريكى بخصائص وميزات ترجع إلى تكوينه التاريخى الذى ورثته أجياله من المهاجرين الأوائل فهو شعب مضياف ومتدين يتمتع بحيوية وديناميكية وقدرة على مجابهة الصعاب ويتمسك بحرياته الفردية ولا تعبر عنه بالضرورة الصورة السطحية التى نشاهدها فى الأفلام والتليفزيون والشارع. وليست هناك حدود للإثراء والتفاوت بين الأغنياء والفقراء ويؤمنون بالرأسمالية دون اقتصاديات السوق والفكر الاشتراكى ضعيف بينهم ولا يتحدثون عن الثقافة والحضارة الأمريكية بل يتحدثون أكثر عن أسلوب الحياة الأمريكية American way of life وهو شعب فى الغالبية لا يقرأ بل يعتمد على التليفزيون ومعلوماته عن العالم الخارجى قاصرة ويشمل ذلك عددًا من رجال السياسة الذين قد تفوق معلوماتهم عن الإرهاب أكثر مائة مرة مما يعرفون عن الدين الإسلامى وتاريخ وحضارة العرب.

وتقتصر غالبية معلومات مرشحيهم للرئاسة على ما اكتسبوه من خبرة فى أمور السياسة الداخلية والشئون الإدارية خلال عملهم كحكام للولايات ولذا يعتمدون عند وصولهم للبيت الأبيض على الخبراء والمستشارين من كبار رجال الصناعة والسفراء السابقين وأساتذة الجامعات ومراكز الفكر Think Tanks.

ويعتقد الأمريكيون فى سذاجة بأن ما يعيشون فى كنفه من حريات أساسية وديمقراطية هى قيم مطلقة تصلح للتطبيق على العرب والصينيين وباقى شعوب العالم ويلتفون بشكل جماعى حول رئيسهم بمجرد انتخابه خاصة فى موضوعات السياسة الخارجية. وعن الاستراتيجية الأمريكية، فلا شك أنها تتمتع كقوة عظمى بحرية كبيرة ومستمرة فى الحركة ولكنها ليست حرية مطلقة. وأظهر ذلك الوضع الخطر المضطرب فى الشرق الأوسط وأيضًا انسحابها من الصومال وعدم التدخل فى مذابح رواندا والمشكلة النووية مع كوريا الشمالية. ولم يؤد الانتصار على صدام حسين إلى إعادة ترتيب الشرق الأوسط أو حتى تأمين السلام فى العراق، وثارت الشكوك حول جدوى هذه الحرب فى مقاومة الإرهاب وأن كسب الحرب واستعمال الأسلحة بعيدة المدى لا يضمن السيطرة على شعوب العالم.

ربما عرقلت الصدمة ورد الفعل على أحداث سبتمبر ٢٠٠١ وضع استراتيجية عقلانية شاملة ومتكاملة فى الولايات المتحدة وربما أصبح من الممكن بل ومن الضرورى أن تبدأ بعد انتهاء الانتخابات مناقشة عميقة عن استراتيجية أمريكية عامة grand strategy للقطب الأعظم تأخذ فى الاعتبار التخلص من عقدة التركيز على الإرهاب على حساب كل العوامل والمشاكل الأخرى والارتباط بميثاق الأمم المتحدة والاتفاقات والقوانين الدولية رغم ما أصدره بوش فى سبتمبر ٢٠٠٢ «استراتيجيات الأمن للولايات المتحدة» المتضمنة حق القيام بالحروب الوقائية وإعادة بحث العلاقات مع أوروبا وإعطاء أهمية لأسباب التصاعد الشديد فى النقد والشعور المعادى لأمريكا فى العالم الإسلامى والرأى العام الأوروبى والدولى بل وكنائس العالم ودوائره السياسية والبرلمانية والتحدث مع العالم بلهجة مختلفة متذكرة قول تيودور روزفلت «تحدث بصوت منخفض فأنت تحمل عصا غليظة».

وعن العالم الإسلامى يذكر شميت أنه «تنبع من الدين الإسلامى تيارات سياسية

وحضارية قوية صبغت ثلث دول العالم بطابعها، وأن الشرق الأوسط ـ عدا إسرائيل ـ يتكون من دول وشعوب إسلامية تملك كماً هائلاً من البترول الذى يحتاجه العالم بشدة. وعندما يشاهد المسلمون المتكدسون فى المدن المزدحمة فى التليفزيون صور الحياة فى العالم الغربى الثرى يشعرون بالظلم الذى قد يرافقه تقزز من بعض جوانب التحرر الأخلاقى المفرط المتعارض مع تقاليدهم وللنزاع الإسرائيلى الفلسطينى دور سلبى فاعل فى تكوين الفكر ورد الفعل الشعبى المسلم ومع تصاعد الصدام الدموى أصبح وضع المناطق الفلسطينية التى تحتلها إسرائيل يشكل فى عيون العرب والمسلمين الدليل على سوء نية الغرب خاصة الولايات المتحدة ولا يمكن حل هذا النزاع بدون دور أمريكى نشط وموقف جاد ثابت وعادل لتحقيق السلام.

وبعد كامب ديفيد تقاعست أمريكا عن القيام بخطوات فاعلة ومؤثرة واستمرت فى سياسة مهتزة وغير ثابتة منحازة لإسرائيل تحت ضغط ظروفها السياسية الداخلية وأصمت أذنيها عن النصيحة التى قدمها السادات أيضاً بأنه لا يمكن تحقيق السلام والاستقرار فى الشرق الأوسط بدون حل المشكلة الفلسطينية ثم قتل السادات وبعده رابين بأيدى الإرهابيين وأصبح الموقف الإسرائيلى المتشدد يلقى نقداً شديداً فى أوروبا وبعض النقد فى الولايات المتحدة وإسرائيل نفسها، ويجابه ذلك بحملة تتهم من ينتقد الحكومة الإسرائيلية باللاسامية وتعريض اليهود للخطر مما يجعل موقف الألمان أكثر صعوبة من أقرانهـــم الأوروبييـــن بســـبب الهولوكوست.

من الضرورى إقامة دولة فلسطينية غرب الأردن مع ضمان كيانها وأمنها مع أمن وكيان إسرائيل ويتطلب ذلك تواجد قوات حفظ سلام دولية وأمريكية.

وبالرغم من إقامة عدد كبير من المستوطنات على الأراضى الفلسطينية خارج حدود إسرائيل فمازالت فرص الحل قائمة.

ويجب التخلى عن سراب الاعتقاد بإمكان فرض ديمقراطيتنا الغربية من الخارج على الدول والشعوب الإسلامية والعربية التى لها تقاليدها وحضاراتها وممارساتها الدينية لأكثر من ألف عام وأن نشجب محاولات تصعيد الخلاف بإضافة بعد دينى أو القول بأن ديمقراطيتنا نبعت من فكر مسيحى وأن الإسلام يشجع الحكم السلطوى وفى ذلك تزييف ومغالطة تاريخية فطريقنا نحو الديمقراطية نبع من ثورات وأفكار كانت موجهة أساساً ضد ظلم الإقطاعيين وضد الكنيسة الغربية التى عملت على فرض هيمنة ووصاية رجال الدين وبدأت من كوبيرنيكوس وجاليليو والفلاسفة من أمثال فولتير وكانت وروسو والمفكرين مثل مونتيسكيو وهوجو دى جروت وجون لوك وليسينج والمئات من حملة الفكر التنويرى واستغرق ذلك وقتاً طويلاً لترسيخ الديمقراطية الغربية التى يطالب البعض الآن بتصديرها وتطبيقها الفورى على غيرنا من شعوب وحضارات العالم.

إن أوروبا التى تعيش جواراً لصيقاً جغرافياً مع المسلمين الذين أصبحوا يكونون الدين الثانى بين سكان الاتحاد الأوروبى يحتاجون أكثر من غيرهم إلى التفاهم والسلام بين الديانتين الكبيرتين الإسلام والمسيحية، وعلى الغرب الفصل بين التدين الإسلامى والإرهاب والاعتراف وإظهار الاحترام للقيم الإسلامية ولا تكفى زيارة بوش والبابا لأحد المساجد كعمل رمزى بل يجب توجيه دعوة قوية للقيادات الدينية والسياسية والتربوية فى الغرب والعالم الإسلامى لنشر مبادئ التسامح ومقاومة العنف والإرهاب.

ومع تفشى الحروب والعنف لن تستطيع أية قوة عظمى الحفاظ على السلم والاستقرار فى العالم مع تطبيق مبادئ الأنانية المقدسة Sacro Egoismo ويصبح السؤال المهم الذى يطرحه المستقبل علينا ليس سؤال: هل تستمر الهيمنة الأمريكية؟ بل كيف ستستعمل أمريكا هذه الهيمنة؟ وفى هذا السياق نتذكر كتاباً ألفه السيناتور الأمريكى فولبرايت منذ أربعين عاماً بعنوان «غطرسة القوة».

إن التشاؤم الشديد يدعو للخوف واليأس، والتفاؤل المفرط يؤدى إلى أحكام غير سليمة، ومازالت عبر التاريخ عن قدرة أمتنا العربية وعالمنا الإسلامى على تخطى الصعاب تدفعنا إلى الأمل فى مستقبل مشرق، علينا نحن العرب أن نعمل ونساهم فى صنعه بأيدينا. ■



الإصلاح وظاهرة العصيان

رباب المهدي

كثر الحديث فى الآونة الأخيرة عن الأوضاع فى العالم العربى، وعن ضرورة إصلاح أوضاعه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتعليمية.وتطالعنا فى شأن هذا الإصلاح مبادرات عدة يتحدث عنها القاصى والدانى، ومما يثير الجدل فى هذه المبادرات - محلية كانت أو إقليمية أو عالمية - هو دور «الدولة» فى مقابل الدور الذى يجب أن ينهض به «المجتمع المدنى» وتتراوح الرؤى لهذه الأدوار بين قطبين: أيهما (الدولة والمجتمع المدنى) يكون فاعلا وأيهما يكون مفعولا به؟

وفى هذا الإطار يحتد الجدل حول علاقة الدولة بالمجتمع المدنى من ناحية، وعلاقة كليهما بالإصلاح المنشود، وبمنظومة التنمية فى العالم العربى من ناحية أخرى. وتطرح فى هذا الصدد تصورات حول «النموذج» الذى ينبغى تطويره، - ليتلاءم مع فلسفات وأيديولوجيات مختلفة- والسياسات والإجراءات التى من شأنها تحقيق التنمية المرجوة، وإنجاز الإصلاح المنشود والملاحظ فى هذا الصدد- إن هذه الرؤى تمثل أشتاتا غير مؤتلفات، تصل أحيانا إلى درجة المتناقضات.

ويختلف هذا المقال فى الغاية منه، وبالتالى فى طبيعته عن التيار السائد فى الكتابات، وفى أحاديث الندوات والمؤتمرات التى تعقد بهدف النظر فى إصلاح الأوضاع الراهنة فى العالم العربى فى أنه لا يهدف إلى تقديم «وصفة» معينة للإصلاح المنشود، ولا إلى إسقاط أحكام قيمية على «الوصفات» المختلفة محلية كانت أو خارجية التى تقدم للإصلاح. والبديل الذى يجلبه هذا المقال هو التركيز على عملية الإصلاح، وبوصف أنها مشروع قومى وعقلانى فى آن واحد: وهاتان الوصفتان توجبان أن يكون المشروع نتاجا وطنيا حقيقيا، يسهم فى توليده، وفى وضع سياساته، وتحديد إجراءاته، وتبنى تنفيذه، كافة قطاعات وفئات المجتمع. وأن يقوم هذا المشروع على التوازن فى توظيف الرؤى المستقاة من النخب فى كل القطاعات مع التصورات العامة للجماهير، دون الإفراط أو التفريط فى أى من الجانبين.

والتشبث بأن يكون مشروع الإصلاح قوميا وعقلانيا، مؤسسا على استشراء المرض أو قل ثبوت الخلل فى الأوضاع الراهنة للدولة والمجتمع على حد سواء فى العالم العربى، إذ إنه حين يشمل الخلل النظام السياسى للدولة، وتغيب القاعدة الاقتصادية المنتجة، والنظام العادل لتوزيع الدخل، ويشيع الخلل فى القيم الاجتماعية السائدة فى المجتمع، وتقوم أدلة وقرائن على انعكاسات هذا الخلل فى أنماط السلوك فى قطاعات اجتماعية مختلفة - فى مثل هذه الأوضاع تصبح عملية الإصلاح عملية شديدة التعقيد، متعددة المستويات، وطويلة الأجل، لا تجدى فيها مبادرات نخبوية محدودة، سواء كانت هذه المبادرات رسمية أو غير رسمية، محلية أو أجنبية.

من الفراغ العام إلى المجال العام

وفى ضوء ما أسلفت تبرز أهمية مفهوم «المجال العام» The Public Sphere الذى عنى بتنظيره الفيلسوف الألمانى يورجن هابرماس وقام على متابعته وتطويره آخرون فى مختلف مجالات العلوم الاجتماعية. وتعرف مارجريت سومرز المجال العام على انه:

«موقع افتراضى للتشارك، يلتقى فيه فاعلون، تتداخل هوياتهم بوصف أنهم مواطنون بحكم القانون، على الرغم من تعدد واختلاف انتماءاتهم الاجتماعية والأسرية ومصالحهم الاقتصادية.

وفى هذا الملتقى يستغرق هؤلاء المواطنون فى مفاوضات ومجادلات، تدور حول الأمور العامة سياسية واجتماعية».

والمجال العام فى ضوء هذا التعريف ليس هو المجتمع المدنى على النحو الذى يتصوره بعض المفكرين، ولكن يمكن تصوره على أنه نقطة الالتقاء بين الدولة والمجتمع المدنى. وفى عبارة أخرى إذا كان المجتمع المدنى ينظر إليه على أنه المساحة التى تتكون فيها الإرادات الجماعية، التى تعبر عن المصالح المختلفة لفئات من المواطنين، فى صورة كيانات متمايزة عن الدولة، ولكنها تتأثر بسياسة الدولة فى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتسعى فى الوقت ذاته إلى التأثير فيها . فإن «المجال العام» هو الجسر الذى يسمح للمجتمع المدنى بالتفاعل مع الدولة والتأثير فى مؤسساتها وسياستها.



وتكمن أهمية «المجال العام» فى أنه المسرح الذى تلتقى فيه جماعات ذات مصالح واهتمامات متباينة ، ويسمح فى هذا المسرح بتبادل وجهات النظر المتناقضة، دون هيمنة أو سيطرة لأى منها إذ تلتقى على خشبة هذا المسرح الثقافات الفرعية داخل المجتمع الواحد لتسهم جميعها بطريقة تشاورية وديموقراطية- فى صياغة خطاب قومى عقلانى تتشكل وفقا له السياسة العامة للدولة، وللمؤسسات الرسمية وغير الرسمية .

وتأسيسا على ما تقدم، يمكن القول إن «المجال العام» لا يوجد تلقائيا أو بالفطرة فى المجتمعات، وإنما يحتاج استحداثه وخلقه فى المجتمعات البشرية بعامة و فى الدول النامية بخاصة، إلى جهود مقصودة تبذلها الدولة والمجتمع المدنى دون تفريط أو تقاعس. إذ أن خلق «المجال العام» يمثل انتصارا للدولة وللمجتمع المدنى، فهو السبيل للأمة للوفاء بحقوق المواطنة لجماهير المجتمع كافة، وهو أيضا الوسيلة التى يمكن عن طريقها تصميم وصياغة وتنفيذ مشروعات إصلاحية تعكس الاتجاهات المختلفة والطموحات المتنوعة لطوائف المجتمع، مشروعات تتسم بأن المواطنين لا يشعرون إزاءها بالاغتراب، أو إنها منحازة إلى منفعة فئات معينة فى المجتمع. ومن شأن هذه المشاعر أن تدفع المواطنين إلى تبنى هذه المشروعات ، والمشاركة فى إنجاز متطلباتها وفى تدبير سيرورتها وتقويم عوائدها.

وثمة عاملان أساسيان يحددان مدى قدرة «المجال العام» على إفراز مشاريع إصلاحية وتنموية تتسم بالشمول، وتتصف بالعدالة فى أرحب جوانبها، وتخرج من حيز المبادرات النخبوية لتستقر فى آفاق المشروعات القومية. وهذان العاملان هما:

أ. الإحاطة الشاملة/ الإلمام Inclusiveness ؛

ب. الفاعلية Effectiveness

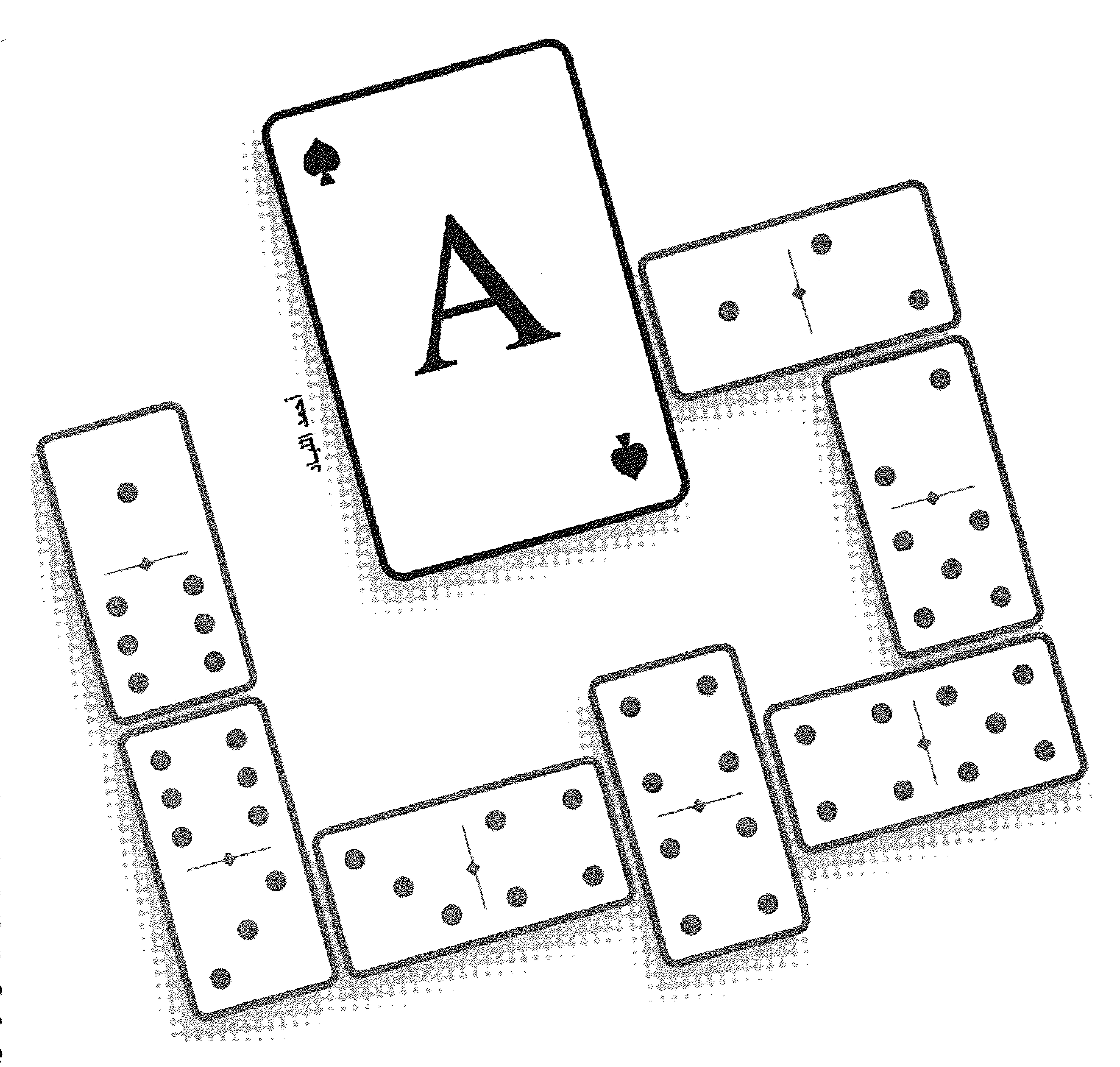
وهنا يبرز السؤال الرئيسى الذى يتصدى هذا المقال للإجابة عنه. وهو: ما شكل «المجال العام» فى مصر ؟ بمعنى ما مدى قدرته على إفراز مشروع إصلاحى تنموى، تتقاسمه الدولة والمجتمع المدنى، وتكرس الجهود المبذولة فيه للوفاء بحقوق المواطنين جميعا، وتدفعهم إلى أداء واجباتهم.

وأركز الحديث فى الجزء التالى من المقال للإجابة عن هذا السؤال فى ضوء المتغيرين الأساسيين المشار إليهما.

أولا: عند إعمال المتغير الأول (شمول الإحاطة) بوصفه أداة لوصف المجال العام، وتحليله، وتشخيصه - يبدو للمراقب الموضوعى أن المجال العام فى مصر تواجهه معوقات شتى، وتقع المسئولية فى بروز بعض هذه المعوقات على الدولة وفى بعضها الآخر تنصب المسئولية على المجتمع المدنى. فالدولة مثلا قد آثرت فى مشروع الإصلاح الاقتصادى أن تؤصل علاقات التواصل فى هذا المشروع مع بعض فئات المجتمع المدنى على حساب فئات أخرى، إذ أنها فى ضوء التغير الحادث فى منظومة الاقتصاد العالمى، وفى ضوء النغمة السائدة فى خطاب هذا الاقتصاد - لجأت

لجأت الدولة إلى ارتداء ثوب الليبرالية الجديدة، فنشأ عن هذا التوجه شبه تأليه للقطاع الخاص، وتقويض ملحوظ فى دور الدولة فى الضمان الاجتماعى، وارتفاع مطرد فى حجم العمالة غير الرسمية وغير المنظمة

المــــدنى فــى المجتمـــــع المصـــــرى



الدولة إلى ارتداء ثوب الليبرالية الجديدة، فنشأ عن هذا التوجه شبه تأليه للقطاع الخاص، وتقويض ملحوظ فى دور الدولة فى الضمان الاجتماعى، وارتفاع مطرد فى حجم العمالة غير الرسمية وغير المنظمة، وشاعت مقولات لتبرير زيادة الفقراء فقرا، وزيادة الأغنياء غنى، وحدث الترويج لمقولة إن معالجة الفقر قوامها الاعتماد على اقتصاديات السوق وحدها.

وقد أدى هذا التحول الأيدلوجى والاقتصادى غير المتوازن إلى تهميش قطاعات كاملة فى المجتمع، ولم يقتصر هذا التهميش على الحرمان من عملية التنمية فى جوانبها المختلفة، بل إلى الحرمان من الوجود الفاعل، وتحقيق الذات فى المجال العام. وأدى هذا إلى هيمنة اهتمامات ومصالح فئات معينة، وسيادة الخطابات التى يرجونها، على المجال العام. فصوت كبار رجال الأعمال، وقنوات تواصلهم مع الدولة تشغل مساحة اكبر وأعظم وأقوى وأخصب من المساحة والمنابر المتاحة لممثلى العمال على سبيل المثال. وتناقص دور الدولة فى مجال تقديم الخدمات الاجتماعية، أدى إلى تآكل إمكانات وطاقات معظم من ينتمون إلى الطبقتين: المتوسطة والشريحة الدنيا فى هذه الطبقة middle & lower middle بصورة أثرت تأثيراً ملحوظا على الأدوار التى كانوا يسهمون بها فى المجال العام. فالمواطن المصرى الذى كان يرتاد المقهى بعد العمل فى سنوات مضت - أصبح مضطراً إلى أن يعمل عملا إضافيا بعد عمله الأصلى - يعينه على الوفاء بسداد حاجات من يعولهم وقد أدى هذا إلى انحسار وجود كثير ممن ينتمون إلى هاتين الطبقتين من المجال العام، وتحولهم إلى المجال الخاص، على النحو الذى يجرى فى تجمعات الرجال والنساء الآن، حيث تدور معظم المناقشات: حول كيفية الحصول على لقمة العيش فى إطار فردى. وقد كانت المناقشات فى مثل هذه التجمعات تدور فى فترات المد القومى وعصور النشاط الوطنى حول أمور عامة، تدخل فى نطاق «المجال العام» حيث كان التحاور والجدل والمحاضرات تنصب على أمور عامة (الحكم الجمهورى والحكم الملكى. الاستقلال فى مقابل الاستعمار والتبعية. تأميم القناة. ضبط الأسعار. الانفتاح الاقتصادى مزاياه وعيوبه).



وقد انعكس التحول الراهن الذى طرأ على «المجال العام» على الخطاب الاجتماعى، وفى المفاهيم التى تحكمه، وأصبح الخروج من الفقر، والحراك الاجتماعى يتطلبان - من وجهة نظر الأغلبية الساحقة من المواطنين - السعى الفردى، والاعتماد على الحظ والفهلوة، والحصول على أكبر مردود مادى بأقل جهد ممكن، وفى أقل فترة زمنية - وليس على وجود منظومة سياسية واقتصادية واجتماعية عادلة بمناقشة القضايا العامة، والمشاركة فى تحسين الظروف العامة، وإحلالها محل التركيز على المصالح الخاصة، والتمحور حول الذات.

وأحسب أن ثمة معوقات أخرى، توحى بتقلص «المجال العام»، وتقع مسئولية بروز هذه المعوقات على تنظيمات المجتمع المدنى ذاتها، وذلك حين تنأى تنظيمات المجتمع المدنى عن محاولة تمثيل وتنظيم قطاعات كبيرة فى المجتمع بأشكال تتناسب وتتلاءم مع ظروف هذه القطاعات. ويحضرنى فى هذا الصدد أمثلة منها: تركيز المنظمات المعنية بالمرأة على المرأة الحضرية، وإهمال المرأة الريفية، أو عدم عنايتها بتنظيم وتمثيل العمالة غير الرسمية بدعوى صعوبة ذلك. وأيضا فإن معظم تنظيمات المجتمع المدنى تتبنى فى نشاطها إطارات فكرية وديماجوجية، تعظ الناس بدلا من أن تستثير فيهم النظرة العقلانية إلى مشكلاتهم ومشكلات مجتمعهم، وتملى عليهم أكثر مما تسمع منهم أو تتحاور معهم. وهذا يؤدى إلى إسقاط، اهتمامات ملحة وقطاعات كبيرة يجب أن تمثل فى المجال العام و تتفاعل معه.

أما العامل الثانى الذى يجب إعماله فى وصف وتحليل وتشخيص قدرة «المجال العام» فى مصر فهو متغير الفاعلية effectiveness وإعمال هذا المتغير يؤدى إلى نتيجة ليست أفضل من أعمال المقصد الأول. وفى هذا الصدد تبرز أهمية مقولة هيرماس «إن الخطابات لا تحكم» Discourses do not govern والخطاب بوجه عام، ولأغراض هذا المقال يعنى الكلام الذى يؤدى شفويا أو يسجل كتابيا بوسائل شتى لبيث حول موضوعات تهم فئات معينة من المواطنين، عبر قنوات مختلفة.

والملاحظ أن الخطابات التى تنصب على مشروعات التنمية الشاملة، والإصلاح المتكامل فى مصر مهما اتسمت بالبلاغة اللفظية، ومهما زعمت أنها ترعى حقوق المواطنين، وتنشد تحسين واقع الحياة



كتاب الزاوية

لماذا لا ينقرس النساء؟

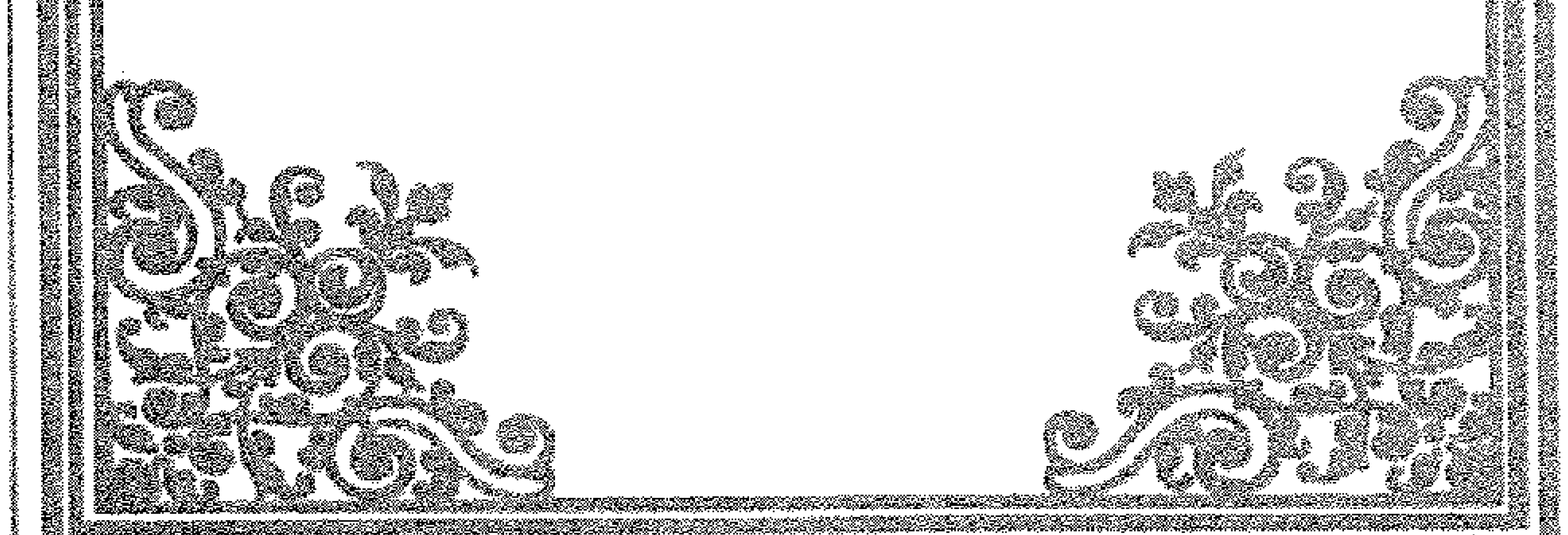
أبو بكر الرازى

قد قلنا فيما تقدم، إن النقرس يحدث عن فضول تجتمع فى البدن، تدفعها الطبيعة إلى الأطراف. وفضول البدن محتقنة أبدًا فى الدم. والنساء يخرج منهن من الدم ـ بالحيض ـ ما تنقى به أبدانهن من هذا الفضل، ولا يبقى فيها ـ منه ـ ما يندفع، فيسيل إلى القدمين.

وأيضًا، فإن أبدان النساء مرطوبة رطوبة مألوفة لذيذة، وليس فى أبدانهن من الحرارة ما يسخن الدم ويحده، حتى يحدث عن ذلك نقرس مُرى حار. ولا فى أبدانهن أيضًا من الحرارة، ما ينضج الخلط البلغمى الغليظ، حتى يجعله مالحًا لذاعًا، فيحدث النقرس.

فمن هاتين الجهتين، لا يحدث النقرس بالنساء والعلة التى لها لا ينقرس الخصيان، مشاركة لإحدى العلتين اللتين لهما لا ينقرس النساء: وهى رطوبة البدن وضعف الأعضاء. وذلك أن الأبدان المرطوبة رطوبة مألوفة محمودة، لا حادة ولا حريفة، ولا تؤلم الأعضاء ولا تنكأها. والأعضاء إذا كانت ضعيفة، لم تدفع الفضول عنها إلى الأطراف، بل يتحير الفضل فى كل واحد من الأعضاء على قدر ضعفه.

فإذا كان مزاج البدن رطبًا، كانت الحرارات الغريزية فيه مختلفة، فلا تسخن رطوباته ولا تحدها. وإذا كانت الأعضاء ليست متساوية القوة، لحجت الفضول فيها ولم تنصب إلى القدمين، فلم يحدث عنها النقرس.



الذى تعيشه جماهير المواطنين، ومهما ادعت أنها شاملة تغطى اهتمامات كل فئات وطبقات الشعب المختلفة - تظل مجرد أقوال تمثل رغبات وطموحات ونوايا من قاموا بصياغتها ، ويظل الحكم على مدى فاعلية هذه الخطابات متوقفا على مدى التأثير الذى أحدثته هذه الخطابات فى تغيير السياسات التى تتبناها الدولة، وعلى مدى استجابة الأجهزة الرسمية وتنظيمات المجتمع المدنى للوفاء بحاجات المواطنين وصيانة حقوقهم فى الحياة. وما لم يظهر أثر تلمسه الجماهير لمشروعات الإصلاح يبقى الخطاب الدائر حولها ألغازا لا مغزى لها بالنسبة لهم، وتنظر الجماهير إلى ألوان الخطاب التى تولد داخل المجال العام بالنسبة للإصلاح على أنها محاولات تدخل فى مجال المهدئات لغضب الجماهير ، أو التنفيس عنهم، أو أن تصبح مادة إشعال للثورات (كما حدث فى الثورة الفرنسية).

ويلفت النظر فى المجتمع المصرى اليوم ازدياد شعور الجماهير بعدم جدوى المشاركة السياسية أو الإسهام فى الشأن العام، وعندى أن هذا الشعور نتيجة منطقية لخبرات سيئة متراكمة، تقاعست فيها الدولة وأجهزتها المختلفة عن الاستجابة لمطالب المجال العام سواء فى ذلك التباطؤ الشديد فى سن القوانين والتشريعات ذات العلاقة بالقضايا الجماهيرية أو إغفال مدخلات المجال العام فى بلورة هذه القوانين؛ بدءا بالقانون المنظم لأعمال الجمعيات الأهلية، ومرورا بقانون العمل الجديد، وانتهاء بالتشريعات الخاصة باختيار القيادة السياسية، والامتناع عن تحديث الجهاز التنفيذى للدولة كى يكون أسرع فى الاستجابة للمطالب الجماهيرية.



وثابت أن المجال العام قد حرص على المشاركة الفعالة والحوار المنتج حول القضايا التى أشرت إليها آنفا ، وبث هذا الحوار عبر قنوات متعددة للتواصل، وكانت النتيجة النهائية لهذه المشاركة إهمالاً مقيتاً، وعزماً أكيداً من الدولة على تجاهل ما أسفرت عنه الحوارات فى المجال العام ، مما أشعر الجماهير بأن الدولة تزدرى الرأى العام، وأن الجهد الذى يبذل فى المجال العام ليس له عائد أو جدوى. ومن هنا يرى بعض المراقبين أن المجتمع المصرى فى حالة عصيان مدنى صامت. وتجدر الإشارة هنا إلى تطور حدث فى مصر من شأنه الإسهام فى فاعلية المجال العام ، وقوام هذا التطور ظهور قنوات عدة للتواصل تقيمها الدولة متعاونة مع المجتمع المدنى ، وتأسيس هذه القنوات أمارة من أمارات انفتاح الدولة على المجتمع المدنى، ودعمها للمجال العام ، فتعدد قنوات التواصل وتنوعها يتيح الفرصة لعناصر وتيارات مختلفة فى المجتمع للمشاركة فى المجال العام. والسؤال الذى يفرض نفسه إزاء ظاهرة تعدد قنوات التواصل وتنوعها فى مصر هو هل أحدث هذا التطور توازنا بين الفرص المتاحة للنخب السياسية والاقتصادية والإدارية والثقافية، والفرص المتاحة لممثلى جماهير الشعب؟

ونوجز الإجابة عن هذا السؤال بلفت النظر إلى أن النخب المختلفة لديها فرص واسعة ميسرة ومتعددة للتعبير عن آرائها، وبيان وجهات نظرها، وصيانة مصالحها المادية والمعنوية؛ فكبار رجال الأعمال يدعون إلى لقاءات رسمية مع القيادة السياسية العليا، ومع الوزراء. وتلتقى النخب فى المجتمع برجال الدولة فى المناسبات الاجتماعية التى يدعون إليها (الأفراح، الندوات والمؤتمرات ، الأندية، المصايف، ونحو ذلك). وفى مقابل هذا نجد الفرص المتاحة لفئات العمال والفلاحين والشباب وسائر الفئات المهمشة توشك أن تكون منعدمة، وأن الرسمى المتاح منها مقيد بأغلال البيروقراطية المحبطة للجماهير، ولذا فليس عجيبا أن يجد بعض أعضاء هذه الفئات وسائل أخرى بديلة وغير مشروعة للتعبير (الغش الفردى، والغش الجماعى والرشوة، وإتلاف الممتلكات العامة). وإذا كانت الدولة قد أسهمت فى إضعاف فاعلية المجال العام فى مصر فإن منظمات المجتمع المدنى مسئولة أيضا عن هذا الضعف ، ففى مصر ما يزيد

"الإصلاح" وظاهرة العصيان المدنى

على عشرين ألف جمعية أهلية، بالإضافة إلى النقابات العمالية والعلمية والمهنية، والاتحادات، ولنا أن نسأل: ما أثر هذه المنظمات فى بناء المجال العام وفى زيادة تفعيل نشاطاته؟

إن الأغلبية الساحقة فى هذه الجمعيات والمنظمات قد قصرت أنشطتها على تقديم الخدمات الاجتماعية، وقد ساعد على ذلك تشجيع الدولة ومنظمات التمويل الدولى، والإعانات والقروض التى تمنحها الدول المانحة لهذه المنظمات لقصر نشاطها على تقديم الخدمات وعدم تسييس المجتمع المدنى وإبعاد منظماته عن المشاركة فى العمل العام، بوصفها قوى فاعلة فى تطوير النظام السياسى وفى تغييره.

وهكذا نجد أن المجال العام فى مصر مواجه بعائق مركب؛ قوامه استبعاد فئات كثيرة من جماهير الشعب من المشاركة فى المجال العام، وعدم فاعلية المنظمات القائمة تحت مسمى المجتمع المدنى فى تفعيل وتنظيم هذا المجال. وبهذا تحول «المجال العام» إلى «فراغ عام»، وهو ما أوجزه عنوان هذا المقال.

مـــا العمـــــل إذن؟

أقول بتكثيف شديد: علينا جميعا فى مصر- حكاما ومحكومين- أن تسعى حثيثا لبناء مجال عام نشط وفعال، يعبر عن اهتمامات واحتياجات وتطلعات كافة فئات المواطنين السياسية والاقتصادية والثقافية دون عوائق تنتمى إلى النوع أو المستوى الاجتماعى أو الاقتصادى أو الميل السياسى. وأن تحول الضغوط الموجهة إلى العالم العربى، والمناقشات الدائرة فى مستويات مختلفة حول مبادرات الإصلاح إلى محركات للبدء فى مشروع قومى عقلانى للإصلاح الشامل فى الوطن العربى كله. ولإنجاز هذا المطلب على الدولة ومنظمات المجتمع المدنى فى كل بلد عربى، وعلى النخب الثقافية والاقتصادية والسياسية - عليهم جميعا أن ينهضوا للقيام بأدوار نشطة واعية وحاسمة تجاه ما يلى:

أولا: أن تعيد الدولة النظر فى كيفية التواصل مع فئات المجتمع المختلفة، وذلك بإعطاء المساحة والظروف الملائمة لكل فئة للتعبير عن احتياجاتها الآنية وطموحاتها المستقبلية. وهذا يقتضى إدخال تعديلات على التشريعات وآليات التنفيذ القائمة الآن، أو إصدار تشريعات جديدة واستحداث مؤسسات وقنوات تحقق استيعاب هذا التواصل لكل فئات الشعب.



ثانيا: أن تعيد الدولة النظر فى جدوى المنطلقات الاقتصادية التى تتبناها، وأن تقيم بطريقة موضوعية تتسم بالجدية والشفافية مدى تأثير هذه المنطلقات على عملية توزيع الدخل والثروة داخل المجتمع. وأن تبادر الدولة إلى إصلاح ما أسفرت عنه المنطلقات الاقتصادية الحالية من سلبيات، تمثلت جوهريا فى تزايد التباينات فى الثروات فى المجتمع المصرى، لأن الفروق المتزايدة فى القدرة الاقتصادية مدعاة إلى إضعاف المجال العام، واستلابه ليستقر فى أحضان القوة المهيمنة اقتصاديا. وتلك بادرة تنذر باختلالات وخيمة، وعواقب سيئة قد يصعب تداركها إذا لم نبادر إلى معالجته اليوم وليس غدا.

ثالثا: على منظمات المجتمع المدنى أن تستوعب مكانتها، وتعيد النظر فى دورها، أن تتعرف على وظائفها الجوهرية وليست الشكلية، وأن تستوعب أن الحقوق فى المجتمع البشرى جميعا تأخذ ولا تمنح، ولذا فإن عليها أن تنتظم فى حوار دائم مع الدولة وممثليها، حوار يقوم على الندية، ورفض الهيمنة من أى طرف فى الحوار.

وأخيرا: على النخبة المثقفة أن تتفاعل بصورة أوسع وأعمق مع الجماهير، وأن تعمل جاهدة على تأصيل مفاهيم ونداءات حيوية مثل: الديموقراطية، وتمكين المرأة، بوصفها طرقا وأساليب للحياة، أكثر من كونها مفاهيم تجريدية أو غريبة عن خطاب العامة، وأن تبذل جهوداً منظمة ومتنوعة لجعل مثل هذه المفاهيم واضحة المردود وبارزة فى أهميتها لتوسيع الفرص الحياتية لكل الجماهير. ■

ناطحات سحاب .. وبيوت من رمل
جائزة أغاخان ٢٠٠٤



إسماعيل سراج الدين

■ طالعتنا جائزة أغاخان للعمارة بباقة جديدة من الإنجازات المعمارية التى تستحق التقريظ وتصدرت القائمة مكتبة الإسكندرية ولنا عن هذا الإنجاز تعليق يطول فيما بعد كما زامل المكتبة فى الإنجازات المبهرة أبراج بتروناس فى ماليزيا، التى صارت رمزًا للبلد ودفعته نحو التقدم والرقى، واحتضانه للعلم الحديث والتكنولوجيا.

ولكن، إذا اكتفت الجائزة بهذين الخيارين لمشروعات عملاقة، لجاءت رسالتها مبتورة، تخاطب شريحة من المجتمع تاركة السواد الأعظم من المسلمين دون مناقشة لمشاكلهم وبلا تقدير للجهود الفعالة التى يقوم بها الكثير فى نطاق تفاعلهم اليومى مع حقائق حماية التراث فى ظل التنمية واحتياجاتها، أو حاجات مجتمعات معينة للصراع مع السلطة لتأييد الهوية، فى ظل مجابهة التشريد.

وكذلك وجب التذكرة بأن الحس المعمارى والجمالى ليس مرهونًا لضخامة المشروع أو توافر ميزانية كبيرة لتحقيق العمل ولذلك يمكن تصنيف المشروعات الفائزة السبعة من ناحية:

The Agkhan Award for Architecture
جائزة أغاجان للعمارة ٢٠٠٤.

أولاً: الرؤية المستقبلية

من الإسكندرية إلى كوالالمبور:

جاءت الرؤية المستقبلية فى التعبير المعمارى بما فى ذلك ما تم تبنيه من التقانات الحديثة، بل وإبداعات جديدة فى تطويع تقنيات التشييد والبناء فى نهاية القرن العشرين ومطلع القرن الـ ٢١ جاءت واضحة جلية فى مشروعى مكتبة الإسكندرية وأبراج بتروناس، كما أن المشروعين يمثلان الإدارة الوطنية، المصرية والماليزية، للتأكيد على التواصل مع الجديد، ورمزًا لطموحات مستقبلية سواء على المستوى الثقافى (المكتبة) أو على المستوى الاقتصادى (الأبراج). ولكن لكل من المشروعين خصوصياته التى تقتضى مناقشة منفردة.

المشروع الأول: مكتبة الإسكندرية

حصل المبنى على الجائزة لأنه يظهر طريقة مبتكرة لتصميم ووضع شكل ضخم ورمزى فى أحد أهم الواجهات البحرية فى العالم. بدءاً بفكرته، مروراً بالمسابقة الدولية لتصميمه، وحتى تصميمه وإنشائه بواسطة عدة شركات عالمية، وكذلك فى إدارته الحالية. يقدم المشروع نموذجًا تتوحد به جهود المجتمع الدولى ويتم فيه تشجيع التعاون والالتزام من المجتمع بأكمله.

المبنى مبتكر على نحو ملحوظ من الناحيتين المعمارية والإنشائية، وهو يستجيب بحساسية لطيف واسع من القضايا بما فى ذلك السياسة والدين والثقافة والتاريخ. تم استخدام تقنيات متقدمة لاحتواء التحديات التقنية فى إنشاء مشروع كبير الحجم كهذا بالقرب من حافة الماء وضمن محيط حضرى والتعامل معها. فإن الشكل يوفر نظاماً واضحاً ويخدم بشكل جيد التنوع الغنى فى البرامج التى يشتمل عليها، كما أنه يقوم بدور محفز للتحسينات فى المدينة كلها.

إن مكتبة الإسكندرية مكان يدعو لقيم التسامح، ويحتفى بالشمولية بكل جهودها اللا متناهية لدعم التعلم والحوار بين الشعوب والثقافات.

معظم مستخدمى المكتبة هم من طلاب جامعة الإسكندرية والمدارس المحلية. وقد انعقد فى المجمع عدة مؤتمرات تلقت اهتمامًا إقليميًا وعالميًا، مما يرفع من

> بيوت أكياس الرمل (إيران)

> أبراج بتروناس (كوالامبور - ماليزيا)





أهمية المدينة بأكملها. وقد لعبت المكتبة دور المحفز لتحسينات في المدينة بأكملها، مثل تجديد الطرق وبناء الجسور وتطوير الفنادق. وتعد المكتبة معلماً تقدمياً للبلد بأكمله يعيد مصر على الخريطة كمركز مفتوح وحديث للتبادل الثقافي.

صممت المكتبة على شكل قرص مائل يرتفع من الأرض ويضم أربعة مستويات تحت سطح الأرض وسبعة مستويات فوق سطح الأرض. ويضم المجمع الثقافي للمكتبة قاعة قراءة رئيسية، تحتوي على ألفي مقعد للقراء، وست مكتبات متخصصة، وثلاثة متاحف، وسبعة مراكز بحثية، وثلاثة معارض دائمة، وقاعات للمعارض الفنية، وقبة سماوية، وقاعة للاستكشافات، ومركز كبير للمؤتمرات وساحة للحضارات، ومكاتب إدارية، وكافيتيريا، بالإضافة إلى جميع الخدمات اللازمة في مثل هذا المجمع. كما أن المكتبة تستقبل حوالي ٨٠٠,٠٠٠ زائر سنوياً. وللشكل الدائري للمكتبة أهمية رمزية كما أن الحوائط الخارجية للمكتبة مكسوة بأربعة آلاف كتلة من الجرانيت نقشت عليها حروف أبجدية من لغات عديدة.

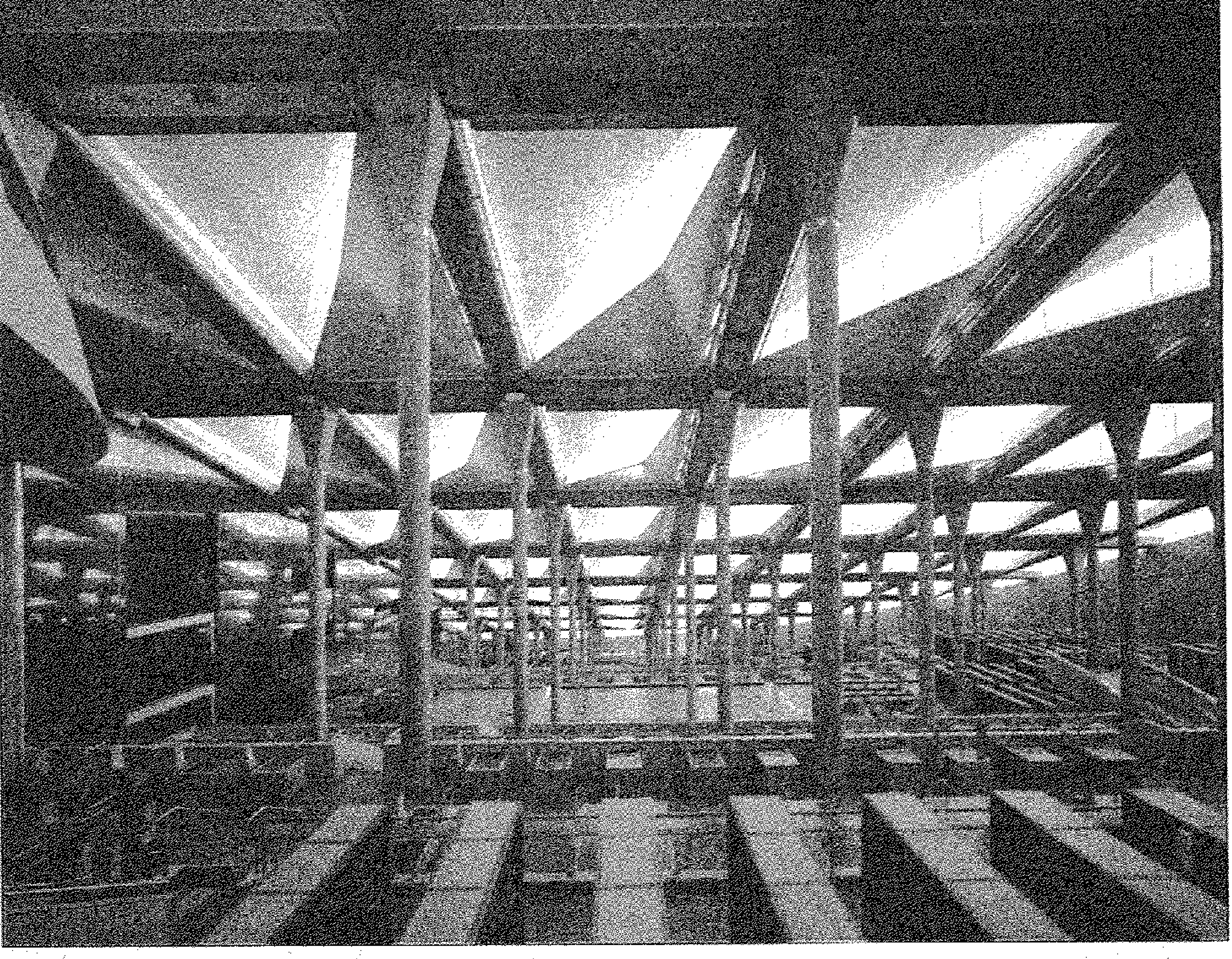
قاعة القراءة الرئيسية عبارة عن حيز واحد مفتوح يتكون من ثمانية مستويات كل منها يحتوي على قسم خاص بموضوع معين، بدءاً بأصول المعرفة (الفلسفة والتاريخ والدين والجغرافيا) وانتهاءً بأحدث التقنيات.

إن أساس المكتبة هو أكثر أجزاء المشروع ابتكاراً. فالانغمار الجزئي للمبنى لعمق ثمانية عشر متراً تحت سطح الأرض في موقع بالقرب من البحر يثير مشاكل إنشائية جدية. ويعد الجدار الدائري الحاجز للمكتبة الأضخم من نوعه في العالم، حيث يبلغ قطره مائة وستين متراً وارتفاعه خمسة وثلاثين متراً. وقواعد المبنى فريدة في كونها مصممة على شكل خوازيق شد مع قاعدة فرشة (لبشة) ثقيلة في الجانب الجنوبي وخوازيق ضغط كي تأخذ الوزن في الجانب الشمالي.

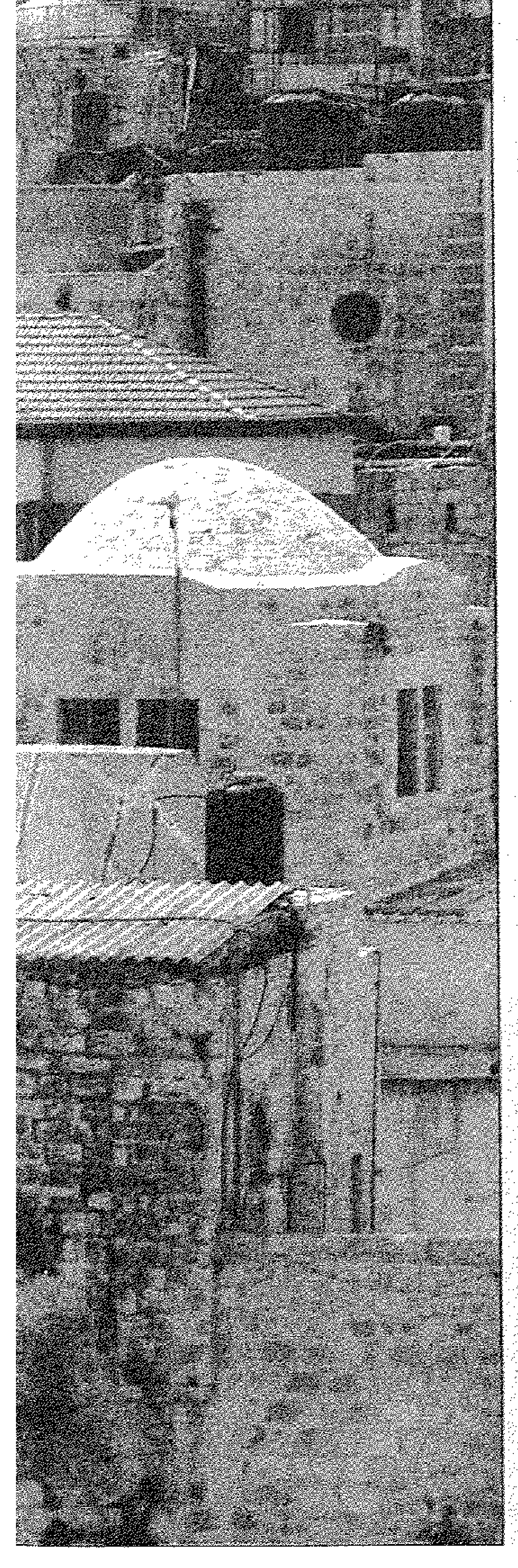
أحد أكثر مقومات المبنى نجاحاً هو استخدامه للضوء الطبيعي الذي يستمد من خلال الألواح الزجاجية على السطح. وقد تمت دراسة توجيه سطح المبنى بعناية باستخدام الكمبيوتر، خلال مرحلة التصميم بحيث يسمح بدخول أعلى مستويات الإضاءة الطبيعية بدون نفاذ ضوء الشمس المباشر إلى الداخل.

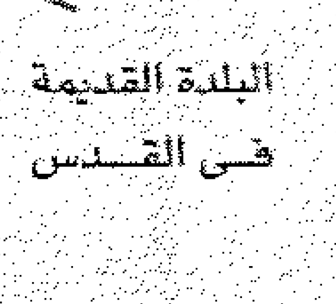
ويتصل مبنيا المكتبة والقبة السماوية على مستوى تحت سطح الأرض، تحت الساحة العامة، بمركز مؤتمرات قائم، بينما يمتد جسر مشاة فوق الساحة بين الجامعة والطريق الساحلي.

إن مكتبة الإسكندرية إحياء للمكتبة الأسطورية القديمة التي شيدت في العصر الإغريقي الكلاسيكي. لقد أرجعت إعادة بناء مكتبة الإسكندرية إلى منزلتها الرفيعة السالفة كمركز للتعليم والتبادل:

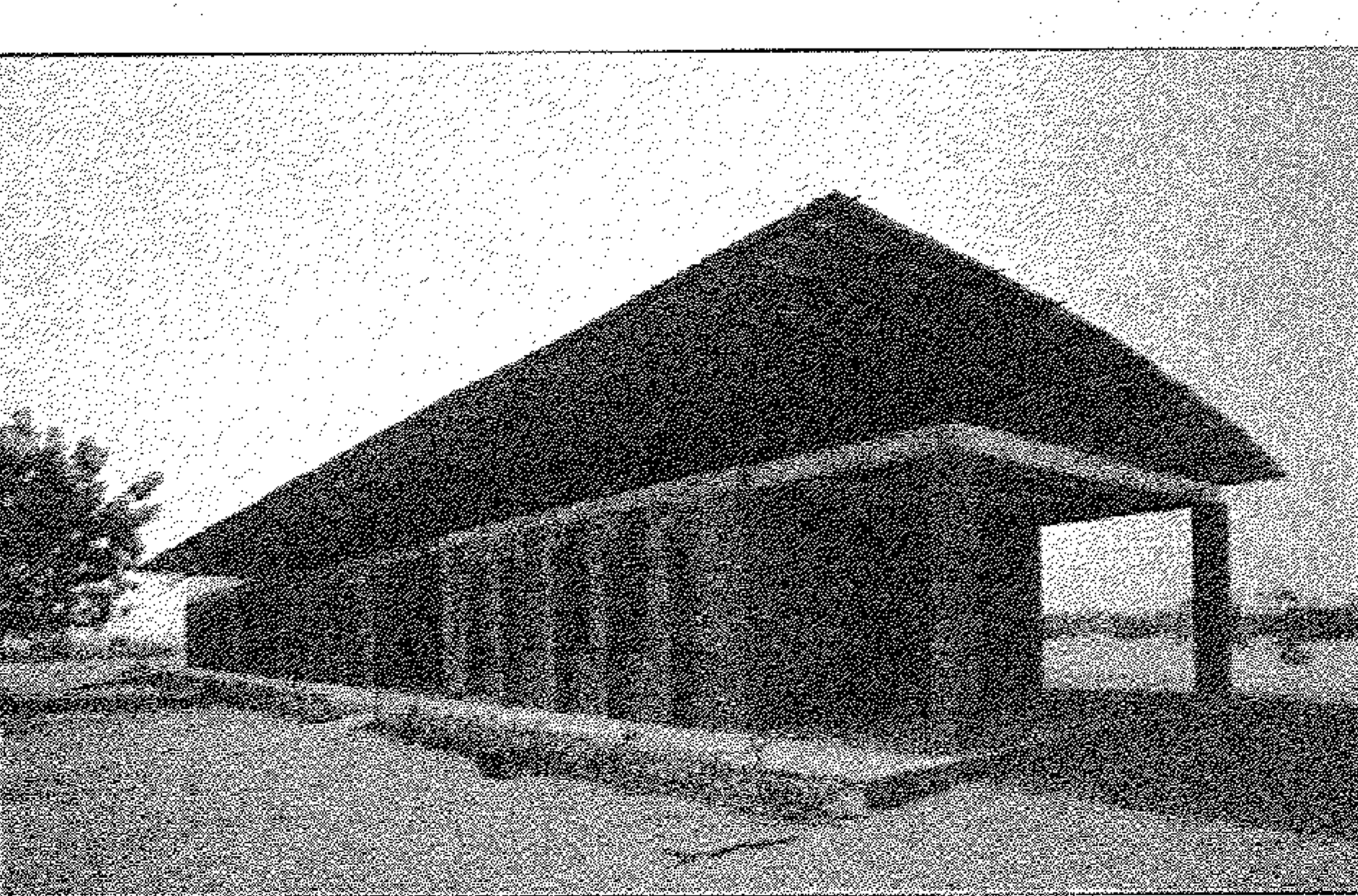


مكتبة الإسكندرية (مصر)





البلدة القديمة في القدس



مدرسة ابتدائية (بوركينا فاسو)



كما منحت المدينة مبنى يشكل معلماً. إن روح التعاون العالمى الذى تم من خلاله تصور وتمويل وتصميم وتنفيذ المكتبة قد احتفظ به فى إدارة المكتبة لإنشاء مؤسسة تكون حقاً عالمية فى مظهرها. وفى نفس الوقت، فإن المبنى بحد ذاته متميز تقنياً. كما أن روعة التصميم المعمارى للمكتبة إنما تذكرنا بأن المعمار يحمل أكثر من كونه شكلاً أو مجرد مضمون، بل قد يمتد إلى أكثر من ذلك من خلال نشر فكرة بعينها. إن المبنى، من خلال هذا التصميم الرائع، ينادى بتحرير العقول ويساعد على الابتكار والوصول إلى كل ما فيه خير الإنسانية ويعزز قيم الحوار والانفتاح على الآخر.

المشروع الثانى: أبراج بتروناس

حصل هذا المشروع على الجائزة لأنه يمثل اتجاهاً جديداً فى تصميم ناطحات السحاب، متضمناً تقنيات متقدمة بينما يرمز إلى الطموحات المحلية والوطنية. يجسد المشروع العديد من الابتكارات التى تتراوح مع استخدام الخرسانة عالية القوة غير المألوفة لتسهيل تكوين نظام إنشائى «أنبوبى لين»، إلى توظيف فكرة نقل رأسى مبتكرة ودمج أحدث أنظمة الحفاظ على الطاقة. إن نجاح هذا المشروع يكمن فى الطريقة التى يجمع بها هذه الإبداعات التقنية بينما يولد شكلاً رشيقاً يستجيب بشاعرية لمحيطه الأكثر اتساعاً. لقد أصبح هذا البناء أيقونة تعبر عن تطور المجتمع الماليزى المعاصر وتعتمد على التقاليد الغنية للبلد لتشكيل مدينة عالمية.

يمثل برجا بتروناس حالياً القطع المركزية فى مجمع مركز مدينة كوالالمبور ذى الاستعمال المختلط، الذى يقع فى قلب المنطقة التجارية فى المدينة. بارتفاعهما ٤٥٢ متراً، أقر البرجان فى عام ١٩٩٦ كأطول مبنيين فى العالم من قبل مجلس المبانى العالية والموطن الحضرى.

المشروع فى المقدمة تكنولوجيا، وهو ذو شكل مشتق من نموذج شكلى إسلامى، واستخدمت فيه المواد المحلية بشكل واسع. وقد أصبح البرجان مثالاً رائجاً للعمارة المعاصرة فى ماليزيا، وشكلهما الأنيق يجعلهما أهم معلم حضرى فى البلد.

يعد برجا بتروناس، أطول برجين فى العالم، حيث يبلغ ارتفاع كل برج ٨٨ طابقاً، ٤٥٢ متراً فوق سطح البحر. كما تبلغ مساحة البناء المستغلة فى هذا المشروع ٣٤١.٧٦٠ ألف متر مربع. وعلى ارتفاع ١٧٠ متراً يربط جسر معلق طوله ٥٨.٤ متر بين البرجين عند الطابقين ٤١.٤٢. والجسر مدعم بذراعين مائلين عند طرفى الجسر ومثبتين فى البرجين ويبلغ طول الذراع الواحد ٤٢.٦ متر ويزن كل منهما ٦٠ طناً. كذلك فالبرجان متصلان عند القاعدة ليشكلا مجمعاً تجارياً وترفيهياً من ستة طوابق مع



فناء مركزى. يمتد من الفناء «شارعان» على طول محورين متقابلين صف على جانبيهما أكثر من ٣٠٠ محل تجارى، ومقهى، ومطعم. إضافة لذلك، يضم المجمع قاعة حفلات موسيقية تتسع لـ ٨٨٠ شخصاً، ومعرضاً للفنون، ومكتبة متخصصة، ومركز استكشاف علمى تفاعلى، وكذلك موقف سيارات تحت سطح الأرض يتسع لـ ٥٤٠٠ سيارة.

إضافة إلى ما سبق فقد تمت كسوة البرجين بطبقة من الفولاذ المقاوم للصدأ بلغت مساحته ٦٥ ألف متر مربع من ألواح الفولاذ. كما تم استخدام ما مساحته ٧٧ ألف متر مربع من الزجاج. أما فيما يتعلق بالبناء فقد استخدم ما حجمه ١٦٠ ألف متر مكعب من الإسمنت المسلح، بالإضافة إلى ١٣.٢٠٠ ألف متر مكعب من الإسمنت المسلح استخدمت كأساسات أسفل كل برج من البرجين وهو ما يعادل وزنه ٣٢.٥٥٠ ألف طن.

الإنشاء الذى يرتكز عليه كل من البرجين يتكون من حلقة من ستة عشر عموداً أسطوانياً من الخرسانة المسلحة عالية القوة، موضوعة فى الزوايا الداخلية للمسقط الأفقى نجمى الشكل لتشكل «أنبوباً ليناً». والأعمدة مرتبطة مع بعضها البعض بواسطة جسور حلقية مقوسة صنعت أيضاً من الخرسانة الإنشائية. أقطار الأعمدة تبلغ حوالى ٢.٤ متر عند قاعدة المبنى، ولكنها تستدق أثناء صعودها خلال طوابق المبنى، كما أنها تميل نحو مركز البرجين. وفى وسط كل برج قلب مربع يحتوى على مصاعد وممرات رأسية للخدمات الميكانيكية وخدمات أخرى، ويمتد من هذا القلب جسور نحو أعمدة المحيط. يحتل القلب ٢٣٪ من المسقط الأفقى - نسبة منخفضة بالمقارنة مع ناطحات سحاب أخرى. يتكون نظام الأساسات لهذين البرجين من قاعدة فرشة (لبشة) بسماكة ٤.٥ متر ترتكز على خوازيق احتكاك مستطيلة يتراوح عمقها من ٤٠ متراً إلى ١٠٥ أمتار. يحتوى كل برج على عدد ٢٩ مصعداً سريعاً يسير بسرعة تتراوح بين ٣.٥ إلى ٧ أمتار فى الثانية. بالإضافة إلى ذلك يوجد فى المجمع ١٠ سلالم كهربائية تعمل على تسهيل حركة الانتقال داخل أروقة البرجين.

ثانياً: الحفاظ على الهوية

جاء خيار ترميم مسجد العباس باليمن تأكيداً لأهمية حماية التراث فى ظل تحديات التنمية الاقتصادية، وعجلة التحديث التى لا تتوقف. أما مشروع إعادة إعمار مدينة القدس، فهو صادق للإرادة الفلسطينية المتمسكة بالتأكيد على الهوية فى مواجهة السلطات الإسرائيلية، التى حاولت وتحاول تغيير طابع مدينة القدس، معمارياً واجتماعياً. وبالرغم من الإمكانات الضخمة المجندة ضدهم، تمكنت الجمعيات الأهلية والمجتمع المدنى الفلسطينى، أن تسهم فى تنمية المجتمع الفلسطينى فى القدس، اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، فجاءت التجربة ناجحة نجاحاً فائقاً متمكنة كل التمكن من آليات العمارة والتنمية. لزيادة حيوية المجتمع الفلسطينى بالقدس، فبرزت الهوية وتأكدت مواكبة للحلول الاقتصادية والاجتماعية والمعمارية لمشاكل هذا المجتمع. ولنفرد كلمة عن كل من هذين المشروعين.

المشروع الثالث: برنامج إعمار البلدة القديمة فى القدس

نال البرنامج جائزة لطريقته الشاملة نحو دعم حياة المجتمع فى محيطه الطبيعى - حياة مهددة بتدهور أوضاعها الفيزيائية والاجتماعية والاقتصادية. ويكمن نجاح المشروع فى تناوله عدة قضايا بما فى ذلك ترميم وإعادة تأهيل الإسكان، وأيضاً فى إعادة استخدام المبانى والصروح التاريخية لأغراض جديدة. والمشروع مميز لما يوفره من تدريب فى الحفاظ المعمارى لكل من المعماريين والمهندسين والمقاولين والحرفيين، وكذلك لتأسيسه لمركز معلومات وقاعدة بيانات للمدينة القديمة بما تشمله من توثيق ومسوحات وبحث ودراسات. وأخيراً، أنشأ المشروع برنامجاً للتواصل مع المجتمع بنشر الوعى بين العامة حول قيمة المبانى التاريخية ويشجع مشاركتهم فى عملية إعادة التأهيل والترميم.

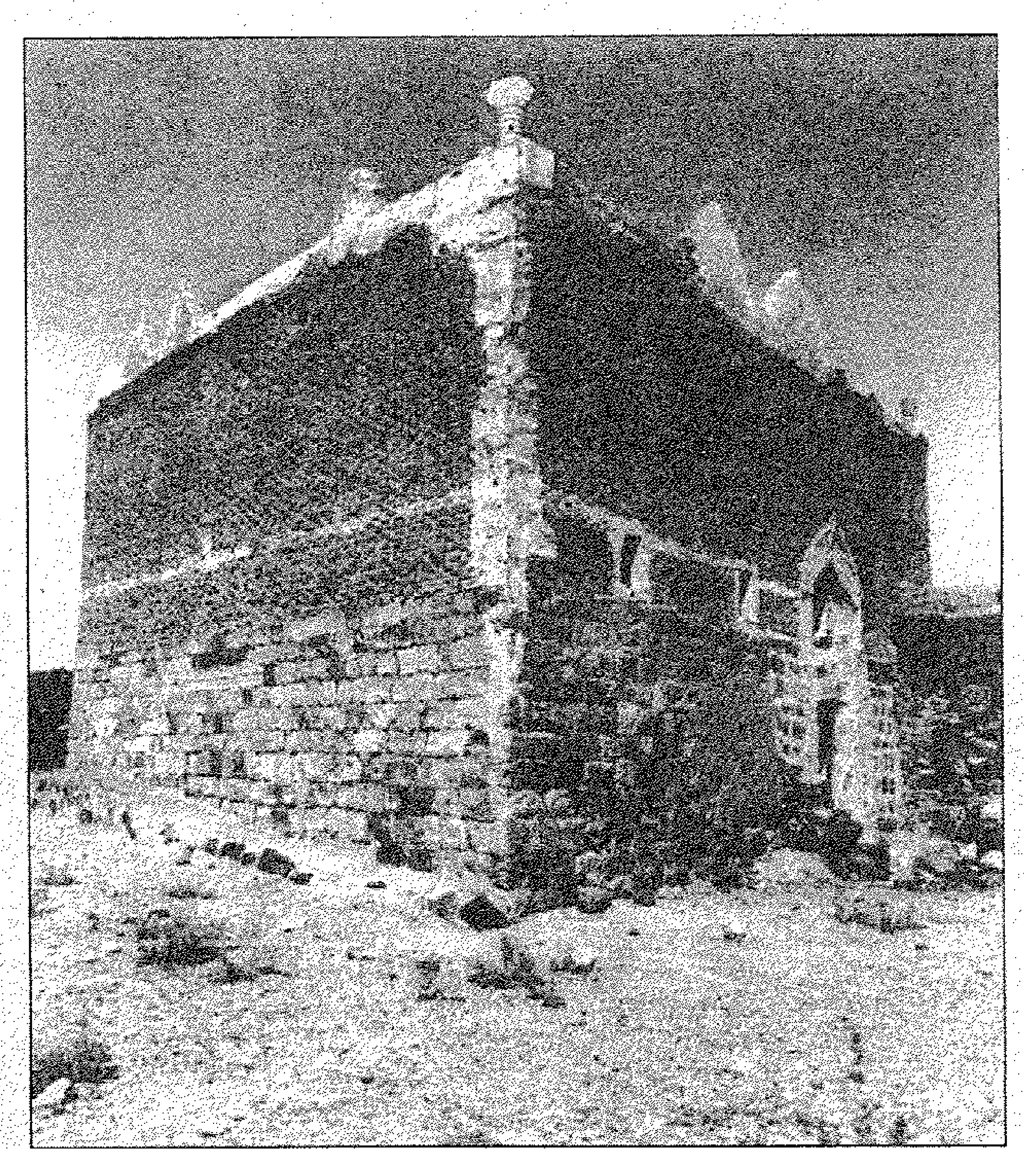
للقدس تاريخ استثنائى، طويل ومتنوع، ولكن النسيج الحضرى الخاص بالمدينة القديمة مهدد بسبب الازدحام المتزايد والخدمات الرديئة وغياب الصيانة. ويهدف برنامج إعمار البلدة القديمة فى القدس إلى إعادة تأهيل البلدة والحفاظ على تراثها وخلق نوعية حياة أفضل لساكنيها.

تأسست مؤسسة التعاون، وهى مؤسسة غير حكومية مقرها جنيف فى عام ١٩٨٣ كى تتناول هذه القضايا ولكى تدعم الشعب الفلسطينى فى جميع مجالات التنمية، وتأسس مكتبها الفنى فى القدس عام ١٩٩٥. يضم هذا المكتب مختصين فى حقول مختلفة مثل العمارة والهندسة والتخطيط والاقتصاد والتاريخ. والهدف الأساسى للمكتب هو تطبيق برنامج شامل لإعادة تأهيل البلدة القديمة يحتوى على عدد من المكونات المتنامية: خطة إعمار؛ وترميم طارئ؛ وترميم كلى؛ وتدريب فى مجال الحفاظ المعمارى؛ وبرنامج للتواصل مع المجتمع؛ ومركز معلومات.

تشكل خطة إعمار البلدة القديمة أساس العمل فى البرنامج، لقد تم القياس بمسح واسع للتعرف على المبانى ذات الوضع الأكثر خطورة ووضع اقتراحات لإعادة تأهيلها. الهدف ليس الترميم العاجل لحى ما، بل تدخلات فى كل مكان فى المدينة القديمة. العديد من المشاريع عبارة عن مساكن - إما مبان مفردة تتكون من طابقين أو ثلاثة طوابق تسكنها عائلة أو اثنتان، أو مجمعات سكنية تقليدية (حوش) تتكون من عدة وحدات تحيط بفناء ويسكنها ما قد يصل إلى عشر عائلات. كذلك، يركز البرنامج على مبان عامة أو دينية رئيسية - مساجد وكنائس ومدارس ونزل - بعضها مازال يحتفظ بوظيفته الأصلية والبعض الآخر تم تكييفه ليخدم أغراضاً جديدة.

لقد عانى النسيج الحضرى للمدينة من الإهمال والاستخدام غير الملائم والخدمات غير الكافية، وهناك أناس كثيرون يعيشون فى مبان متهدمة فى ظروف غير صحية. يتم اختيار المبانى إما للترميم الطارئ أو الترميم الكلى. والترميم الطارئ، فى العادة، عبارة عن تدخل سريع ومحدود لحل مشكلات تتسبب فى مخاطر حالية صحية أو متعلقة بالسلامة وتتطلب تدخلاً عاجلاً، كما فى حال عدم استقرار الإنشاء أو تسرب المياه. وتتنوع مدة المشاريع من حوالى ثلاثة شهور لمنزل صغير إلى عدة أعوام للمشاريع غير السكنية. ويتم تنفيذ العمل فى المبانى ذات القيمة المعمارية والتاريخية ببطء وحساسية، وتتخذ بشأنها القرارات بعناية فائقة.

تعد دار الأيتام مثالاً على المشاريع غير السكنية ذات القيمة المعمارية التاريخية، وهى عبارة عن مجمع يحوى خمسة مبان



مسجد العباس باليمن
قبل وبعد الترميم



صرحية من الفترتين المملوكية والعثمانية، ومن ضمنها مطبخ للحساء ومخبز أنشأتهما زوجة السلطان سليمان. ويتم حالياً تطوير هذا المجمع التاريخي على مراحل ليصبح مؤسسة تعليمية.

تتمم الجوانب الأخرى من البرنامج أعمال الترميم كي تضمن استدامة التحسينات. إذ يتم توفير التدريب للمعماريين والمهندسين والمقاولين والحرفيين من خلال دورات قصيرة ومنح تدريب ومنح جامعية في الخارج. وهناك برنامج للتواصل مع المجتمع ينشر الوعي بين العامة ويشجعهم على المشاركة في عملية إعادة التأهيل، كما يصدر البرنامج منشورات وينظم لقاءات وورش عمل ومحاضرات للمدارس والمؤسسات الدينية وسكان المباني ومستخدميها. وهناك مكونات أخرى مقترحة للبرنامج: مركز معلومات، وبنك بيانات خاص بمؤسسات الحفاظ المعماري وبالمختصين في هذا المجال، ومعهد القدس للحفاظ على التراث المعماري في فلسطين.

مع نهاية عام ٢٠٠٣، تم من خلال البرنامج ترميم اثنين وثمانين مشروعاً سكنياً وستة وعشرين مبنى عاماً وخمسة وخمسين مبنى تجارياً، مما يوفر للسكان أوضاعاً معيشية مقبولة ويخلق حيزات جديدة للمجتمع ويضمن المحافظة على النسيج التاريخي الغني للمدينة القديمة.

البرنامج عبارة عن مشروع شامل يقصد جميع جوانب الحياة البشرية، وله عدة مكونات تضم الترميم والتدريب والتعليم وتنمية الوعي العام. وترتبط جميع هذه المكونات معاً لتحقيق إعادة إحياء متكاملة ودائمة. تشمل مجموعة الأعمال التي تم إنجازها حتى اليوم ما يفوق مائة وستين مشروعاً، جميعها تم تنفيذها بتعاون وثيق مع مؤسسات محلية ومنظمات دولية ووكالات تمويل.

المشروع الرابع:

ترميم مسجد العباس باليمن

اختير هذا المشروع لينال جائزة لأنه يطبق مقاييس معمارية نموذجية للحفاظ المعماري ويشرك الكبرياء المحلي في حماية هذا الصرح الثقافي المهم للأجيال القادمة. يمثل المشروع تأسيس شراكة ناجحة ومستدامة بين خبرات محلية وخارجية في مجال عملية الحفاظ على الآثار. وبالرغم من أن الترميم امتد قرابة عشرة أعوام خلال ظروف سياسية استثنائية، فإن الثبات على المبدأ والتكريس والالتزام من قبل المشاركين المحليين والخارجيين أمّن أن نسيج المبنى لم يخضع للمساومة بأي حال من الأحوال. في الواقع، عملية الترميم هذه رفعت المقاييس المعمارية للترميم في المنطقة، محيية ممارسات تقليدية بالتوازي مع الطرق الحديثة العلمية للحفاظ على الآثار. وهذه تتراوح من استخدام مونة البناء التقليدية والقصارة (البلاستر) إلى إصلاحات إنشائية معقدة وحفاظ على لوحات السقف التزيينية رفيعة الذوق.

يرجع تاريخه إلى آخر أيام السلالة الصليحية. وهناك نقش في داخل المسجد يؤرخ المبنى بتاريخ ذي الحجة ٥١٩ (ديسمبر ١١٢٥ - يناير ١١٢٦ بالتقويم الغريغوري)، ويسمي النقش مؤسس المسجد السلطان موسى بن محمد الفطي. ويسمي نقش آخر الباني أو المعمار محمد بن أبو الفتح ابن أرحب. ولكن المسجد في حقيقة الأمر يُنسب إلى شخص معروف قليلاً اسمه «عباس»، وهو رجل صالح يعتقد أنه دفن هناك. ويعد هذا المسجد شاهداً على التقاليد الحية والإنجازات المعمارية لواحدة من أقدم حضارات العالم.

بحلول الثمانينيات من القرن العشرين، كان السقف يعاني من التعفن والاعوجاج. وفي عام ١٩٨٥، طلبت الحكومة اليمنية من المركز الفرنسي للدراسات اليمنية في صنعاء المساعدة في الحفاظ على سقف المسجد. وقد تم تفكيك السقف بدعم مالي من اليونسكو ونقل إلى المتحف الوطني في صنعاء. وفي عام ١٩٨٧، طلب المركز الفرنسي من أخصائية الآثار والحفاظ على الآثار ماريلين باريه أن تقوم بترميم السقف، وهو ما استغرق ثلاثة أعوام. كانت عملية التنظيف والترميم بطيئة واحتاجت إلى جهد كبير في العناية بالتفاصيل، وقد تم احترام أهمية الحفاظ على تاريخ السقف. كذلك كان السطح بحاجة إلى إصلاحات رئيسية، وقد اتخذ قرار بترميم نسيج المبنى نفسه. نفذت هذا العمل ماريلين باريه مع المعمار اليمني عبد الله الحضرمي ومعهما فريق من الآثاريين اليمنيين والفرنسيين ومجموعة من أفضل الحرفيين المحليين. وتم مشروع الترميم هذا في عام ١٩٩٦.

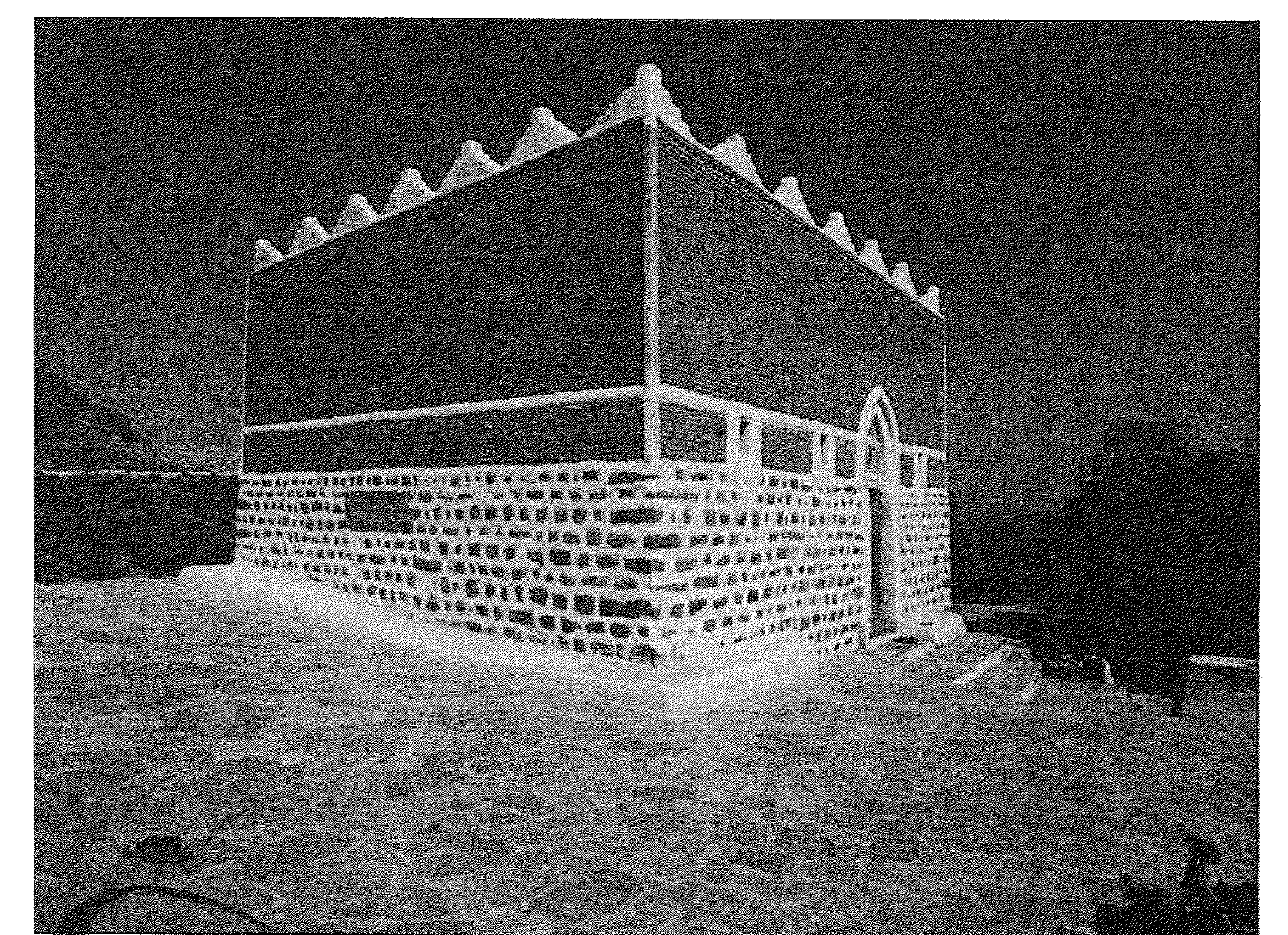
يقع مسجد العباس في المرتفعات اليمنية، على بعد أربعين كيلو متراً وقد بني المسجد منذ أكثر من ثمانمائة عام على بقايا ضريح أو معبد يعود إلى ما قبل الفترة الإسلامية في موقع يعتبر مقدساً منذ قديم الأزل. كذلك فإن شكله المكعب له أسبقيات قديمة بما في ذلك الكعبة في مكة. والسكان المحليون مستمرون في تبجيل المسجد، والموقع اليوم مازال يحتفظ بأهمية خاصة لديهم.

بنيت الأجزاء السفلية من حوائط المسجد من الحجر، واستخدم الطوب الطيني في الأجزاء العليا منها. المسجد مربع في مسقطه الأفقي وذو سطح مستوٍ، مما يجعله مكعب الشكل. ويوجد في داخل المسجد ستة أعمدة، أربعة منها صنعت من الحجر ويعود تاريخها إلى ما قبل الفترة الإسلامية واثنان صنعا من الطوب. ثلاثة من الأعمدة لها تيجان أثرية. وتميز الأعمدة داخل المسجد إلى أربعة صفوف تقود نحو حائط المحراب. يناقض سقف المسجد المفصل، الذي يتكون من وحدات غائرة متكررة ومنتظمة، تماماً خارج المبنى البسيط. وقد بقي معظم هذا السقف بدون أي تغيير منذ إنشائه. وحدات السقف الاثنتان والعشرون صنعت من الخشب المغطى بزينات معقدة منحوتة ومذهبة ومطلية بدهان التمبرا (نوع من الدهان يتكون بخلط صبغات من الماء وصفار البيض المخفف بالماء، حيث يعمل صفار البيض عمل رابط للصبغات ومثبت للدهان على الأسطح).

وأينما أمكن، استخدمت المواد والتقنيات التقليدية، التي مازال الكثير منها يستخدم اليوم، في الترميم، مثل القداد، وهو مونة بناء تقليدية تتكون من الجير والركام البركاني وتصقل بواسطة حجر ناعم مكسو بالدهن الحيواني. لم يتم إدخال أية عناصر تخمينية: جميع العناصر الجديدة يمكن تعقبها إلى أمثلة أصلية سواء في شكلها أو في موقعها.

بعد الانتهاء من السطح، ركبت بعناية في المتحف ألف قطعة منفصلة ومرقمة خاصة بالسقف. كما تجمع قطع الألغاز. بعد ذلك، تم نقل القطع المجمعة، صف واحد في كل مرة، إلى المسجد. وثبتت على إنشاء داعم جديد وبارع مكون من جسور صندوقية على شكل حرف U هي الآن مخفية بالكامل بواسطة ألواح السقف التي أعيدت إلى موضعها بعد أن تم ترميمها.

منذ أن تم الترميم، عادت أناقة المبنى الأصلية وزينته





للحياة، مما زاد من اهتمام السكان المحليين الفخوريين بمسجدهم، وهم بصورة خاصة سعداء برؤية السقف الجميل يعود إلى موضعه. ويمكن لمبادئ الترميم التى وظفت فى مسجد العباس أن تخدم فى توجيه مشاريع لاحقة معنية بالحفاظ على الممتلكات الثقافية. كذلك فإن المشروع قد يحفز مزيداً من البحث، وخاصة بما يتعلق بعدد من الآثار المحيطة بموقع المسجد.

ثالثاً: الفقراء والمهمشون:

اهتمت جائزة الأغاخان للعمارة على عبر السنين بتقدير جهود المعماريين الذين يعملون لحل مشاكل الفقراء والمهمشين، فرأينا الجوائز مشروعات الكمبونج بإندونيسيا (منذ حوالى ١٩٨٠) وإسكان الفقراء فى الريف (مساكن بنك جرامين ١٩٨٩) وكذلك مساكن الفقراء فى المدن ولكن لم يتم حتى الآن تكريم جهود من يعمل من أجل اللاجئين والمشردين. ومن هناك جاءت الأهمية الكبرى لتكريم مشروع أكياس الرمل، ذلك المشروع الفريد فى أهدافه ومنجزاته.

المشروع الخامس: بيوت أكياس الرمل

نجح المهندس الإيرانى الأصل نادر خليلى، بعد أن كرس حياته لحل مشاكل اللاجئين والمهمشين، وبعد أن أسس فى كاليفورنيا مركزاً خاصاً لدراسة الحلول المعمارية لهذه المشاكل، تمكن من طرح مشروع مبدع، رائع فى بساطته، ومنجزاته. فبدأ بأكياس الرمل والأسلاك الشائكة، وهى معدات الحروب ومقومات المعسكرات ومجمعات اللاجئين، تمكن نادر خليل أن يبنى مساكن برص صف على صف من الأكياس الرملية، مع وضع أسلاك شائكة بين كل صف حتى يرتبط العلوى بالسفلى، وتقوم الأسلاك بدور «المونة» فى البناء التقليدى. ويكتمل البناء بقبة أو قبو، ويمكن تنويع المبنى بإضافة حجرة دائرية إلى حجرة أخرى وإقامة تكوينات متناغمة، متناهية فى إمكانية التنوع Variation التى يمكن تنفيذها. كما أن هذه الحجرات قد أثبتت: تحت التقييم العلمى الدقيق، كفاءة حرارية عالية، وقدرة إنشائية عالية.

وفى حالات معينة، يمكن أن تضاف طبقة من الطين والحصى على الحوائط المكونة من هذه الأكياس الرملية، بروابطها من الأسلاك الشائكة إذا أريد تحويل «المأوى» إلى «مسكن».

بعد بحث شامل فى الطرق المحلية للبناء بالتراب فى إيران، تم تطوير نماذج أولية تفصيلية، تم تطوير نظام أكياس الرمل أو «اللبن الممتاز». تتضمن تقنية الإنشاء الأساسية فى هذا النظام ملء أكياس رمل بالتراب ورصها بشكل مداميك فى مسقط أفقى دائرى. وتبرز المداميك الدائرية العلوية عن بعضها البعض لتشكل قبة. وتمد أسلاك شائكة بين المداميك لمنع أكياس الرمل من الحركة ولتوفير مقاومة للزلازل. وهكذا، فإن المواد المستخدمة فى الحروب - أكياس الرمل والأسلاك الشائكة - استخدمت لغايات سلمية دامجة عمارة التراب التقليدية بالمتطلبات المعاصرة للسلامة العالمية.

يوظف النظام الأشكال الخالدة من أقواس وقباب وأقبية لصنع إنشاءات هيكلية أحادية وثنائية الانحناءات تكون قوية ومرضية من الناحية الجمالية. وفى حين أن هذه الأشكال الحاملة للثقل أو التى تتحمل الضغط تشير إلى عمارة الطوب الطينى القديمة الخاصة بالشرق الأوسط، فإن استخدام الأسلاك الشائكة بصفتها عنصر شد يلمح إلى منشآت الشد القابلة للنقل والخاصة بالثقافات البدوية. النتيجة هى إنشاء آمن جداً. فإضافة الأسلاك الشائكة لإنشاءات الضغط تولد مقاومة للزلازل؛ والشكل الانسيابى يقاوم الأعاصير؛ واستخدام أكياس الرمل يساعد على مقاومة الفيضانات؛ والتراب بحد ذاته يوفر عزلاً ومقاومة للحريق.

إن النظام ملائم بشكل خاص لتوفير ملاجئ مؤقتة، وذلك لأنه رخيص الثمن ويسمح بإنشاء المبانى بسرعة بشكل يدوى من قبل شاغلى المبنى أنفسهم وبتدريب قليل. وتركز الملاجئ على دعم الناس اقتصادياً من خلال مشاركتهم فى صنع بيوتهم الخاصة ومجتمعاتهم.

يشتمل كل ملجأ على حيز رئيسى مقبب ملحق به حيزات للطبخ والخدمات الصحية. ويمكن أيضاً صنع إضافات تزايدية مثل الأفران وحظائر الحيوانات لتوفير وضع أكثر استقراراً. كما يمكن استخدام التقنية لكل من المبانى والبنية التحتية مثل الطرق والحواف والحوائط الساندة وعناصر تنسيق الموقع.

ولما كانت الإنشاءات تستخدم موارد محلية - التراب المتوفر فى الموقع والأيدى البشرية - فهى مستدامة بشكل كامل. الرجال والنساء والكبار والصغار يمكن أن يبنوا، إذ أن أقصى حمل يحتاجون لرفعه هو وعاء مملوء بالتراب يقومون بتفريغه فى الأكياس. الأسلاك الشائكة وأكياس الرمل متوفرة محلياً، والمثبت أيضاً متاح فى العادة محلياً.

تصلح هذه الملاجئ كنماذج أولية للإسكان المؤقت تستخدم فيها وسائل رخيصة جداً لتوفير مساكن آمنة يمكن بناؤها بسرعة وتحقق قيم العزل العالية اللازمة فى المناخ الحار الجاف. وقد جاء شكلها المنحنى استجابة للظروف الزلزالية، كما استخدم فيها الرمل أو التربة الخام ببراعة، إذ أن مرونة هذا المواد تسمح ببناء هياكل ضغط أحادية أو ثنائية الانحناء يمكن أن تتحمل القوى الجانبية للزلازل.

رابعاً: الإنجاز المعمارى

على المقياس الصغير

يأتى المشروعان الباقيان من المشروعات الفائزة بجائزة الأغاخان للعمارة لعام ٢٠٠٤ للتذكرة بأهمية الممارسة المعمارية على نطاق المبنى الواحد الصغير: أولهما مدرسة ابتدائية فى جوندو، بوركينا فاسو، من أفقر الأماكن فى العالم، وثانيهما هو بيت استراحة (صينية/ بتركيا قام أخوان بإنشائها بقرية تبعد عن اسطنبول - أنقرة، وأقيم المبنى على ربوة مطلة على القرية ولكن على مسافة منها.

وقد كنت فكرت كثيراً فى فصل هذين المشروعين باعتبار أن مدرسة بوركينا فاسو مشروع ذو بعد اجتماعى واضح، وأنه مشروع يخدم الفقراء بصورة لا خلاف عليها ولكننى فى نهاية الأمر فضلت أن أضعه فى إطار «الإنجاز المعمارى على القياس الصغير» لأننى أعتبر أن الإنجاز المعمارى فى هذا المشروع أمر رائع يستحق وقفة تحليل وتمحيص.

المشروع السادس: مدرسة ابتدائية فيوندو، بوركينا فاسو

إذا نظرنا إلى الموقع فى قرية جوندو، وجدنا أنفسنا فى مكان الفقر المدقع، ولكن قرية بها روابط أسرية مهمة وشعور من التضامن الاجتماعى بين أفراد القرية. وشاءت الظروف أن ابن القرية المعمارى ديبيدو فرانسيس كيرى تمكن من التعليم، ودرس العمارة بألمانيا، ولكنه عاد إلى قريته ليفيدها بعلمه، فتمكن بعلمه أن ينظم بين البساطة والجمال، بين الكفاءة فأتى ببعض أطوال من حديد التسليح وقام بلحامها فى تكوينات هرمية رفعت السقف المظلل فوق المبنى ما يحمى الفصول من أشعة الشمس، ويظلل الردهة المفتوحة بين الفصول. قاموا بصناعة قوالب الطوب من الطين المحلى، وبدراهم بسيطة تمكن أن يعطى القرية مدرسة ابتدائية، جميلة، نفعية.

حصل المشروع على الجائزة لوضوح تركيبه المعمارى الأنيق الذى تم تحقيقه باستخدام الطرق والمواد الأكثر تواضعاً، ولقيمته التحولية. المدرسة التى تقع فى مستوطنة بعيدة فى بوركينا فاسو هى ثمرة لتصور تم فى البداية توضيحه من قبل المعمار ثم تبنيه من قبل المجتمع. بينما هو يدرس العمارة فى ألمانيا، عقد الشخص الأول من قريته الذى يصل إلى التعليم العالى العزم على تصميم وبناء المدرسة. بعد أن أمن من المؤيدين فى ألمانيا الأموال لمواد البناء، حشد الرجال والنساء والأطفال فى القرية لإنشاء المدرسة.

لقد كان جميع المشاركين فى إدارة المشروع من مواطنى القرية. والمهارات التى تم اكتسابها من هذا المشروع سيتم تطبيقها فى مبادرات أخرى فى القرية وفى أماكن أخرى. إن الطريقة التى نظم فيها المجتمع نفسه ضربت مثلاً يحتذى، إذ قامت قريتان مجاورتان بإنشاء مدارس خاصة بهما بمجهود تعاونى. وقد قدرت السلطات المحلية جدارة المشروع: لم تقم السلطات فقط بتزويد المدرسة بالمدرسين ودفع أجورهم، ولكنها أيضاً سعت إلى توظيف الشباب الذين تدربوا أثناء المشروع فى مشاريع حكومية للبلدة تستخدم نفس التقنيات.

حددت الاعتبارات المناخية بدرجة كبيرة شكل المبنى والمواد المستخدمة لبنائه. المبنى عبارة عن ثلاثة صفوف دراسية مرتبة بطريقة طولية ومفصولة عن بعضها البعض بمساحات خارجية يمكن استخدامها للتدريس أو اللعب.

يتكون الإنشاء من حوائط حاملة تقليدية مصنوعة من الطوب الترابى المضغوط والمستقر. وهناك جسور خرسانية تمتد عبر سقف المبنى، وقضبان فولاذية تقع فوق هذه الجسور يرتكز عليها السقف المصنوع أيضاً من الطوب الترابى المضغوط. وقد تم تأمين الراحة المناخية من خلال ترتيبات شملت السطح الناتئ الذى يظلل الواجهات؛ ورفع السطح المعدنى المتموج على جمالون فولاذى؛ مما يسمح للهواء المبرد أن ينساب بحرية بين السطح والسقف؛ واستخدام الطوب الترابى للحوائط حيث يقوم بامتصاص الحرارة ملطفاً درجة حرارة الغرف.

شكل السطح أملته اعتبارات عملية: لم يكن من الممكن نقل عناصر كبيرة إلى الموقع من مسافات بعيدة، ولم يكن من المجدى اقتصادياً استخدام آلات رفع مثل الرافعات. وهكذا، استخدم المعمارى عملية تم فيها صنع جمالونات خفيفة الوزن من قضبان الإنشاء الفولاذية العادية، ووضع ألواح معدنية مموجة فوق الجمالونات لتشكل السطح. كل الذى كان ضرورياً هو تعليم الناس كيفية استخدام منشار يدوى وآلة لحام صغيرة.

هذه المدرسة هى نتيجة حافز قوى لدى شخص واحد دفعه لتحسين ظروف قريته. إنه لم يقم فقط بتصميم المدرسة وجمع الأموال لبنائها، بل أمن أيضاً دعم الحكومة لتدريب أشخاص على البناء بمواد محلية، واستفاد من التقليد القوى الخاص بالتضامن المجتمعى لإشراك كل القرويين فى إنشاء هذه المدرسة لأطفالهم فكانت النتيجة بناء ذا تناسق ودفء وحنكة ينسجم مع المناخ والثقافة المحليين. لقد انصهر ما هو عملى مع ما هو شعرى. إن المدرسة الابتدائية فى غاندو تلهم مجتمعها الكبرياء وتغرس فيه الأمل واضعة بذلك الأساس لتقدم شعب.



المشروع السابع:

مسكن B2 بتركيا

اختير هذا المشروع لبساطته المتناهية، والتجريد الذى حول علبة خرسانية إلى عمل معمارى مرتبط بالمكان ومتفاعل مع البيئة بقدرته على الانفتاح الكامل على الطبيعة.

أراد أخوا تركيا، سلمان وسها بلال، أن يبنيا منزلاً لهما على الساحل الشمالى لبحر إيجة فى تركيا ليكون مكاناً يقضيان فيه عطلات نهاية الأسبوع فى بقعة يمكنهما أن يجدا فيها الجمال والهدوء والعزلة دون أن يقطعا مسافات طويلة من منزليهما فى اسطنبول.

يقع منزل ب٢ على أطراف بويخوسون، وهى قرية صغيرة بالقرب من أيفاسيك يسكنها مجتمع منسوج بإحكام يتكون من أربعمائة وخمسين شخصاً يعملون بشكل أساسى فى الزراعة. يقع منزل ب٢ بكتلته المستطيلة النقية مباشرة فى خارج الحدود الجنوبية الشرقية للقرية فى موقع مفتوح مدرج.

وقد يتساءل البعض عن مدى رمى هذا المشروع الإنجاز المعمارى الذى يستحق التكريم بجائزة الأغاخان للعمارة، وقد يكون هذا التساؤل فيه الكثير من الصحة، ولكن جوائز الأغاخان للعمارة لها ديناميكية خاصة بها مؤداها أن التفاعل بين مجموعات مستقلة مثل لجنة التحكيم واللجنة التوجيهية يفرز دائماً اختياراً أو اختيارين تدعو إلى التعجب. ولكن هذا الأمر بسيط فى إطار الرسالة المتكاملة للجوائز، وهذا هو موضوع كلماتى الختامية فى هذا المقال.

تم اختيار هذا المنزل لينال جائزة لأنه يجسد حساً من الكمال والازدهار. هو يمثل طريقة تقدمية فى تقدير تاريخ مكانه: المنازل المحيطة به وشكل موقعه الطبيعى، ليشكل خلقاً جديداً وفريداً هو، فى الوقت ذاته، جزء مكمل لمجتمعه. المنزل يقف منفرداً بشكله الجميل وكسوته الأنيقة ويحمل كمية قصوى من الوقار تحققت بواسطة أدنى الوسائل. وهو يحتفل بالتأمل ناظراً نحو الأفق بانفتاح ووضوح. إنه يدمج وفرة من المعرفة المعمارية، ولكنه فى الوقت نفسه يعبر عن فردية طموحات المعمار.

عندما يكون مفعماً بالحياة والنشاط، يصبح المنزل مكاناً ذا دلالة ومرجعية خاصتين بالنسبة للمجتمع، يعانق كل من يرحب بهم كزوار أو عُبار. وعندما يكون خالياً، يستمر فى نيل الاحترام الذى يستحقه كثيراً.

قصد مالكا المنزل تقييد مقياس المنزل لكى يحتفظا بتكاليف الإنشاء مع تحقيق إنشاء بسيط عملى لا يتطلب صيانة كثيرة. لذلك، فإن البرنامج أساسى وبسيط: الطابق الأرضى تشغله غرفة معيشة كبيرة، والطابق الأعلى تشغله غرفتا نوم، والاتصال بين الطابقين تم عبر سلم خارجى مصنوع من الخشب والفولاذ.

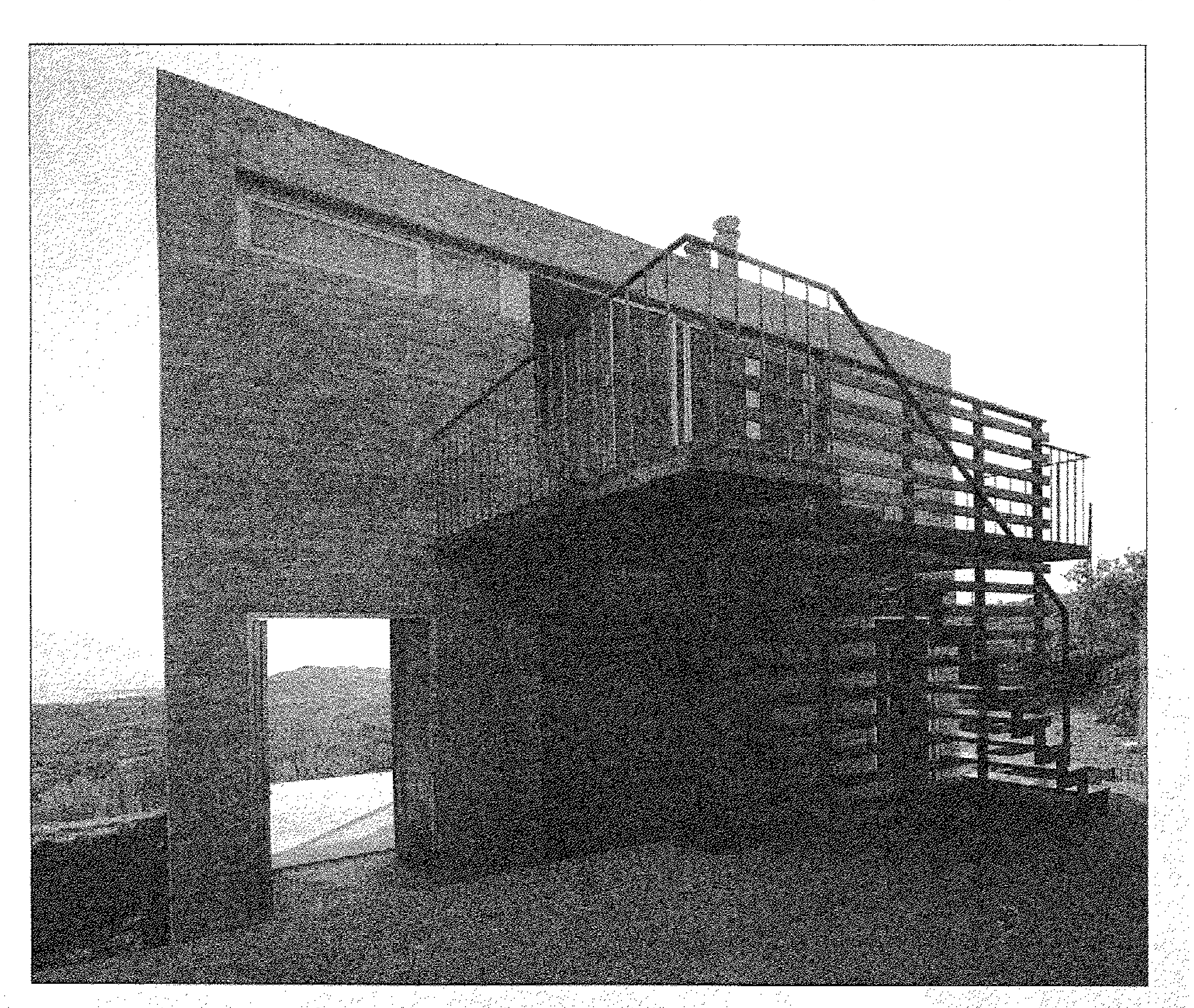
وقد تم الاحتفاظ بنقاء الحيزات الرئيسية والتكامل مع الطبيعة من خلال حيزات شبه خارجية وضعت ضمن حائط منفعى عمقه متران وعشرون سنتيمتراً يحتوى على حمامات ومكان للغسيل ومخزن ومطبخ صغير ومدفأة تفتح على حيز معيشى خارجى تحت السلم. وجميع الحيزات الخارجية تم تصورها على أنها أجزاء مكملة للمنزل.

المنزل حديث بشكل واضح، وهو منفصل عن المنازل التقليدية فى القرية المحيطة، ولكنه يحترم هذه المنازل ويوحد نفسه معها من خلال استخدامه للمواد والتقنيات التقليدية المحلية. يفتح المنزل نفسه على محيطه ويشجع مستخدميه ليس فقط على إدراك تنسيق موقعه الطبيعى ولكن أيضاً على غمر أنفسهم فى الطبيعة من خلال استخدام الأجزاء شبه الخارجية والخارجية من المنزل. إنه مكان أصبح فيه مأوى بسيط حيزاً للاحتفال بالطبيعة وتأملها.

إن استجابة المعمارى التركى هان تومرتكين للطبوغرافية المنحدرة للموقع مثلث الشكل الذى ينحدر سبعة أمتار من الشمال باتجاه الجنوب مبنية على أساس الممارسة المحلية للبناء المدرج. ينقسم الموقع إلى مسطحين يختلفان فى المنسوب بمقدار متر وثلاثين سنتيمتراً مما خلق مصطبة مستطيلة طويلة يقع عليها المنزل، ومصطبة مثلثة خلف المنزل تستخدم كحديقة. ومنزل ب٢ مطمور فى انحدار جانب الجبل كما هو الحال فى المنازل المحلية. ومع ذلك، وعلى النقيض من نماذج البناء المحلى، لا يوجد أسوار حول منزل ب٢ وحديقته. ونتيجة لذلك، امتص الموقع بواسطة الشكل الطبيعى للأرض المحيطة. ولكن المنزل، فى الوقت نفسه، جعل بارزاً ليبدو كما لو كان تمثالاً يرتكز على قاعدة.

إنشاء المبنى مقاوم للزلازل وبسيط للغاية، وتم بناؤه بمواد وتقنية محلية. وتشمل الواجهتان الشرقية والغربية تركيباً ثلاثى الأجزاء يتكون من عنصرين خرسانيين إنشائيين يؤطران حائطاً حجرياً؛ وهذا التركيب مستمر على السطح، مع أن الأحجار هناك غير مثبتة.

لقد تم تحقيق أوضاع فراغية مميزة فى منزل ب٢ باستعمال لغة معمارية مخفضة توظف مواد متواضعة وأشكالاً أولية. فالحيزات اكتسبت حضوراً رفيعاً حول إحساس المسكن إلى صرح. يعمل المنزل كأداة لإدراك الطبيعة مع تأثيرات ساحرة حقاً، محولاً المستخدم باستمرار من النشاط المنزلى إلى حالة من التأمل النقى فى منطقة خالدة. وقدرة المنزل على نقل مستخدميه بين مجالات مختلفة تمتد إلى صورته: الكتلة النقية على قاعدة يتم تخيلها بالعظمة الصامتة والبساطة الرفيعة لصرح، بينما مقياسه ومواده المتواضعة تعيده إلى المجال العامى.



تقييم شامل:.

من الطبيعى أن يجد كل منا ما يتفق عليه وما يختلف معه فى كل مشروع من المشروعات الفائزة هذا العام، وليس هذا بجديد على مؤسسة أغاخان للعمارة، التى طالما أثرت الحوار حول قضايا العمارة والمجتمع، وآثرت أن تشرك المعماريين وغير المعماريين فى الحوار، فجاءت الإضافات المتكررة من كل دورة من دورات الجوائز، مثل قطع الفسيفساء، كل قطعة تختلف بلونها وشكلها، ولكنها تسهم فى الصورة الكبيرة التى تزداد وضوحاً بكل قطعة تضاف إلى المجموع، وإذا اختلفنا على هذا المشروع أو ذاك، لابد لنا أن نعترف أن الصورة الكلية ثرية وجميلة ومعبرة وتدعونا إلى التعمق وتدعونا إلى التعمق فى التفكير والتأمل.

فتحية صادقة للقائمين على جائزة الأغاخان للعمارة، لالتزامهم بالمنهج العلمى، وتأكيد على التواصل الثقافى من حماية التراث إلى فتح باب التجديد للمبدعين وتقريظهم، ولتفانيهم فى الدراسة والتمحيص. ▪



متواجد في مراكز







قــــــراءة جديــــدة لأنـــدرســــون وشــــــوقــــى

أطفالنا

بين روح الشعر ونظم الحكمة

يـحــــيـى الــرخـــــــاوى

لم تكن المسألة انفعالا لخبرتين محدودتين مهما كانت دلالاتهما، لكنها كانت كشفا بجرعة مفرطة، ليست مفاجئة بالضرورة، عما تراكم لدىّ أثناء ممارستى الإكلينيكية - من قاع مجتمعنا إلى قمته - عما آل إليه حال التربية والتعلم فى مجتمعنا المعاصر. كاد فزعى من زيارتين لمدرستين فى القاهرة (روض الفرج وباب الشعرية) وحوارى مع الأولاد والمدرسين والأهل، يصيبنى باليأس الذى كنت ومازلت أعتبر نفسى محصنا ضده ما دمت أتنفس هواء هذا الوطن، وأرضى بالاستمرار فى هذه الحياة، إلا أن المسألة بدت لى أكبر من مناعتى.

تشغلنى مرحلة الطفولة، وماهية الطفولة فينا نحن الكبار، كأهم منطقة تحتاج إلى النظر والرعاية، أعتبرها أكبر قضية تتعلق بمستقبلنا، بل ربما بمستقبل الجنس البشرى كافة. بمتابعة الجارى من موقع الممارسة الفعلية (التى هى عندى أهم من الأرقام المغلوطة، والمزيفة والتقريبية، حتى لو سميت أبحاثا انتشارية). لاحظت كيف تتراوح المسألة من تسطيح وعى أطفالنا بمجلات وبرامج الوعظ والإرشاد والخطابة من جهة، إلى ألعاب المغامرات والبطولات الزائفة المميكنة من جهة أخرى. هذا، ناهيك عن زرع قيم سلبية بطريقة منظمة تكاد تكون مقصودة (بلغة من يعتنق نظرية المؤامرة)، الأمر الذى أرفض الاعتراف بأنه وحده السبب. حتى لو صح التآمر فأنا أتحمل مسئوليتى. خذ مثلا انتشار ظاهرة الغش بين الصغار. لقد أصبح الأمر قاعدة تقريبا، وهو أمر ليس خطيرا فقط لما يترتب عليه من وهم التعليم دون تعليم، أو الحصول على الشهادة الابتدائية وأحيانا الإعدادية دون معرفة القراءة والكتابة، ولكن لأن هذه القيمة بدت لى نذير خطر من أكثر من زاوية: أصبح الغش محل فخر الآباء والأبناء من معظم الفئات، الطفل يلوم أباه على أنه لم يعمل ما يكفى من اتصالات حتى يمكنه من الغش، والأب يعتذر لابنه لأنه عمل ما عليه وأكثر، لكن هناك آباء أشطر منه اتصالا ووصولا، ثم إنه يعده (الوالد يعد ابنه) ببذل مزيد من الاتصالات فى الدور الثانى ليضمن غشا أكثر دفعا للحصول على الشهادة بإذن الله. اختلت المفاهيم الدينية والرقابة الذاتية الأخلاقية على العمل والأجر والمقابل، الأمر الذى لا بد أن يستمر - بطبيعة الحال - حتى يصل هذا النشء إلى الجامعة حتى أساتذتها، وإلى البحث العلمى حتى قادته، وإلى مواقع أخرى كثيرة فى السياسة وحتى فى النشاط الثقافى والنقدى، وربما الإبداعى، وكل شىء.

بداية : علينا أن نعترف - قبل أن نثير الشكوك - أن الحديث عن الأطفال، وعن حقوق الطفل، وعن وعود الطفل، وعن علاقة مستقبلنا بمدى عنايتنا بأطفالنا. وما إلى ذلك قد أخذ. ويأخذ حقه، بكل كرم وعناية من الأطراف المحلية والعالمية على حد سواء، أما مدى تناسب ذلك مع الحقيقة التطورية التاريخية من جهة. ومع المتغيرات العالمية المتسارعة من جهة أخرى، فهذا شأن آخر.

هل يمكن أن تؤدى كل هذه الجهود لأى دور إيجابى إلا بعد أن نعرف حقيقة أبعاد ما هى الطفولة؟ وما هو مسارها؟ وما السبيل إلى إطلاق ما يكمن فيها لتحقق وعودها؟ كيف السبيل إلى ذلك؟

الإجابة الأقرب تقول : باتباع أساليب التربية الحديثة. كأنه قد أصبح لما يسمى التربية الحديثة جدول ضرب، أو برنامج حاسوب، نضغط على زره فيأتينا بالنتيجة. العالم كله، حتى المتقدم منه يعيد النظر فى كل شىء من واقع التهديد بالتدهور أو بالانقراض، نعم: يعيد النظر فى كل شىء بما فى ذلك ما يسمى التربية الحديثة. أذا أضفنا إلى ذلك التنوع الثقافى فسوف نكتشف حجم المطلوب ممن يهمه الأمر منّا من فحص فتخطيط فعمل بما يعلن أن الأمر لم يعد يحتمل الانتظار، أو الخداع، أو الخطأ المتمادى.

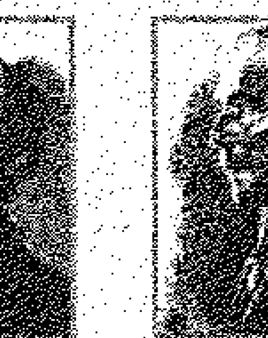
مـــن أيـــن نـــبــــدأ؟

يبدو أن إصلاح الكبار أصبح أبعد من مجرد أن نحلم به، لكن الكبار هم المكلفون بتصحيح المسار، ثم إنهم هم أساسا الذين كانوا أطفالا نشأوا فى مثل هذا الجو أو أقل قليلا؟ كيف يقوم هؤلاء الكبار بالتصحيح وهم نتاج الخطأ؟ معادلة صعبة لا أعرف لها حلا، ومع ذلك فلا مفر من بداية ما.

نحن نواصل الجارى بالقصور الذاتى ولا نتوقف لنتساءل عن بعض البديهيات التى نتصور أننا نعرفها حق المعرفة والحقيقة غير ذلك. مثلا هل نحن نعرف ما هو طفل أصلا؟ هل نحن نفحص بعمق كاف، بعمق جاد، المفاهيم المغلوطة التى شاعت حول هذه المنطقة: الطفولة؟ (تعمدت أن اقول المنطقة وليست المسألة ولا المرحلة باعتبار أنها منطقة حاضرة طول الوقت طول العمر فى كينونتنا النشطة)؟ هل براءة الأطفال حقيقية أو هى تصور؟ هل تحميلنا كل توقعات المستقبل على الأطفال هو مسئولية جارية أم أنها مهرب من الواقع؟ هل خيال الطفل الطليق هو ما ينبغى أن ندافع عنه على طول الخط ونحن فرحون به، أم أنه ما يجب الحفاظ وتنميته ونحن نحذر من احتمال شطحه فى الفراغ الدوامة؟

أحمد شوقي «المختار من ديوان شوقي للأطفال»
الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٢.

هانز كريسيتان أندرسون «قصص وحكايات خرافية» مجلة القاهرة، سلسلة الكتاب للجميع (الجزءان الأول والثانى، فبراير ٢٠٠٥).

أنـــدرســـــون وشـــــوقـــى

مناهل المعرفة وقنواتها

للإجابة عن بعض تلك الأسئلة البديهية كنقطة بداية علينا أن نستلهم كل مصادر المعرفة التى تستحيل أن تقتصر على برامج مستوردة، نضيف إليها سلبيات سوء الفهم وعبث التطبيق. الآفاق الأحدث فتحت المجال لتعدد مناهل وقنوات المعرفة من كل ناحية، فى مسألتنا هذه أصبح الحدس الذاتى (الذى هو ليس مرادفا للاستبصار) من أهم مصادر المعرفة الموضوعية (نعم الموضوعية بالمعنى الأحدث). فى مجالنا هذا، وكما سبق للكاتب أن أشار (مجلة الإنسان والتطور، عدد أكتوبر ١٩٨٠).

«... إن القدرة النكوصية الخلاقة هى عماد الإبداع الفنى من ناحية والبحث العلمى بمواصفات خاصة، وهى هى وقود الحدس الإكلينيكى المسئول، (خاصة فى دراسة الطفل وما يتعلق بالنظريات السيكوباثولوجية ......».

ينطبق ذلك على المبدع الفنان الراوى أو التشكيلى أكثر مما ينطبق على العالم الكمى الملاحظ.

من هذا المنطلق، وحين لم تسعفنى المعلومات العلمية الكمية المرتبة من الظاهر حاولت أن أتعرف على الطفولة من الأدب أكثر من تعرفى عليها من العلم الملاحظاتى والسلوكى. رحت أتحسس طريقى إلى عالم الطفولة بدءا بديستويفسكى «نيتوتشكا نزفانوفا، وهامش من البطل الصغير» (مجلة الإنسان والتطور، عدد أكتوبر ١٩٨٢). لأقدم بعض ملامح تنويعات من الطفولة مثل الطفلة الأم - الطفلة الدمية - الطفلة الطفلة - ثم الطفل الفارس. كان ديستويفسكى ينوى أن يكتب فى الطفولة ما شاء، لكنه لم يكمل ما بدأ (لظروف شخصية فى الغالب)، ومع ذلك فقد أتاح لى بعض ما كتب ما جعلنى أنتبه إلى هذا الثراء الهائل لحدس المبدعين الذى يعجز المنهج العلمى عن ملاحقته.

لكل ذلك فضلت أن أواصل هذا النهج وأنا أستجيب لتشريف هيئة هذه المجلة الغراء للإسهام فى إبداء الرأى فى ما نحن فيه من إشكال التربية مهتدين بكل ما يمكن (وما لا يمكن) فكانت هذه المداخلة.

شاعران ومنهلان

فى توقيت متقارب وصلنى هذان العملان اللذان قيل أنهما كتبا للأطفال؟ مختارات من ديوان شوقى للأطفال. ثم مختارات من كتابات هانز كريستيان أندرسن بعنوان قصص وحكايات خرافية «بمناسبة مرور قرنين على ولادته. هانز كريستيان أندرسن شاعر في الأصل، وأحمد شوقى أمير شعرائنا، ربما حتى الآن. شهرة أندرسن ارتبطت بكتاباته للأطفال أكثر من كونه شاعرا، كتاباته للأطفال سميت خطأ (ربما مقصودا) «خرافية». اعتبرتُ ذلك بمثابة الخدعة الذكية، حتى لو كان هو الذى أطلق عليها هذه الصفة. رجحت أنه سماها كذلك ليستدرجنا إلى هول الحقيقة، فيفوّت علينا أن نسارع فندمغها بالخرافة. إن مبادأته بتسميتها «خرافية» هى نفى ضمنى لاحتمال اتهامنا إياها أنها كذلك. أحمد شوقى هو أحمد شوقى، شدنى شاعرا وإنسانا طول عمرى، مثل أغلب أعماله، أُخذت بكل هذه السلاسة والجمال وأنا أتجول فى مختارات ديوانه للأطفال لأول وهلة، فقد كنت فى حاجة إلى أن أتعرف على هذا الشاعر الرقيق إنسانا دمثا شممت رائحة الطفل بداخله أثناء حكايا محمد عبد الوهاب لسعد الدين وهبة وهو يصف خوفه (خوف شوقى) من عبور الشارع وحيدا، فيناديه «حمادة»، ويطلب منه أن يمسك بيده ويعبر الشارع»..إلخ.

السؤال الأول المطروح بالنسبة لأحمد شوقى وهانز أندرسن معا يقول: هل كان كل منهما واعيا وهو يتوجه للأطفال أنه يكتب عنهم، أم لهم؟ يعقب ذلك سؤال أعتقد أنه أهم: من هم هؤلاء الأطفال المعنيون؟ هل هم أطفال لأن شهادات ميلادهم تشهد بذلك؟ أم أنهم الأطفال الذين هم بداخل كل منا مهما كانت أعمارنا؟ نؤجل الإجابة حتى نهاية الدراسة لننتقل للنظر فى كتابة ما وصلنا من كتابات أندرسن عبر تلك الهدية الغالية، وقد تجلى فيها البعد المسمى «خرافى» وهو ليس كذلك.

البداية فالمراجعة:

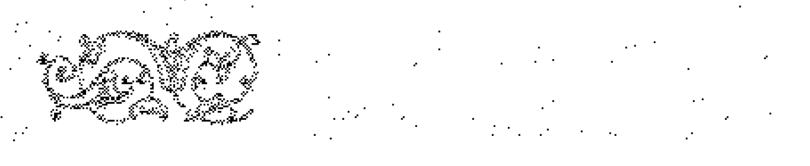
كانت البداية هى تصورى أنه من الممكن أن أعمل مقارنة بين مختارات ديوان شوقى للأطفال وتلك المقتطفات من أندرسن، وكنت فى أول الأمر منبهرا بديوان شوقى لخفة الدم، والسخرية، والنقد السياسى، والصور المتقنة المتحركة غالبا، لكننى وجدت نفسى بعد قراءتى كتابَى أندرسن، فى بؤرة قضايا نقدية ومعرفية متحدية: عن ماهية الشعر، وماهية الطفل، وواقعية الخيال، وأزمة التربية المعاصرة، وإبداع الشخص العادى دون ناتج معلن! وغريزة الإيمان، وحركية الوجود. يا الله!! هل طُرح أى من ذلك نفسه على وعى أندرسن وهو يكتب؟ الاجابة الأصح هى بالنفى قطعا، الأرجح أن بعض ذلك يمكن أن يكون قد ورد على هامش وعيه أو فى جماع مستويات وعيه دون تحديد مسبق أو قصد ظاهر. لا يمكن أن يكتب كاتب أو شاعر قصة مثل قصة «الظل» دون أن يكون حدسه الإبداعى قد وصل إلى عدة حقائق لم تظهر فى نظريات سيكوباثولوجية ونقدية وإبداعية إلا بعد أكثر من قرن. على سبيل المثال: نظرية التحليل التفاعلاتى (تعدد الذوات: Transcultural Analysis، ومفهوم «التفرد» Individuation فى نظرية يونج، ثم معظم نظريات الإبداع الأعمق المتصل بالعملية الإبداعية، وليس فقط بالناتج الإبداعى.

كيف القراءة والتلقى؟

ليست القضية الاعتراف بسبق حدس أندرسن أو محاولة تفسير إبداعه للطفل بنظريات علمية أو نقدية لاحقة. القضية هى محاولة احترام ما يتحرك فى حدس المبدع من أعماق، قبل أن نحسبها بالحذلقة المعقلنة، أو التفسيرات الفوقية، ثم إن هذه الإشكالات التى تبدو للكبار شديدة التعقيد والصعوبة تكاد تكون أمرا طبيعيا للأطفال لقربها من حقيقة الفطرة، دون حاجة إلى برهان، فهى أقدر على الوصول إلى وعى الطفل مباشرة، وأحيانا إلى الكبير أيضا بقدر ما يحوى كيانه من طفل نشط متبادل متكامل معاً. على من يريد أن يقرأ أندرسن بما هو، خاصة من الكبار، أن ينسى حكاية التفرقة بين ما هو خيال وما هو واقع، وأن يستقبل كل شخوص قصصه بعينيه وجسده قبل عقله وتجريداته، فيتخفف من أى تفسير أو تنظير وصى وهو يصاحب شخوص الخيال والواقع معا، وكأنه يلمسهم أحياء لا تصورات. (أعترف أننى كدت أدخل معهم فى عالمهم لولا خوفى من جهلي طريق الرجوع).



لاحظت كيف تتراوح المسألة من تسطيح وعى أطفالنا بمجلات وبرامج الوعظ والإرشاد والخطابة من جهة، إلى ألعاب المغامرات والبطولات الزائفة الميكنة من جهة أخرى

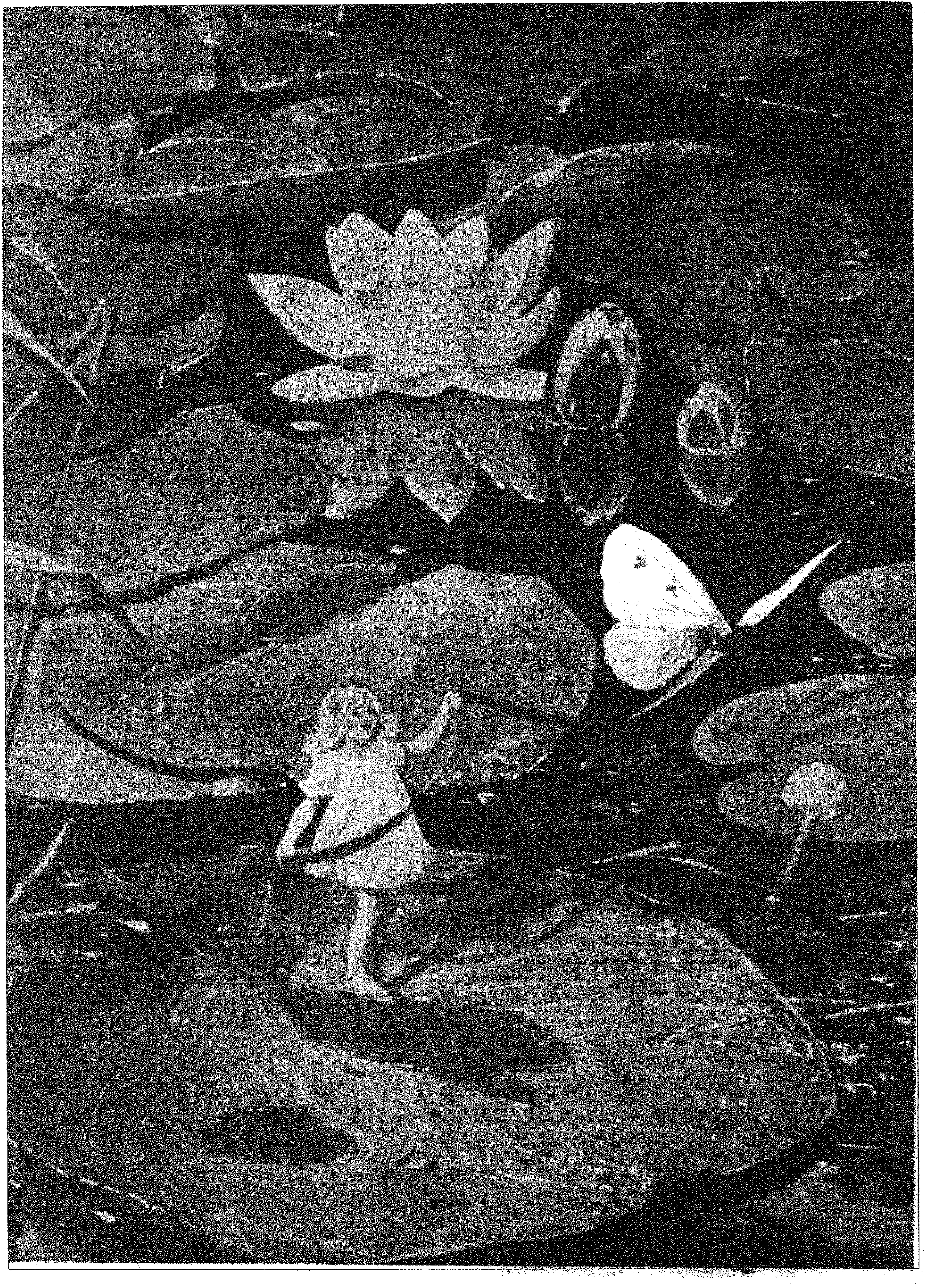


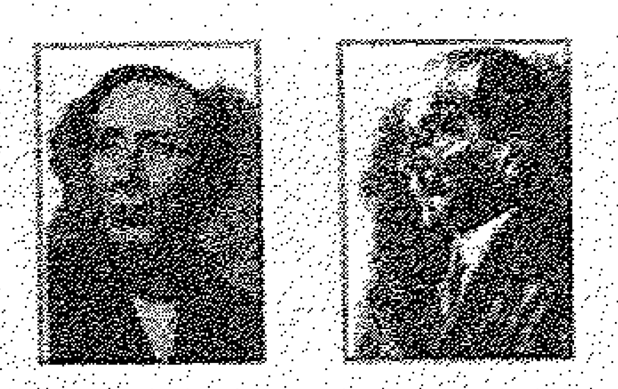
عن الخيال والإبداع وروح الشعر

أندرسن لم يكتب للأطفال شعرا بشكل مباشر مثلما فعل شوقى، لكن شاعرية أندرسن فرضت نفسها علىَ برغم أننى قرأت عمله بالعربية، فما أروع الترجمة. الشاعرية الصوتية تكون أقرب وأوضح فى لغتها الأصلية. لكن الشاعرية التصويرية والحركية يمكن أن تصل إلينا بأى لغة. نجح أندرسن بالصورة والحركة بكل هذه البساطة العميقة أن يدافع عن حق الخيال فى ان يكون «واقعا آخر» للطفل خاصة، ولنا عامة. وأنا أقرأ أندرسن كنت طول الوقت أقفز من هارى بوتر إلى ألف ليلة وليلة، فى حين أننى وأنا أقرأ شوقى كنت أقفز من كليلة ودمنة إلى ميكى!! مرورا بمحمد فوزى أحيانا (هذا ليس قدحا فى أى من الثلاثة. فأنا أحب الثلاثة).

يستحيل أن أقدم فى هذا الحيز ما وصلنى من مختارات أندرسن حيث كل قصة تكاد وحدها تحتاج إلى مثل هذا الحيز، فأكتفى بالإشارة فى عجالة إلى ما حاورته من بعض آخر قصص الجزء الثانى:

لا يجوز أى تلخيص لمثل هذا النوع من الإبداع بنفس القدر الذى لا يصلح فيها تلخيص لوحة تشكيلية بإظهار بعض أجزائها، أو إيجاز سمفونية فى أقل من وقتها، ومع ذلك فلا مفر من بضعة أسطر: قصة «الظل» تحكى عن «طالب علم» جاء إلى البلاد الحارة من البلاد الباردة، ولصقت به صفة «طالب العلم» حتى صارت اسمه. حضر من أول القصة وهو يلقى ظله حيثما ذهب (عادى)، لكن ومن البداية ظهر لنا وكأن للظل استقلاله، أو هو يحاول ذلك، وذات ليلة سمح طالب العلم لظله أن يمتد ليدخل عند الجار الغامض (الذى بدا لوهلة سابقة كعذراء مضيئة) ليستكشف مَن هناك، لكن الظل فعلها وتمادى مستقلا حتى تأنسن إنسانا، تاركا طالب العلم بلا ظل، ويدور الظل دورته، ويعرف، وينضج، ويستكشف أن الجار الغامض كان هو «روح الشعر» (إنسانا، وهذا اسمه) ثم يعود لصاحبه





أنـــدرســــــــون وشـــــوقـــــى

طالب العلم ويدور حوار، وتبادل أدوار (يصبح طالب العلم ظلا ويبقى «الظل» إنسانا) وتصالح، وكشف، واتفاق... وغير ذلك.

حين كتبت أطروحتى الأولى عن «الإيقاع الحيوى ونبض الإبداع» (مجلة فصول، المجلد الخامس - العدد الثانى يناير ١٩٨٥)، قابلت بين ما أسميته «الحلم بالقوة» (الذى لا يظهر أبدا) بما أسميته «القصيدة بالقوة». أوضحت كيف أن القصيدة بالقوة مثل الحلم بالقوة هى مشروع الإبداع فى عمق تشكيله، وهى ليست مشروعا فحسب، بل إنها كمال الإبداع «المستحيل»، بمعنى أنه رغم تمامه، لا يملك الظهور بما هو، وإنما يمكن ترجمته أو استلهامه للتعبير عما تيسر من المتاح. لا أكثر. هذا ما فهمت أن إليوت يعنيه بقوله: «لم يتعلم المرء إلا انتقاء خير الكلام للشيء الذى لم تعد ثمة ضرورة لقوله، وبالطريقة التى لم يعد ميالا لقوله بها»، حين وصلت إلى قصة «الظل» وجدتنى أمام حضور كامل لما أسميته «القصيدة بالقوة»، وقد تمثلت فى شخص مجسد لحما ودما له اسم محدد (ليس صفة) حيث أسماه أندرسن هكذا مباشرة: «روح الشعر». أعترف أننى فزعت وأنا أضع هذا الفرض الباكر عن مستويات الشعر، خاصة حين حضرنى مفهوم «القصيدة بالقوة» حتى امتلأ به وعيى تماما: بلغ إدراكى لعمق هذه الفرضية أننى فسرت من خلالها جدلية الموت، وأصل الوجود ومحوره قلت فى أطروحتى تلك «... ولعل كثيرا من حقائق الوجود التى نعجز أصلا عن قولها هى من باب هذا الشعر الذى لا يقال، فالموت - الموت - شعر لا يقال بالنظر إلى الجانب البنائى فيه لا مجرد التحلل، يقول أدونيس فى رثاء صلاح عبد الصبور: «... ففى لحظة الشعر، خصوصا لحظة الموت، ذلك الشعر الآخر». حتى أننى أضفت من وجهة نظر تصوف ما: «إن «الله» - من منظور تصوفى معين - هو شعر لايقال (ليس كمثله شيء).

هذا المستوى من الشعر هو ما وصلنى من شرح «الظل» لخبرته مع الجار الغامض المسمى «روح الشعر»، ذلك لأنه بعد أن استقل «الظل» عن صاحبه «طالب العلم»، وتجسد إنسانا، عاد يصف خبرة لقائه مع جاره «روح الشعر» يصفها بكل ما وصلنى فى الفرض السابق الذكر. لم تكتف قصة الظل هذه بكشف الجانب الغامض المبدع للحياة هكذا، بل إنها عمقت التقابل بين «روح الشعر» (كيانا حقيقيا) وبين «طالب العلم» المعلوماتى الظاهر الوصى، لم يخطئ أندرسن فيتمادى فى الاستقطاب بين الظل الذى استوعب روح الشعر، وبين طالب العلم، ليفضل أحدهما على الآخر فى مناظرة مسطحة، وإنما مضى ليجعل رحلة «الظل» رحلة معرفية إبداعية شديدة العمق دون إلزام بتنافس سطحى مع «طالب العلم». إن رحلة «الظل» إلى «روح الشعر» لم تكن حكرا على «الظل»، فهذا الأخير يخاطب صاحبه «طالب العلم» بعد أن التقاه لقاء الند للند فيشرح له كيف أن فرصة لقاء «روح الشعر» مفتوحة لمن يريد، على شرط أن يتقدم إليها لا أن يجلس فى الشرفة ينتظرها، يقول «الظل» «لطالب العلم»:.... حضرتك كنت دائما تجلس وترنو إلى الممر، لم يكن هناك (عند الجار الغامض) ضوء نهائيا، فهناك ما يشبه الشفق، وكل الأبواب كانت جميعا مفتوحة على الآخر على طول الصالات والقاعات...».

هكذا يؤكد أندرسن أن فرصة الإبداع تكاملا هى فرصة كل الناس دون استثناء. هى ليست حكرا على صفوة موهوبة إذن، هذه القضية كانت وما زالت شغلى الشاغل سواء فى ممارستى صحبة الجنون كإبداع مجهض، أو فى تعاملى مع الأحلام كإبداع يومى. يدور الحوار بين طالب العلم وظله بعد عودته من رحلته المعرفية الواعدة بتخليق ذاته (ذواته معا) وقد تجسد إنسانا، يدور الحوار بمنتهى الاحترام التلقائى، ثم بناء على إصرار «الظل» على أن يخاطبه «طالب العلم» بـ «حضرتك...» حتى لو لم يفعل نفس الشيء بالمقابل. الاستقطاب المباعد بين المتحاورين لم يكن مطروحا، فالظل لم يكن هو «حالة الذات الطفلية الحرة المنطلقة» (حسب نظرية التحليل التفاعلاتى) مع أنه كان يمثل الحرية والبحث عن المعرفة الأخرى، كان نحيفا لكنه يافع تماما، وقوى، وواثق من نفسه، ومطالب بحقوقه برغم شكواه من أن «لحيتى لا تنمو كما يجب».

بحدس إبداعى فائق يدرك أندرسن، فيعلم الأطفال فينا، كيف أن التكامل بين الذوات إنما يتم بالتصالح والرفقة، لا بالتبادل المستقطب، ولا بالتسوية المائعة، حتى قال طالب العلم للظل ذات يوم وهو يرافقه بناء على اتفاق طيب «..بما أننا أصبحنا رفيقىْ سفر كما نحن الآن، ونحن أيضا قد نشأنا منذ الطفولة معا، ألا نشرب نخب رفع الكلفة بيننا، إنه أمر أكثر ألفة».

فى نفس القصة يعلن حدس أندرسون عددا من الحقائق من أعمق ما توصل إليه العلم والإبداع معا: فهو يكشف كيف أن نفاذ البصيرة رائع ومزعج حتى يعتبر داء إذ يصف بنت الملك - فى المصح - وكيف استطاعت أن تنتبه إلى أن «الظل» حين جاء إلى المصح لم يحضر «حتى. يجعل لحيته تنمو، ولكنى أرى السبب الحقيقى أنه بلا ظل»، فنتذكر كانديرا فى «الكائن الذى لم يحتمل خفته» وبدرجة أقل نتذكر فتحى غانم فى «الرجل الذى فقد ظله». انظر أيضا ما ورد على لسان «الظل» فى عبارة عابرة وهو يحاور صاحبه «طالب العلم»، فيكشف عن دور الإيقاع الحيوى اليوماوى Circadian جنبا إلى جنب مع «الأزمة المفترقية» :Cross-Roads crisis يقول لصاحبه بعد عودته «... أقول لحضرتك، كنت هناك، هل بإمكانك أن تدرك ما يمكن أن يُرى؟ ...عرفت طبيعتى أيضا وما خلقت عليه، علاقتى العائلية بروح الشعر، أجل: عندما كنت مع حضرتك فى ذلك الزمن لم أفكر بذلك، ولكن بشروق الشمس، بغيابها، كما تعرف حضرتك، صرت كبيرا بشكل غريب، على ضوء القمر كنت أوشك تقريبا أن أكون أوضح من حضرتك، لم افهم وقتها طبيعتى. أدركت ذلك فى الممر الموزع، صرت إنسانا، خرجت راشدا». كل ذلك يكاد يطابق فروض النظرية الإيقاعية التطورية فيما يتعلق بما سمى «الأزمة المفترقية» بين الإبداع والنمو والجنون، وفيه تأكيد على العلاقة بين كل ذلك والإيقاع الحيوى. إن تعبير أندرسن عن «الممر الموزع» هو الأقرب إلى فرض أزمة «مفترق الطرق» على مسار النمو التى يمكن أن تنتهى إلى مرحلة أعلى من التكامل والرشاد أو ينتج عنها إبداع متميز، أو تجهض إلى اغتراب متماد، أو تفشل بما يؤدى إلى التفسخ أو الإعاقة فى المرض حتى الجنون، لهذا نخافها (الأزمة) حتى يمكن ألا نخوضها فيتوقف النمو. إن دور الإبداع - للأطفال خاصة - ودون تنظير، هو أن يرسم مختلف الطرق بعد الممر الموزع، لنطمئن نسبيا ونحن نستمر، كل هذا بتلقائية غير مباشرة، دون تنظير اللهم إلا للنقد والمعرفة.

القصص التالية ليست أقل إبداعا أو كشفا عن الطبيعة الإنسانية، فنقطة المطر تضيف إلى خطورة حقيقة اغتراب البشر فى المدينة (أى مدينة) وتنبه إلى بشاعة تقاتل الناس على اللاشيء: «قال العجوز الممسك بالمكبرة الزجاجية التى تكبر الواقع، قال بعد أن رأى من خلال المكبرة».. آلافا من الحيوانات الصغيرة تطفر وتقفز، تشد وتلتهم بعضها البعض»... «ياله من منظر مقرف».. «ألا يمكنهم أن يعيشوا فى سلام؟، وبدا المنظر مثل مدينة بأكملها برجال عراة متوحشين..». وقد بدت بالفعل مثل مدينة يتراكض فيها الناس عراة، كان شيئا يقشعر له البدن، والذى يزيد من هذا الإحساس هو رؤيتهم وهم يتدافعون، يركل واحدهم الآخر، يقضم الآخر، يقرض الآخر، يتناهشون، ويسحلون بعضهم، وما توجب أن يكون أسفل كان فى الأعلى وما توجب أن يكون فى الأعلى كان فى الأسفل...».

وفى قصة «أم» يتجسد الموت فى شكل شيخ غريب يخطف ابنها برغم توسلاتها، فتهيم على وجهها لتسترده وهى تضحى بكل شيء فى سبيل ذلك: نظرها ولسانها و..و...الخ. حتى تصل إلى «مشتل الموت» فإذا به ليس موتا بل مجهولا، فترضى الأم أن تتنازل عن إصرارها على إحياء ابنها، فمشى الموت (شخصا مجسدا). بابنها إلى البلاد المجهولة. وهى راضية أو موافقة على الأقل: نهاية مفتوحة حتى للموت!! (راجع ما سبق الإشارة إليه من تفسير الموت بعلاقته بالقصيدة بالقوة).

أما قصة الناقوس التى تُجسد السعى إلى الله تعالى من خلال نداء الداخل حتى يتيقن الجميع على اختلافهم من وجوده فى الخارج/الداخل، شريطة ألا يعينوه ماثلا مفارقا طول الوقت، بل يستمعوا إلى دقاته (الناقوس) يقينا من الداخل إلى الخارج وبالعكس.

الأرجح أن أندرسن لم يقصد - واعيا - أيا مما ذكرت من نظريات ظهرت بعد قرن أو أكثر، بل إن أرجح الأرجح أنه لو كان أندرسن قد وعى بعض ذلك، لما كتب ما كتب، ولا خاطب به الأطفال داخلنا وخارجنا أصلاً.

ديــــوان شـــوقـــى

آن الأوان أن ننتقل إلى شعر شوقى للأطفال فنبدأ بنفس التساؤل: هل هو للأطفال أم أنه عن الأطفال؟ أم أن شوقى يستعمل ما هو طفل فيه وفينا ليحقق



الأرجح أن أندرسن لم يقصد - واعيا - أيًا مما ذكرت من نظريات ظهرت بعد قرن أو أكثر، بل إن أرجح الأرجح أنه لو كان أندرسن قد وعى بعض ذلك، لما كتب ما كتب، ولا خاطب به الأطفال داخلنا وخارجنا أصلا



إن ما شغلنى بعد مقارنة قصص أندرسن التى وصلتنى شعرا، بشعر شوقى الذى وصلنى نظمـًا، هو مدى المساحة التى تحرك فيها أندرسن حتى قارنتُها بمساحة حركة ج. رولينج، مؤلفة هارى بوتر



مأربه بما يبلغه به من رسائل للكبار؟ بالرغم من انبهارى لأول وهلة بالمختار من الديوان فقد وجدت فى قصص أندرسن شعرا أكثر خيالا، وأجمل أضواء، وأعمق أنغاما من نظم شوقى الخفيف الجميل الساخر. ما وصلنى من مختارات شوقى (الأمر الذى لا يسمح بالتعميم) يمكن أن يُقَسَّم إلى أناشيد أقرب إلى الأناشيد الحماسية الطيبة، ثم قصائد الحكمة التى ترد بشكل مباشر فى بدء أو ختام كثير من القصائد، ثم قصائد التسلية والتندر، لتتطور بعض تلك القصائد من السخرية إلى النقد السياسى صراحة. الصور جميلة وخفيفة وبعضها مركب بشكل متداخل (القرد والفيل مثلا)، إلا أننى - بعد أن انتهيت من قصص أندرسن افتقدت الشعر: انسياب الخيال، وزخم الحركة، وتنوع الحضور، وتعدد المستويات. ربما افتقدت كل ذلك لأننى أمام قصائد وليست حكايات، ولكن أليس الأولى بالشعر أن يتصف ببعض ذلك؟ المهم: رحت أراجع القيم التى يقدمها شوقى للأطفال (سواء كانوا أطفالا بالعمر أم أطفالا بداخل الكبار) فوجدت فيها غلبة البعد الأخلاقى ذى المستوى الواحد، دون الحفز الإبداعى والتحريك الخيالى. إن ما شغلنى بعد مقارنة قصص أندرسن التى وصلتنى شعرا، بشعر شوقى الذى وصلنى نظما فكِها أو ساخرا او حكيما، هو مدى المساحة التى تحرك فيها أندرسن حتى قارنتُها بمساحة حركة ج. رولينج، مؤلفة هارى بوتر، وأيضا بمساحة حركية ألف ليلة وليلة، مع شوقى: فوجدتنى - مع شوقى - أتحرك فى المحل، راقصا فى خفة مرحة، لكننى لا أنتقل من مكانى، ولا ينطلق معى خيالى. ثم انتبهت كيف أن خطاب كثير من قصائد شوقى موجه للكبار أكثر منه للصغار، خذ مثلا: قصيدة الجدة والحفيد وهو يلوذ بها من أبيه، إنها تأنيب للوالد وهى تذكّره أنه كان شقيا مثل ابنه «ألم تكن تصنع ما، يصنع إذ أنت صبى»: شوقى شخصيا - يبدو فى أغلب قصائده إما طفلا يلهو، أو حكيما يعظ، لكنه لم يكن متحركا مكتشفا لطبقات وعينا عبر الأطفال داخلنا وخارجنا وهو يخاطبنا متلقين. نهايات شوقى يمكن أن تضع بعدها نقطة ساكنة جدا. كما هو الحال عند معلمينا ووعاظنا ومدرسينا. بعض قصائد شوقى تبدأ بعنوان الحكمة المعنية مثل قوله «اسمع نفائس ما يأتي من حكَمي، وافهمه فهم لبيب ناقد واعى». لماذا نطلب من أطفالنا أن يفهموا الحكمة «فهم لبيبٍ ناقد واعٍ؟»، هل يصلح هذا الخطاب لمن نريد أن نطلق خياله إليه؟ أليس هذا كثيراً عليهم؟ أليس هذا سابقاً لأوانه؟ هل هذا هو الذى ينمى طفولتهم، ويطلق إبداعهم، ويحافظ على زخم تلقائيتهم؟ إن حكمة أشعار شوقى قد تأتى أخف فى نهاية القصيدة، لكنها حين تأتى فى أولها تبدو وصية أكثر: أنظر هذه البداية: «الدب معروف بسوء الظن فاسمع حديثه العجيب عنى» أو: «كيف تسمو للعلا يا فتى، إن أنت لم تنفع ولم تشفع - عندى لهذا نبأ صادق، يعجب أهل الفضل فاسمع وعِ». طيب، وماذا عن النبأ الذى لا يعجب «أهل الفضل» يا عمنا شوقى؟ إن طلب السماع المبدئى والانتباه المستسلم يتكرر فى هذه المختارات بشكل يبدو معه أن الطفل ليس إلا إناء نظيفا يُلقى فيه ما ينبغى أن يحتويه، أليس فى ذلك مصادرة على الحركة الطفلية الطليقة حتى لو كان الذى يلقى فيه هو أشهى ما لذ وطاب، أو أنفع ما يفيد ويصلح؟ مع الشاعر القاص هانز أندرسن يكاد لا يوجد إلا قدر ضئيل جدا من المباشرة.



بعض ما يمكن أن يصل من شوقى كان رائعا على مستوى النقد السياسى مثلا، لكن هل ياترى كان يقصد به الأطفال، خذ عندك تعرية إلصاق اللوم بما يسمى مراكز القوى دون الرئيس، أو اتهام الرجل الثانى دون الأول بالخطأ فالإدانة، يكشف ذلك شوقى فى قصيدة «الليث ووزيره الحمار» مثلا، حين ينبرى القرد بعد أن خربها الوزير الحمار حتى تساءل الليث: «أين اقتدارى وبطشى، وهيبتى واعتبارى؟» «فجاءه القرد سرا، وقال بعد اعتذار، ياعالى الجاه فينا كن عالىَ الأنظار، رأى الرعية فيكم كرأيكم فى الحمار»، قد يدرك الطفل بعض ذلك، لكن الكبار أحوج إلى مثل ذلك وأكثر، قصائد أخرى كثيرة تتجاوز ما يحتاجه الطفل فعلا، مثل تعرية المنافقين فى قصيده «نديم الباذنجان. ثم خذ عندك تلك القصيدة التى تنبه إلى عاقبة الانصراف عن التخطيط الوقائى وإهمال النصح الباكر، وهى قصيدة ملك الغربان وندور الخادم، حين يرفض الليث النصح الباكر ثم يعود يطلبه من خادمه ندور بعد أن تقع المصيبة. ينبه الخادم الليث أن السوسة تنخر جذر الشجرة، ليتخذ لذلك الحذر أو الوقاية، فيرد عليه الملك «باستهانة، أنا لا أنظر فى هذى الأمور»، ويمر الوقت حتى تسقط الشجرة: «فهوت للأرض كالتل الكبير، وهوى الديوان، وانقض السرير (سرير الملك)، فيستنجد الملك بخادمه ندور، فيرد هذا فى أدب ساخر «قال يا مولاى لا تسأل ندور، «أنا لا أنظر فى هذى الأمور».

وبعـــد

أنا لا أزعم ولا أتصور أن أندرسن كتب قصصه التى ادعى أنها خرافية لتقتصر على الأطفال، ومع ذلك فإننى أتصور أنها لا تصل إلى أغلب الكبار بالجرعة الفائرة الحقيقية، وربما لذلك لزم النقد فنقد النقد بلا توقف ونحن نتحسس الطريق إلى معرفة نبض الإبداع، لا حكمة الوعاظ أو مجرد جمال التشكيل (كل ذلك يحتاج لتفصيل لاحق).

عند شوقى شعرت أن الطفل بداخله - بداخل شوقى - كتب ما كتب نظما، دون أن يحرك فينا إلا رقصا طريفا وابتسامة زائطة، وهذا طيب فى ذاته: شعرت أن طفل شوقى «يستعبط» ليخاطب الكبار ويلومهم وهو يقول لهم بعض ما غاب عنهم من أصول التربية ومبادئ الحكمة ونقد الرؤساء والساسة

نحن نحتاج أن نستمع إلى نصيحة ندور فى الوقت المناسب، وأن نتحمل مسئولية الأكبر منا والأصغر طول الوقت، وأن نتعرف على أطفالنا بداخلنا وخارجنا من جديد، وأن نتخلص من الوصاية على حركية وعينا تحت أى عنوان، وأن نرفض التوقف عند معلومات «طالب العلم» دون إبداع يحرّك ظله إلى «روح الشعر» فيتكاملان. نحن فى حاجة إلى أن نحسن الانصات إلى نداء «الناقوس» سعيا إلى الكدح إليه دون الاصرار على اختزاله إلى ما نعرف، أو تعيينه - سبحانه - فيما ليس هو. لا ينبغى أن نتوقف عند قول الشعر نظما دون تحمل مسئوليته، وإلا رقصنا مع القصائد الخفيفة فى حركة مكررة، حتى لو كانت زائطة ساخرة فهى حركة فى المحل «محلك سر»، والألعن أن ما يليها هى حركة «للخلف در». نحن فى حاجة إلى روح الشعر، بقدر حاجتنا إلى طلب العلم، أما الاقتصار على رقص النظم والقاء النصائح، وحشر المعلومات، فكل ذلك وقفة خادعة، وخطرة، حتى لو بدت إرشاداً أو تسلية أو «كنظام» التعليم.

كل ذلك يبدو صعبا بعد ما صرنا إليه، لكن الصعوبة لا تمنع الأمل ومن ثَم التوجه حتى إلى ما يبدو مستحيلا. وهل يفعل الأطفال (داخلنا وخارجنا) غير طرق أبواب المستحيل.■

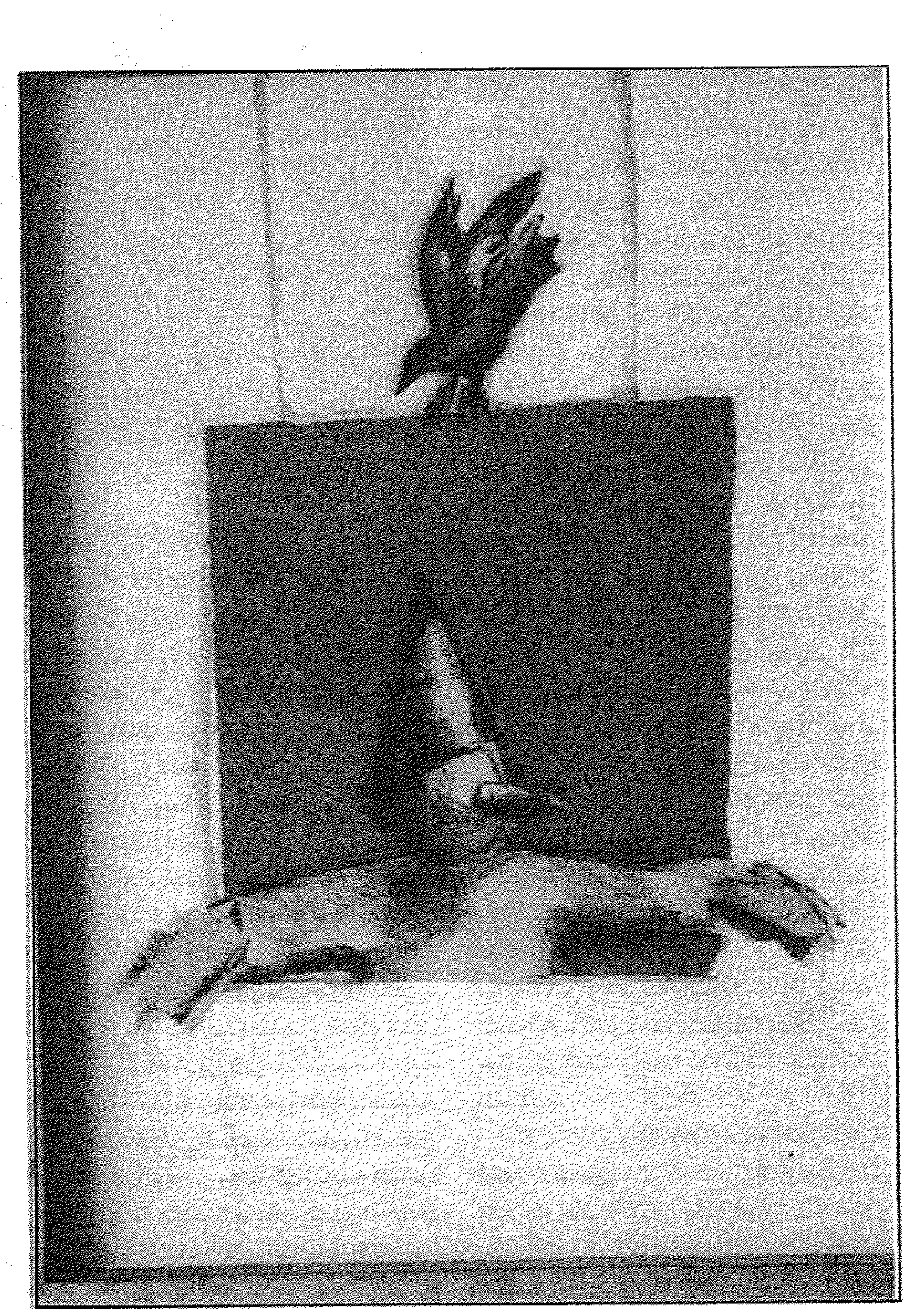
في معرض الفنان طارق الشيخ

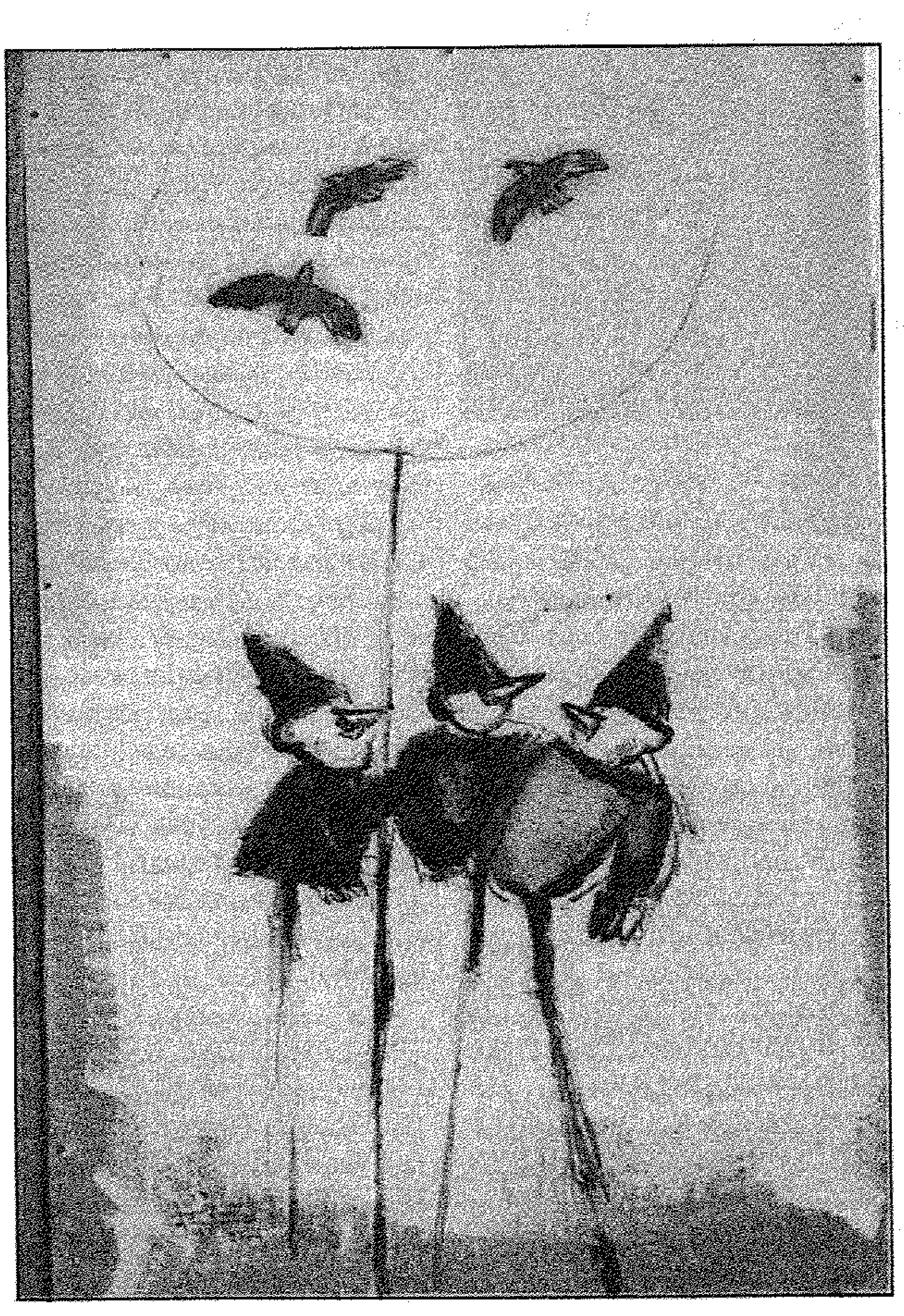
الانشغال بالحرية

وسط زحام المعارض الفنية التى ينشغل معظمها بالشكل، والبحث فى الشكل، والجرى وراء الجديد والحديث، و«توسل» الدهشة والغموض، وتحت شعارات المعاصرة و«اللحاق بالعصر» و«الانتماء إلى العالم المتقدم».. وسط هذا الزحام يغيب فى العادة «الإنسان» وتختفى عن عمد أو عن إهمال قضايا الإنسان الأساسية.. واحتياجات الإنسان الأهم، وفى مقدمتها «الحرية» وشوق الإنسان وبحثه الدائم عنها.. وعلى هذه الصفحات نقدم أعمالاً لفنان شاب (من مواليد حى شبرا القاهرى عام ١٩٦٩)، تنقسم الأعمال إلى مجموعتين.. الأولى عن علاقة الإنسان بالحرية من خلال دراما بسيطة بطلها شخص خيال المآتة (تمثال من القش يصنعه الفلاح ويضعه فى حقله لإخافة وطرد الطيور المغيرة على محاصيل الحقل) وتصوير العلاقة الملتبسة بين «الطرد» و«السعى إلى» الطائر رمز الحرية.. المجموعة الثانية تدور حول علاقة الإنسان بالبر والقارب كرمز لرحلة ومغامرة الحياة..

الجميل فى هذا المعرض واللافت هو استخدام الفنان طارق الشيخ لأسلوب بسيط للغاية سواء فى الرسم أو التلوين لخلق جو من البساطة والصفاء المناسبين للموضوع الإنسانى المطروح فى اللوحات.

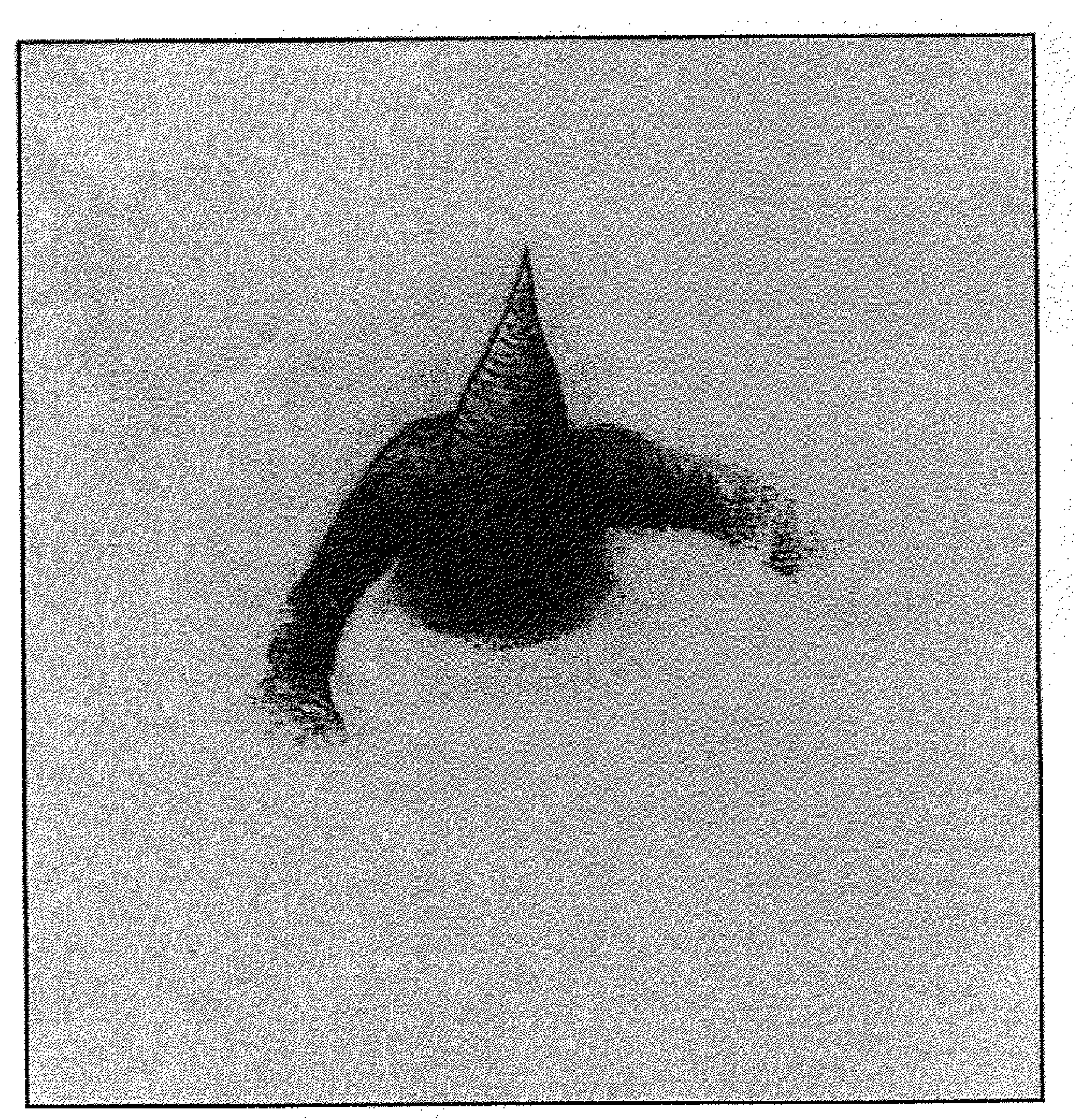
حلمى التونى



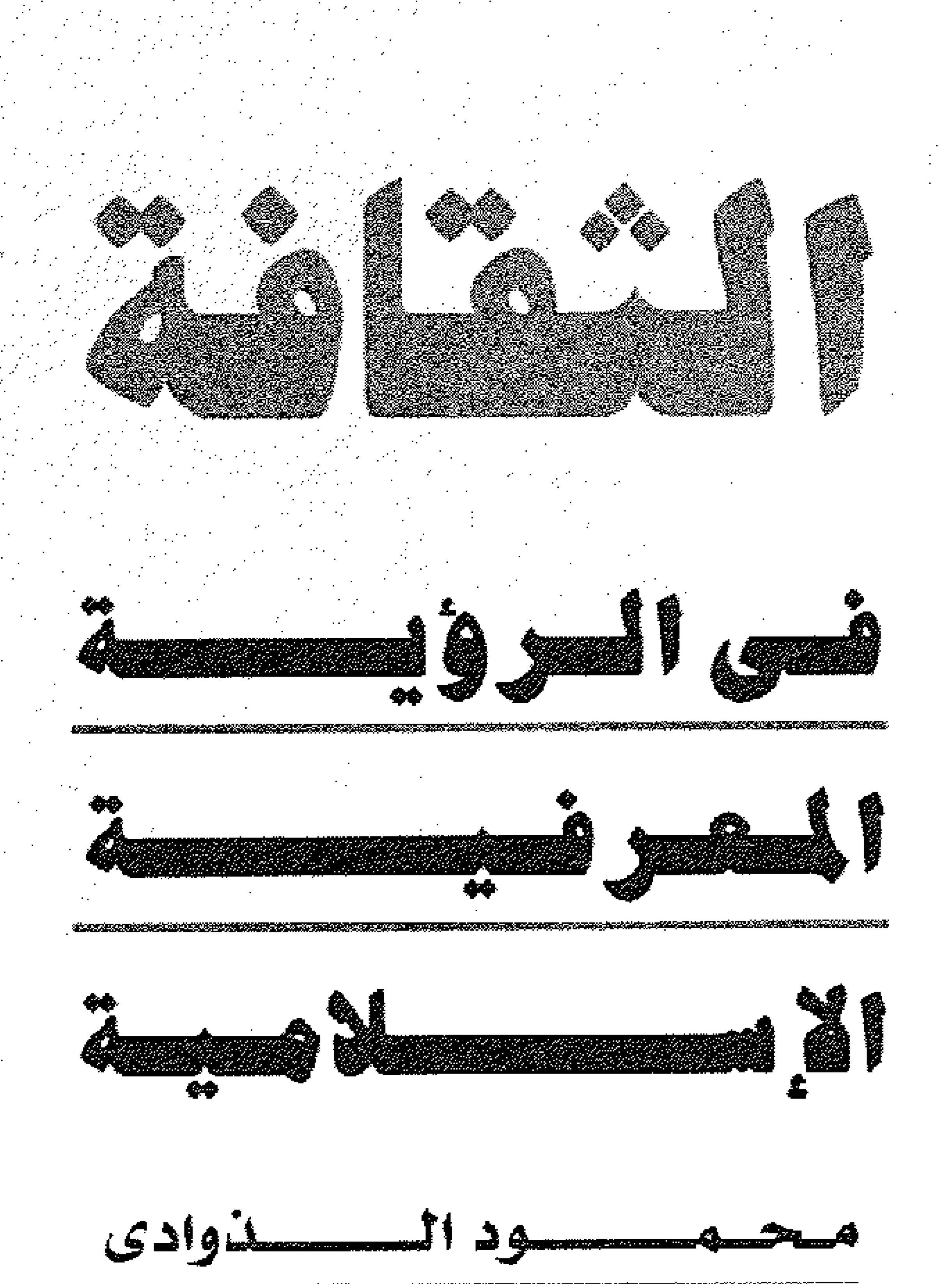








الانشـــغال بالحـــرية



الثقافة في الرؤية المعرفية الإسلامية

محمود الذوادي

هناك اليوم أكثر من سبب يحفز الباحث فى العلوم الاجتماعية على دراسة الثقافة Culture لمحاولة التعمق فى فهم طبيعتها وتجلياتها فى سلوك الأفراد والمجتمعات. فالحديث عن العولمة عند الخاصة والعامة أصبح موضوع الساعة فى بداية القرن الحادى والعشرين.

هناك بالطبع حضور بارز فى عالمنا اليوم للعولمة الاقتصادية. ولكن ليس من المبالغة القول بأن أغلبية الناس فى القارات الخمس يشعرون بحضور أكبر للعولمة الثقافية. فثورتا المعلومات والاتصالات تلعبان بالتأكيد دورا حاسما فى الازدياد المتواصل لانتشار معالم العولمة الثقافية شرقا وغربا وشمالا وجنوبا.

أما على مستوى التخصصات المعرفية فى العلوم الاجتماعية، فإن الاهتمام بدراسة الثقافة يتصدر اليوم العديد منها. فقد ظهر حديثا فى هاته العلوم ميدان خاص يسمى بالدراسات الثقافية Cultural Studies يركز اهتماماته على دراسة التجليات الثقافية للمجموعات البشرية.

وعند التساؤل اليوم عن فرع التخصص الطلائعى فى علمى النفس والاجتماع فإننا نجد، من ناحية، علم النفس المعرفى Cognitive Psychology (ذا العلاقة الوثيقة بالإنسان ككائن ثقافى فى المقام الأول) يحظى بمكانة الريادة بين الفروع المتخصصة فى علم النفس. ونجد، من ناحية ثانية، فرع علم الاجتماع الثقافى يأخذ اليوم صدارة متزايدة بين علماء الاجتماع.

تعطى هذه العوامل وحدها مشروعية للاهتمام بتكثيف دراسة الثقافة والمساهمة للكشف خاصة عن بعض جوانبها التى أغفلتها بحوث العلوم الاجتماعية المعاصرة. وهى جوانب، كما سوف نرى، ذات أهمية كبرى للقيام بالبحث المتعمق فى جوهر الثقافة: كبرى ميزات الجنس البشرى التى منحته السيادة فى هذا الكون.

وتطمح هذه الدراسة إلى القيام بما يسمى بالبحث الأساسى Basic Research المتعمق فى جوهر الأشياء وأسسها حول الثقافة من خلال منظور الرؤية المعرفية (الإيبستيمولوجيا) الإسلامية، وربما تكون الأولى من نوعها فى أيامنا هذه التى تطرح مفهوم الثقافة من خلال منظور معرفى إسلامى يختلف فى إيبستيمولجيته عن نظرائه فى العلوم الاجتماعية المعاصرة ولا يكتمل القيام بذلك على أسس متينة ذات مصداقية علمية دون التعرض إلى مفهوم الثقافة فى أدبيات العلوم الاجتماعية الإنسانية الغربية المعاصرة، إذ اهتمت هذه الأخيرة بالبحث فى الثقافة وتجلياتها منذ القرن التاسع عشر خاصة من طرف علمى الأنثروبولوجيا والاجتماع.

وبالطبع ستقودنا مثل هذه المنهجية إلى المقارنة بين مفهوم الثقافة فى المنظور المعرفى الإسلامى ونظيره الغربى. والدراسات المقارنة طالما تلقى أضواء جديدة على الظاهرة قيد الدرس تعزز الفهم والتفسير عند الباحثين فى العلوم الاجتماعية وبالتالى تدفع بمسيرة المعرفة العلمية إلى الأمام. ويمثل هذا الهدف الأكبر الذى يسعى البحث إلى بلوغه أو القرب منه. فطموحنا هنا يتطلع فى المقام الأول إلى المساهمة فى بناء أرضية متينة لما سماه أصحاب الاختصاص بعلم الثقافة Cuturology الذى يحتاج، فى نظرنا إلى رؤية نقدية فاحصة تشمل إيبستيمولوجيا ونظريات ومفاهيم هذا العلم حتى يمكن أن يتحسن حظه فى كسب وتعزيز رهان المصداقية العلمية الناتجة عن مثل هذا الطرح الفكرى الذى يمكن أن يساهم فى إصلاح فكر دراسة الثقافة.

الثقافة فى العلوم الاجتماعية

تعددت تعاريف علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع لمفهوم الثقافة. ويشير ذلك إلى أمرين على الأقل:

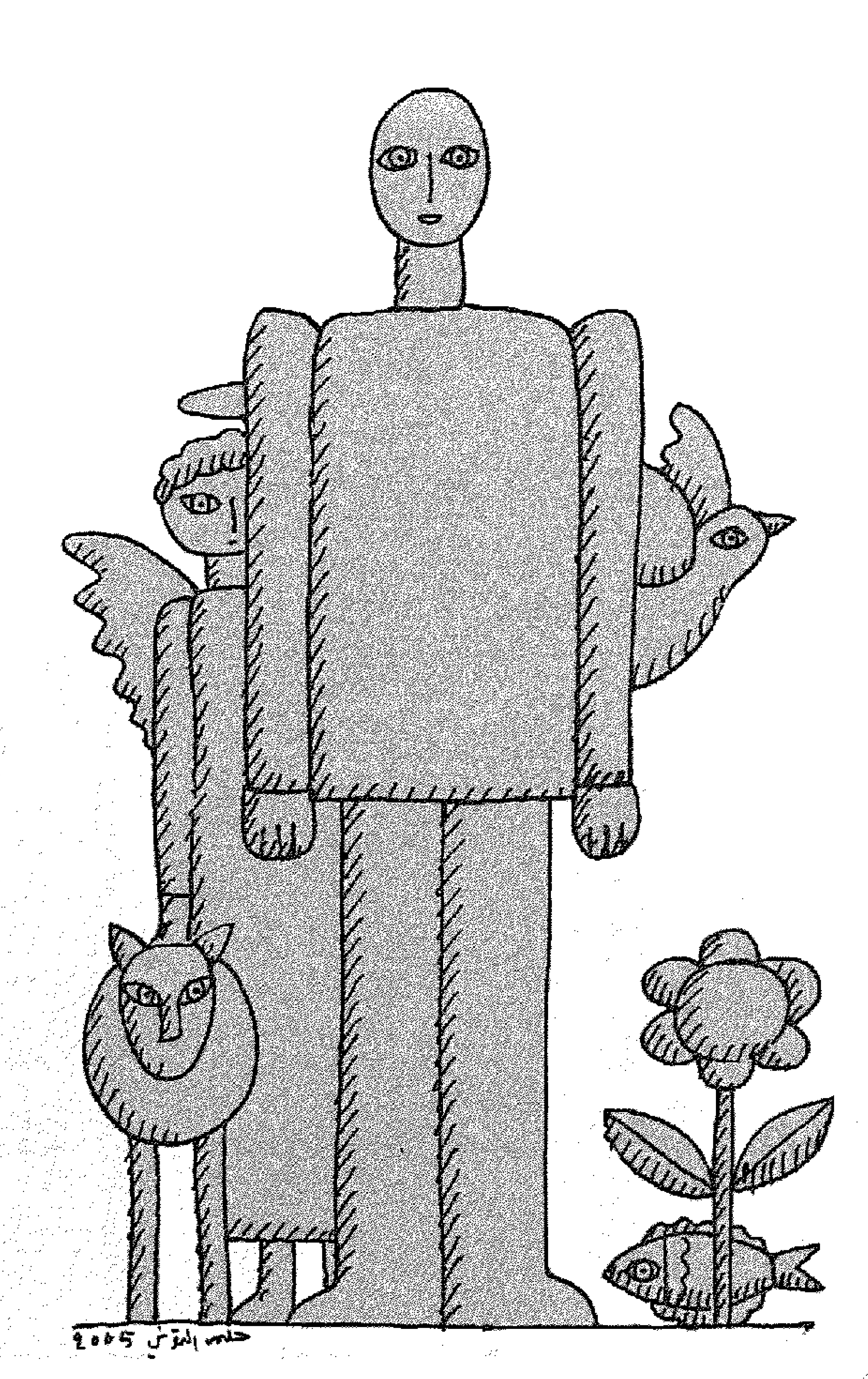
١. إما أن الثقافة ذات طبيعة يصعب تعريفها بمقاييس العلوم الاجتماعية الوضعية على الخصوص.

٢. وإما لأن الثقافة ظاهرة معقدة فى حد ذاتها.

نقتصر هنا على ذكر ثلاثة تعاريف من علمى الأنثروبولوجيا والاجتماع. فأشهر تعريف لمفهوم الثقافة أتى به عالم الأنثروبولوجيا البريطانى إدوار تيلور Edward B.Tylor فى نهاية القرن التاسع عشر. فقد جاء فى كتابه الثقافة البدائية Primitive Culture ١٨٧١ تعريف للثقافة / الحضارة يعتبر التعريف المرجع للعلوم الاجتماعية المعاصرة. فالثقافة عند تيلور هى «ذلك الكل المعقد الذى يشمل المعرفة والعقيدة والفن والتقاليد وأى قدرات وعادات أخرى يتعلمها الإنسان كعضو فى المجتمع».

أما عالم الأنثروبولوجيا الأمريكى لسلى وايت Leslie White فإنه يربط مفهوم الثقافة عند الإنسان بقدرة هذا الأخير على إعطاء معان للأشياء. ويسمى ذلك بالقدرة الرموزية ability to symbol التى تسمح للإنسان بفهم معانى الأشياء وكذلك خلقها واستعمالها. ومن ثم يعرف وايت الثقافة باعتبارها تلك القدرة الرموزية عند الإنسان ويخلص إلى القول بأنه لا يوجد إنسان بدون ثقافة ولا توجد ثقافة بدون إنسان.

وحسب عالم الأنثروبولوجيا الشهير ألفرد كروبر Alfred Kroeber فإن زملاءه الأمريكيين الذين درسوا الثقافة وعلاقتها بالشخصية Culture and Personality قد فشلوا فى إعطاء تعريف نهائى وواضح لطبيعة الثقافة. ومن ثم فالنقاش يبقى فى رأيه مفتوحا حول هذا الأمر رغم الدراسات والمؤلفات التى قام بها رواد علماء الأنثروبولوجيا الأمريكيون أمثال مارجريت ميد Margaret Mead وروث بندكت Ruth Bendict وادوارد صبير Edward Sapir ورالف لنتن Ralph Linton ; وابرام كردنر Abram Kardiner وفرنزبواس Franz Boas . ولم تقتصر المسألة على غياب تعريف أنثروبولوجى ذى



مصداقية للثقافة بل تجاوز الأمر عند البعض إلى تساؤل خطير حول صعوبة دراسة الثقافة بروح ومنهجية العلم الحديث. فعالم الأنثروبولوجيا راد كليف براون Radcliffe-Brown يرى أن ليس للثقافة حضور مادي بل لها حضور مجرد جدا. ومن ثم يتساءل آخرون مثله كيف يمكن أن يوجد علم حول شيء لا يمكن رؤيته؟ إذ لا وجود لعلم ينبني على واقع غير محسوس وغير مرئي.

تتجاوز صعوبة دراسة الثقافة عند علماء الأنثروبولوجيا تعريفها إلى جوانب أخرى مهمة فيتساءلون مثلا: هل للثقافة من وجود؟ وأين توجد الثقافة؟ وقد تنوعت إجاباتهم على تلك التساؤلات فقال البعض بأنها توجد في العقل، وذهب فريق آخر إلى أن الثقافة هي سلوك وأكد البعض الآخر بأن الثقافة هي ملمح مجرد عن السلوك ويوجد حتى من أنكر وجود الثقافة نفسها. ويتبين من كل ذلك أن الباحثين يجدون صعوبة في تحديد موضع انبثاق وجود الثقافة. ويرى عالم الأنثروبولوجيا وايت White أن الثقافة توجد على ثلاثة مستويات: توجد الثقافة في الأعضاء البشرية كالأفكار والمشاعر وغيرها وفي السلوكيات بين الأفراد وفي الأشياء وذلك وفقا لمفهومه للثقافة باعتبارها تتكون من أشياء وأحداث حقيقية قابلة للملاحظة.

أما علماء الاجتماع فقد ضيقوا من معنى مصطلح الثقافة فأصبحت تعني عندهم ما أطلقوا عليه بالأفكار الرئيسية للمجتمع والتي تشمل عقائد ورموز وقيم وأعراف المجتمع. وهذا التعريف السوسيولوجي النموذجي للثقافة نجده متداولا مثلا في معظم كتب علم الاجتماع الأمريكية الموجهة إلى طلبة الجامعات.

يشير العرض السابق الموجز لمفهوم الثقافة خاصة في علم الأنثروبولوجيا المعاصر بأن تعريف هذا المفهوم يبقى غير شفاف المعالم، من جهة، وصامتا صمتا شبه كامل، من جهة أخرى، عما نريد أن نسميه هنا بالجوانب الميتافيزيقية للعناصر الثقافية أو ما نطلق عليه نحن بالرموز الثقافية وهي اللغة والفكر والعقيدة والمعرفة / العلم والقيم والأعراف الثقافية والأساطير. ففي بقية صفحات هذه الدراسة نستعمل مفهوم الرموز الثقافية كمرادف لمفهوم الثقافة الواسع الاستعمال في العلوم الاجتماعية المعاصرة. فالرموز الثقافية تمثل عندنا وعند أغلبية الباحثين في العلوم الاجتماعية العناصر الرئيسية المميزة للجنس البشري عن بقية الأجناس الحية الأخرى.

هناك بالفعل، مثلا، غياب شبه كامل للتطرق إلى الطبيعة الميتافيزيقية للرموز الثقافية لدى علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع المعاصرين. فلا نجد عند القلة القليلة من هؤلاء إلا بعض المفردات النادرة والغامضة توحي بأن الثقافة هي عنصر بشري فوق العضوي superorganic أو أسمى منه كما ذهب إلى ذلك كل من عالم الاجتماع هربرت سبنسر Herbert Spencer وعالم الأنثروبولوجيا ألفريد كروبر Alfred Kroeber أو هي تلك الأشياء



ظل مفهوم الثقافة - وإن اختلفت اللغات - عبر التاريخ الإنساني متعدد التعريفات وغالبًا حسب زاوية النظر: سياسيًا، اجتماعيًا، فلسفيًا، لغويًا. وبالتأكيد دينيًا



إن صمت العلوم الاجتماعية الغربية عن اللمسات الميتافيزيقية للرموز الثقافية ينسف زعم هذه العلوم تبنيها الموضوعية. فحضور المعالم الميتافيزيقية، حقيقة ذاتية في صلب هذه الرموز

غير البيولوجية non biological things كما ورد على لسان عالم الأنثروبولوجيا إدوارد تيلور أو هي أشياء غير جسدية extrasomatic things، كما سماها عالم الأنثروبولوجيا لسلي وايت، أو هي أخيراً تلك الأشياء الخارجية المتجاوزة external suprabiological things لبيولوجيا الإنسان كما تبنى هذا المصطلح البعض من علماء الاجتماع.

إن هذه الإشارات القليلة والمحتشمة إلى أن الثقافة عنصر بشري يتخطى عضوية وبيولوجيا جسد الإنسان تبقى إشارات مبهمة بخصوص دلالات تلك المفردات حول طبيعة جوهر الرموز الثقافية التي يتميز بها الجنس البشري ولا يتحسن الأمر أيضا عندما ينظر بعض علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع إلى الثقافة بصفتها شيئا مجردا abstrac tion أو شيئا ليس له علاقة بالوجود «culture has no ontological reality».

وبالقصور العام عن إيضاح معاني تلك المصطلحات جاءت أدبيات العلوم الاجتماعية المعاصرة خالية من أطروحات إبيستيمولجية تحاول التعمق في كنه منظومة الرموز الثقافية. فكان الرصيد الفكري الهائل الذي جمعته العلوم الاجتماعية المعاصرة حول الثقافة رصيدا يكتفي بوصف العناصر الثقافية دون الحرص على التعمق في طبيعة الثقافة بطرح الأسئلة الإيبستيمولجية عن ذات الثقافة نفسها التي أقر جل علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع بأن عالم الثقافة عالم يختلف عن عالم بيولوجيا الإنسان كما ورد في تلك المفردات السابقة. وبناء على ذلك فإن الثقافة كمفهوم غربي معاصر كثير الاستعمال في العلوم الاجتماعية على الخصوص لم يتعامل معها بالتصور الميتافيزيقي الذي سنجده في المنظور الإسلامي كما هو مبين في الجزء الكبير لبقية صفحات هذه المقالة.

وبذلك الإغفال / الغياب لحضور اللمسات الميتافيزيقية في منظومة الرموز الثقافية تكون العلوم الاجتماعية المعاصرة. رغم ادعائها . بعيدة عن الموضوعية objectivity . إذ تعرف هذه الأخيرة على أنها تلك الحالة المعرفية التي تسمح بالتعرف على الحقيقة في حد ذاتها باستقلالية كاملة عن عقل الباحث. ومن ثم فالموضوعية هي تلك الحالة المعرفية لدى العالم التي لا تشوبها عواطف وقيم ومفاهيم ورغبات مسبقة وما يشبه ذلك بحيث تضل السبيل فلا تهتدي إلى الحقيقة الموضوعية. أي أن الموضوعية هي صفة للفكر تجعله متفقا مع الواقع. ومن هنا فالموضوعية سمة لأفكارنا الحقة. وهكذا نخلص إلى القول بأن الموضوعية هي في واقع الأمر مرادفة للحقيقة.

إن صمت العلوم الاجتماعية الغربية المعاصرة عن اللمسات الميتافيزيقية للرموز الثقافية ينسف زعم هذه العلوم تبنيها الموضوعية في دراستها للثقافة. فحضور المعالم الميتافيزيقية، حقيقة ذاتية في صلب الرموز الثقافية. إن العوامل المختلفة المؤثرة في عقول الباحثين الغربيين في العلوم الاجتماعية حالت دون قيامهم بتحليلاتهم ودراساتهم للثقافة برؤية ابيستيمولجية تعطي مشروعية كاملة لحضور اللمسات الميتافيزيقية. أي أن الرصيد الفكري الهائل حول الثقافة الذي جمعته تلك العلوم منذ القرن التاسع عشر لا يمكن أن يتمتع بمصداقية علمية لا كما تنادي بذلك تلك العلوم نفسها. لأنه يغيب، وفي أحسن الأحوال يهمش حقيقة المعالم الميتافيزيقية للرموز الثقافية. وهو بهذا الاعتبار يقدم لنا واقعا منقوصا للمواصفات الحقيقية للرموز الثقافية. وبالتالي، فهذا الرصيد الفكري يعكس بقوة دور آثار العوامل الشخصية والاجتماعية للباحثين الغربيين في العلوم الاجتماعية في تشكيل مفهوم الثقافة والتنظير حولها أكثر من اعتمادهم على الواقع الذاتي للثقافة، الأمر الذي جعل الرؤية الموضوعية للثقافة هي الضحية.

الثقافة في الرؤية المعرفية الإسلامية

وعند التساؤل عن الرؤية المعرفية الإسلامية للرموز الثقافية/ الثقافة فإن أفضل طريق لتحديد معالمها والفوز بكسب رهان جوهر طبيعتها هو الرجوع إلى القرآن الكريم المصدر الأول للإسلام في شتى المستويات.

ومن ثم فنحن نقدم هنا الرؤية المعرفية القرآنية لطبيعة الثقافة / الرموز الثقافية. وإذا نجحت قراءتنا في فهم مضمون الآيات القرآنية التي لها علاقة بالرموز الثقافية فإننا نكون قد كسبنا الرؤية المعرفية الإسلامية الأصح عن طبيعة الثقافة. بذلك نكون قد سلحنا أنفسنا بأقوم مفهوم إسلامي للثقافة يشجع الباحث على ترشيحه للمقارنة وربما المنافسة مع مفهوم الثقافة كما وقع ويقع استعماله في العلوم الاجتماعية المعاصرة. ويجوز أن تساعد هذه العملية المعرفية على بناء مفهوم للثقافة ذي مصداقية أكبر بالنسبة للباحثين المهتمين بالشأن الثقافي من وجهة الرؤية المعرفية الإسلامية على الخصوص.

إن منهجيتنا في استكشاف الرموز الثقافية وطبيعتها في النص القرآني تتكون من ثلاث خطوات:

. هل هناك إشارات واضحة في القرآن تميز الإنسان عن غيره في خلافة الله؟

. العثور على آيات قرآنية تتحدث بصراحة مطلقة عن تميز الجنس البشري عن بقية الأجناس الحية الأخرى.

. إلى أي شيء ترجع الآيات القرآنية تميز وتفوق الجنس البشري؟

١ . يحفل النص القرآني بالآيات التي تعطي مكانة خاصة ومتميزة للإنسان من بين كل المخلوقات الأخرى سواء كانت كائنات روحية كالملائكة أو حيوانات ودواب أخرى تعيش على هذه الأرض مثل الإنسان. وبعبارة أخرى فصورة الإنسان في القرآن هي صورة الكائن الفريد الذي يحتل المرتبة

الأولى من حيث الأهمية بعد الله فى هذا الكون. ومن ثم فلا منازع له على الإطلاق فى تأهله لإدارة شئون هذا العالم وأخذ مقاليد السيادة (الخلافة) فيه ولندع آيات القرآن تشخص لنا بقوة تلك المكانة الفريدة التى يتمتع بها الجنس البشرى وحده بين كل الكائنات الأخرى. ونقتصر هنا على إبراز ذلك عبر خمس حالات تحدث فيها القرآن بكل وضوح عن تميز الإنسان عن غيره من المخلوقات الأخرى.

فغى الآية ٣٠ من سورة البقرة يصف القرآن آدم الإنسان بأنه خليفة الله فى الأرض «وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة...» ولا يحتاج المرء هنا إلى شرح مدى أهمية هذا المنصب (خلافة الله فى الأرض الذى وليه الإنسان دون سواه من الملائكة والمخلوقات الأخرى على الأرض).

٢. أما ميزات الإنسان المطلقة التى تتحدث عنها الآيات القرآنية الثلاث (٣١، ٣٢، ٣٣) من نفس سورة البقرة فهى تتمثل فى اصطفاء الله لآدم بالمعرفة والعلم أكثر من غيره بما فيهم الملائكة «وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما تكتمون».

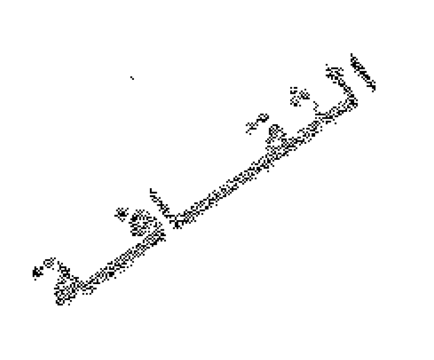
ونتيجة للميزتين السابقتين اللتين حرمت منهما الملائكة وبقية الكائنات وحصل عليهما الإنسان وحده جاء أمر الله للملائكة بالسجود لآدم دون غيره كعلامة تكريم وتمييز ثالثة لآدم «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين».

أما الآية (٧٠) من سورة الإسراء فهى تستعمل فعلى «كرم» «وفضل» لإبراز سمتى تميز بنى آدم عن غيرهم من مخلوقات الأرض «ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا».

فهذه الآيات القرآنية توضح بما لا يدع مجالا للشك بأن الإنسان كائن خاص متميز ومتفوق على غيره من مخلوقات الأرض والملائكة. ومن ثم فالرؤية القرآنية للجنس البشرى تمثل قطيعة معرفية (ابيستيمولجية) كاملة مع نظرية التطور عند داروين وأصحابه، إذ أن خلق آدم فى الرؤية القرآنية يمثل حالة خاصة فى الخلق هى فى قطيعة مع كل من الملائكة وعوالم المخلوقات هنا على الأرض. إن خلق آدم تميز عن غيره بواسطة هبة المعرفة / العلم التى أعطاها إياه الله دون سواه. فبهذه المقدرة المعرفية العالية جاءت مشروعية خلافة آدم لله بتكريمه وبتفضيله فى الأرض وسجود الملائكة له.

٣. تربط آيتان من القرآن سجود الملائكة لآدم بنفخ روح الله فيه فآية «فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين». نجدها مكررة مرتين فى سورتى الحجر (١٥) وص (٣٨).

إن التساؤل عن معنى كلمة «روحى» الواردة فى السورتين تساؤل مشروع جدا لأن الصيغة التركيبية لكلمات الآية تفيد



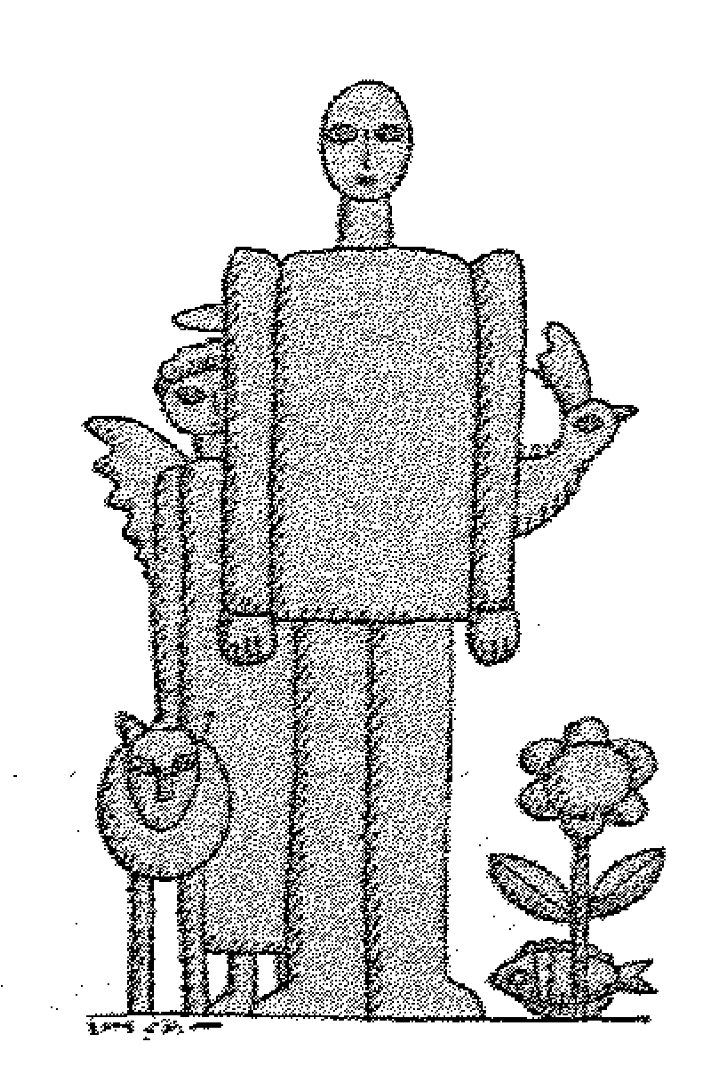


صورة الإنسان فى القرآن هى صورة الكائن الفريد الذى يحتل المرتبة الأولى من حيث الأهمية بعد الله فى هذا الكون. ومن ثم فلا منازع له على الإطلاق فى تأهله لإدارة شئون هذا العالم



المفسرون المحدثون مطالبون، بالإفادة من الرصيد المعرفى العلمى للعلوم الاجتماعية المعاصرة فى ما له علاقة بفهم سلوك الأفراد والجماعات وحركية المجتمعات





بأن طلب سجود الملائكة لآدم تلى نفخ روح الله فيه، أى أن هناك علاقة قوية، إن لم تكن سببية بين عملية نفخ الروح الإلهية فى آدم ودعوة الله الملائكة إلى السجود له. وكما هو معروف فإن كلمة الروح فى القرآن أتت بمعان مختلفة وفى طليعتها بث الحياة فى الكائنات. إن اطلاعى على عدد من كتب المفسرين لكلمة «روحى» فى هذا الآية يشير إلى أن معظمهم رأى أن لفظ «روحى» هنا يعنى القدرة على بث الحياة فى الكائنات. فتفسير الجلالين يقول... «وإضافة الروح إليه تشريف لآدم. والروح جسم لطيف يحيا به الإنسان بنفوذه فيه...». أما المفسر السورى المشهور عفيف عبد الفتاح طبارة فيقدم لنا هذا الشرح التفسيرى لمعنى كلمة «روحى» فى الآية: «ونفخت فيه من قدرتى أو بعبارة أخرى فإذا أفضت عليه ما يحيا به من الروح التى هى من أمرى... فخروا له ساجدين».

ونختم بتفسير الشيخ متولى الشعراوى أشهر المفسرين المصريين فى العصر الحديث فيصوغ معنى روح الله ونفخها فى آدم كالتالى: «والنفخ من روح الله لا يعنى أن النفخ قد تم بدفع الحياة عن طريق الهواء فى فم آدم. ولكن الأمر تمثيل لانتشار الروح فى جميع أجزاء الجسد وقد اختلف العلماء فى تعريف الروح، وأرى أنه من الأسلم عدم الخوض فى ذلك الأمر لأن الحق سبحانه هو القائل «يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا».



فواضح من مضمون هذه التفاسير أن معنى لفظ «روحى» اقتصر على مجرد معنى قدرة الله على بث الحياة فى آدم التى لا يعرف البشر أسرارها ومن ثم دعا الشيخ الشعراوى إلى تحاشى الخوض فيها.

إن الاقتصار على هذا التفسير لمعنى كلمة «روحى» لا يسمح لآدم الإنسان بتبوء منصب خلافة الله فى الأرض وسجود الملائكة له تكريما لخصوصية وتميز خلقه. فالله لم يبث الحياة فى الإنسان فقط بل بثها أيضا فى كل الكائنات الحية. وبالتالى فمجرد بث الحياة فى الإنسان لا تؤهله وحده إلى خلافة الله هنا على الأرض. فلا بد إذن من البحث عن معنى آخر للفظ «روحى» يفسر بقوة مكانة تميز الإنسان وتفوقه على بقية المخلوقات فى إدارة شئون الأرض كخليفة لله.

وهنا يأتى، فى رأينا، دور العلوم الاجتماعية فى مساعدة مفسرى القرآن وهديهم إلى المعنى المناسب الذى ينبغى أن يعطى إلى كلمة «روحى» فى آية «فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين». فالكثير من المفسرين المحدثين يستعينون باكتشافات العلوم الحديثة فى التفسير للعديد من الآيات القرآنية التى لها علاقة بخلق الإنسان وفهم عمل مخ وجسم الإنسان أو لها علاقة بالظواهر الطبيعية فى الكون مثل الشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار والبراكين والزلازل، مما عزز من فكرة إعجاز القرآن. فازدادت المؤلفات وكثر انعقاد الندوات والمؤتمرات فى هذا الميدان فى العالم الإسلامى الحديث.

وإننا نتفق مع المفكر الإسلامى وعالم الجيولوجيا الكبير الدكتور زغلول النجار الذى يؤكد على أن فهم الكثير من الآيات القرآنية لا يمكن أن يتم بدون الاعتماد على الاكتشافات العلمية ذات المصداقية العالية حول الإنسان والظواهر الطبيعية للكون.

والمفسرون المحدثون مطالبون هم أيضا، وبنفس الدرجة، بالإفادة من الرصيد المعرفى العلمى للعلوم الاجتماعية المعاصرة فى ما له علاقة بفهم سلوك الأفراد والجماعات وحركية المجتمعات والعالم الثقافية البشرية. فهذه العلوم تساعد بالتأكيد على القرب من معنى كلمة «روحى» فى الآية المشار إليها أعلاه. فعلوم الأنثروبولوجيا والاجتماع والنفس تجمع على أن الإنسان يتميز ويتفوق على غيره من الكائنات الأخرى بما تسميه تلك العلوم بالثقافة Culture أو ما أطلقنا عليه نحن الرموز الثقافية: اللغة، الفكر، المعرفة / العلم، الدين، القيم والأعراف الثقافية... أى أن الجنس البشرى ينفرد بتلك المنظومة من الرموز الثقافية وهى التى أهلته وحده فى الماضى وتؤهله اليوم وفى المستقبل إلى لعب دور خليفة الله فى الأرض. وبعبارة أخرى، فمعنى «نفخت فيه من روحى» تصبح يدل على أن النفخة الإلهية فى آدم هى فى المقام الأول نفخة ثقافية بالمعنى المعاصر الذى تعطيه العلوم الاجتماعية لمصطلح الثقافة. إذ بهذه الأخيرة يفسر علماء العلوم الاجتماعية تميز الإنسان وسيادته فى هذا العالم على بقية المخلوقات. ومن ثم... «نفخت فيه من روحى» فلا بد أن يعنى أولا وبالذات نفخة الرموز الثقافية فى آدم وحده التى أعطته، دون سواه، مقاليد الخلافة فى الأرض وما تبعها من سجود الملائكة له. بهذه القراءة الثقافية لمعنى كلمة «روحى» فى الآية يتضح مدى تحسن مصداقية تفسير معانى آيات القرآن لو استعان المفسرون بالرصيد العلمى الحديث لكل من علوم الطبيعة وعلوم الإنسان والمجتمع على حد السواء.

الرؤية المعرفية القرآنية للثقافة

يتجلى مما سبق أن للقرآن رؤية معرفية (ابيستيمولجية) بخصوص الرموز الثقافية كمعلم مميز للجنس البشرى. فالنفخة الثقافية الإلهية فى آدم دون غيره هى إذن نفخة ذات جذور وطبيعة متعالية / ميتافيزيقية حسب الرؤية القرآنية. فمصدرها ليس عالم الأرض وإنما عالم السماء الذى حرم منها كائنات الأرض ووهبها فقط للإنسان. فالقرآن يتحدث بصراحة كاملة عن الطبيعة الميتافيزيقية للنفخة الثقافية التى اختص بها الإنسان وحده فيقول «فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين». أى أن النفخة الثقافية فى صميم آدم صادرة من الذات الإلهية نفسها. فلا مجال إذن للشك فى الرؤية القرآنية فى جوهر الطبيعة الماورائية (الميتافيزيقية) للرموز الثقافية

التي يتميز بها الجنس البشري عن سواه من الأجناس الحية.

وفي المقابل، فإن جل أدبيات العلوم الاجتماعية الغربية المعاصرة حول مفهوم الثقافة تصمت صمتا شبه كامل عن الجوانب الميتافيزيقية للثقافة. فهي تدرس وتحلل ثقافات المجتمعات بطريقة وصفية أو وضعية Positivist دون أن تهتم بإثارة الأسئلة المعرفية (الإبيستيمولجية) عن طبيعة الثقافة كمعلم ينفرد به أفراد الجنس البشري ومجتمعاته. لقد نجحت تلك العلوم في إرساء رصيد علمي ضخم حول الثقافة من الدراسات المتعددة لعلماء الأنثروبولوجيا والاجتماع على الخصوص في القرن العشرين وهو رصيد فكري يغلب عليه الوصف الوضعي للثقافة وعناصرها. فلا يكاد المرء يجد أي إشارة واضحة، كما هو الأمر في الرؤية المعرفية الإسلامية، إلى الطبيعة الميتافيزيقية للرموز الثقافية. أي أن هذه الأخيرة وقعت دراستها في علمي الأنثروبولوجيا والاجتماع الغربيين بالمنظور الوضعي أو غيره الذي ينفر من النظر في ملامح الأشياء التي لا تخضع إلى عالم الحس والكم. فلا مناص، من وجهة المنظور العلمي الموضوعي، أن يكون لهذا الموقف المنكر حضور اللمسات الميتافيزيقية. رغم وجودها القوي. في صلب الرموز الثقافية انعكاسات جد سلبية على مصداقية المفاهيم والنظريات الكثيرة التي تستعملها العلوم الاجتماعية المعاصرة في دراسة الثقافة وتجليات آثارها في سلوك الأفراد وحركية المجتمعات والحضارات. فالمأخذ الإبيستيمولوجي على هذه العلوم مأخذ خطير، إذ أنه يتجاهل معلما جوهريا للرموز الثقافية. فكيف ينتظر كسب رهان الثقة في ما تتوصل إليه بحوث العلوم الاجتماعية التي تدرس الثقافة عارية. بسبب أبيستيمولجيتها. من معالمها الجوهرية والمتمثلة في لمساتها الميتافيزيقية؟ ومن هنا نرى أن لا تقتصر عودة العلوم الاجتماعية الغربية اليوم على الاهتمام بدراسة العوامل الدينية لفهم سلوكيات الأفراد وحركية المجتمعات، بل ينبغي أيضا أن تصبح، مثلا، الرؤية المعرفية (الإبيستيمولوجيا) للديانات مصدرا لفهم طبيعة الأشياء والتنظير حولها في هذه العلوم كما تحاول هذه الدراسة إبراز ذلك حول طبيعة الثقافة.

وبالنظر المتعمق إلى جوهر طبيعة الرموز الثقافية عند الجنس البشري تبين أنها تتسم بلمسات متعالية/ ميتافيزيقية تجعلها تختلف عن صفات مكونات الجسم البشري وعالم المادة. فهوية الإنسان هي إذن هوية ثنائية: منظومة الرموز الثقافية، من ناحية، والعناصر العضوية البيولوجية والفيزيولوجية، من ناحية أخرى. وتبقى الرموز الثقافية هي الطرف الأبرز والأكثر حسما في تحديد هوية الإنسان ومن ثم سلوكه. ولشرح ما نعنيه باللمسات المتعالية/ الميتافيزيقية للرموز الثقافية، نقتصر هنا على ذكر خمس منها نعتبرها رئيسية:

١. ليس للرموز الثقافية وزن وحجم كما هو الأمر في المكونات البيولوجية والفيزيولوجية للكائنات الحية وعالم المادة. إن فقدان الرموز الثقافية لعاملي الوزن والحجم يبدو أنه الأساس في تأهل الرموز الثقافية للاتصاف بالأبعاد المتعالية، الأمر الذي يجعل عالمها مختلفا عن كل من العناصر البيولوجية والفيزيولوجية وعالم العناصر المادية.

٢. تتمتع الرموز الثقافية بسهولة سرعة انتقالها عبر المكان والزمان بسبب ما ورد في ١. ينطبق هذا بصورة مجسمة كاملة على استعمال الفاكس اليوم. فما يرسل في لمح البصر بهذا الأخير من رسائل ووثائق كان يحتاج في الماضي القريب إلى أيام أو أسابيع أو شهور حتى يصل إلى المرسل إليه بسبب إرساله بالبريد الجوي أو البري أو البحري. فلماذا هذا الفرق المدهش بين الفاكس والبريد في سرعة وصول نفس الشيء المكتوب المرسل؟ لأن الإرسال بالفاكس يلغي بكل بساطة صفتي الحجم والوزن من الشيء المرسل.

يجوز أيضا تعميم قانون سهولة سرعة الانتقال على كافة الرموز الثقافية الخالية من عاملي الحجم والوزن كالكلمة المنطوقة المرسلة عبر صوت الإنسان أو عبر الهاتف أو عبر المذياع أو التلفزيون أو أجهزة الاتصال الأخرى الحديثة. وينطبق ذلك أيضا على كل من الكلمة المكتوبة والمرسلة إلكترونيا بواسطة الإنترنت وعلى سرعة انتقال الصورة الحية أو الجامدة اليوم في لمح البصر عبر آلاف الأميال. ويرجع ذلك في المقام الأول إلى نزع عاملي الحجم والوزن منهما. فالكلمة المنطوقة والمرسلة مكتوبة على الإنترنت وصورة الفضائيات تفتقد كلها عاملي الوزن والحجم.

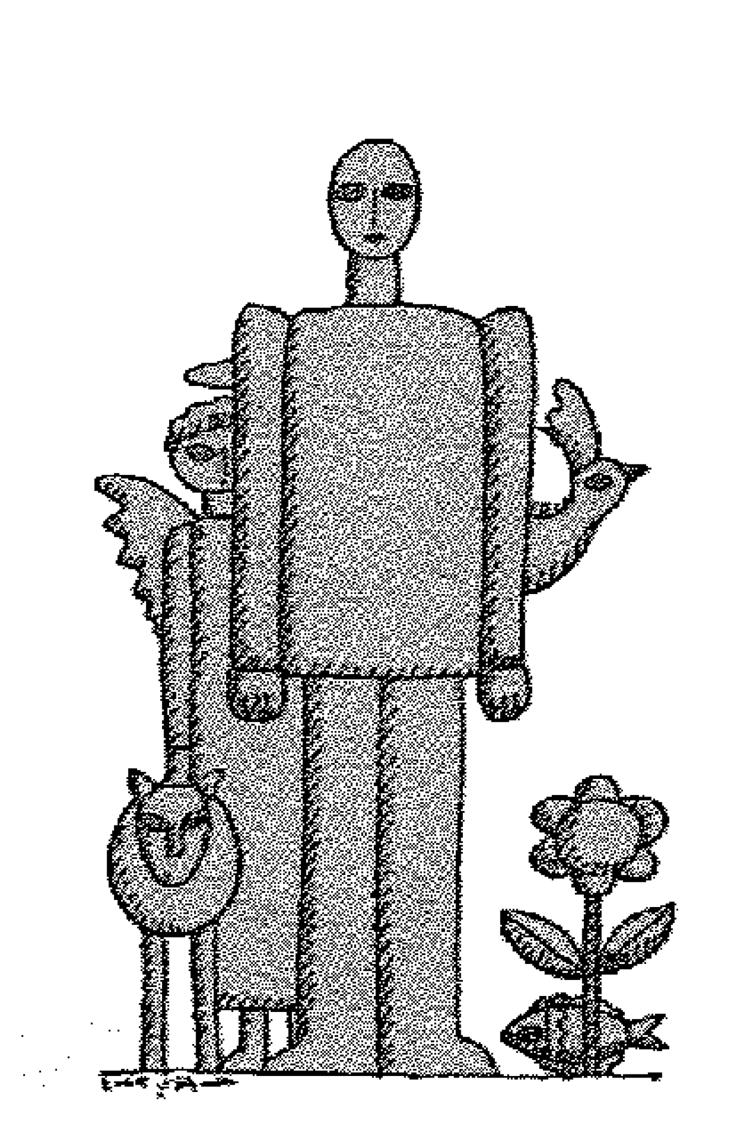
٣. لا تتأثر الرموز الثقافية بعملية النقصان عندما نعطي منها للآخرين كما يحدث في عناصر عالم المادة. فإعطاء الآخرين خمسين دينارا من رأس مالنا وإردباً من قمحنا وعمارة من عماراتنا... كلها عمليات تنقص مما هو عندنا من ممتلكات مادية. أما إذا علّمنا (منحنا) الآخرين شيئا من معرفتنا وعلمنا وفكرنا وعقيدتنا وقيمنا الثقافية ولغتنا... فإن ذلك لا ينقص شيئا من كل واحد من رموزنا الثقافية هذه.

٤. للرموز الثقافية قدرة كبيرة على البقاء طويلا عبر الزمان في المجتمعات البشرية إذ قد يصل مدى بقائها درجة الخلود. فاللغة، وهي أم الرموز الثقافية، لها قدرة فائقة على تخليد ما يكتب بها بغض النظر عن محتوى المكتوب. فالفكر البشري لا يكتب له الاستمرار والخلود الكاملان دون أن تحتضن مضمونه اللغات المكتوبة. فما كان لفكر كل من إخناتون وسقراط وأرسطو وابن رشد والغزالي وابن خلدون وروسو وديكارت وهيوم وغيرهم من المفكرين والعلماء... أن يتمتع بمدى حياة طويل من البقاء بدون تسجيله في حروف وكلمات اللغات البشرية المتنوعة التي تؤهله لكسب رهان حتى الخلود. أما على مستوى الحفاظ وتخليد التراث الجماعي للمجموعات البشرية، فإن للغات دورا بارزا

الثقافة

ما كان لفكر كل من إخناتون وسقراط وأرسطو وابن رشد والغزالي وابن خلدون... أن يتمتع بمدى حياة طويل من البقاء بدون تسجيله في حروف وكلمات اللغات البشرية المتنوعة

معنى «نفخت فيه من روحي» يدل على أن النفخة الإلهية في آدم هي في المقام الأول نفخة ثقافية بالمعنى المعاصر الذي تعطيه العلوم الاجتماعية لمصطلح الثقافة



بهذا الشأن. فاللغات المكتوبة على الخصوص تمكن المجموعات البشرية من تسجيل ذاكرتها الجماعية والمحافظة عليها وتخليدها رغم اندثار وجودها العضوي والبيولوجي ككائنات حية ورغم تغييرها للمكان وعيش أجيالها المتلاحقة في عصور غير عصورها. فمحافظة لغة الضاد محافظة كاملة على النص القرآني خير مثال على مقدرة اللغة التخليدية بالنسبة لحماية الذاكرة والتراث الجماعيين من واقع الفناء المتأثر كثيرا بعوامل الزمن والبيئة والوجود الجسمي العضوي البيولوجي لذات تلك المجموعات البشرية.



ولا تقتصر هذه الأبعاد المتعالية/ المتافيزيقية للغة المكتوبة فقط، بل إن الاستعمال الشفوي للغة يقترن هو الآخر بدلالات متعالية/ ميتافيزيقية. أفلا يلجأ البشر من كل العقائد والديانات إلى استعمال الكلمة المنطوقة في تأملاتهم الكونية وتضرعاتهم وابتهالاتهم إلى آلهتهم أو أي شيء آخر يعتقدون في أزليته أو قدسيته؟ فبانفرادهم بنوعية اللغة البشرية عن بقية الكائنات الحية الأخرى يستطيع أفراد الجنس البشري أن يحرروا أنفسهم من العراقيل المادية لهذا العالم ويقيموا علاقات وروابط مع العالم المتعالي/ الميتافيزيقي. فبهبة اللغة البشرية ينجح بنو البشر في فك حصار المشاغل الدنيوية والآنية. وهكذا يصبح لقاؤهم بالبعد الميتافيزيقي في شتى مظاهره أمرا لا مفر منه، فهم يرونه في أحلامهم ويحفل به خيالهم ويلتقون به عن قرب في تجاربهم الدينية.

٥. تملك الرموز الثقافية قوة هائلة تشحن الأفراد والمجموعات بطاقات كبيرة تمكن أصحابها من الانتصار على أكبر التحديات بكل أصنافها المتعددة. فعلى سبيل المثال، قد أثبتت قيم الحرية والعدالة والمساواة عبر التاريخ البشري الطويل على أنها رموز ثقافية قادرة على شحن الأفراد والمجموعات بطاقات هادرة جبارة تشبه إلى حد ما القوى الماورائية الصاعقة التي لا يستطيع اعتراض سبيلها أحد. وهذا ما يوحي به قول الشاعر العربي التونسي أبي القاسم الشابي:

إذا الشعب يوما أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القدر

فمصدر إرادة الشعوب الحقة يكمن في عالم الرموز الثقافية. أي عندما يجمع الناس أمرهم للدفاع عن الحرية والمساواة والعدل وغيرها من القيم البشرية وعن حقهم في الاستقلال واحترام الذات يصبح رد فعلهم كرد فعل القدر الذي لا يبقي ولا يذر. وهذا ما يفسر لجوء الناس إلى الحديث عن المعجزات في بعض الأحداث الفردية أو الجماعية التي تدخل سجل التاريخ بالرغم من عدم توفر المعطيات المادية لذلك. إنها تجليات لأثر الرموز الثقافية الحاسم في ميلاد وتفعيل حركية السلوكيات البشرية في المجتمعات والحضارات الإنسانية على مر العصور.



يونان لبيب رزق

باشا.. خديو سلطان.. ملك

البلاط الملكى فى مصر

في يوم ١٤ مارس عام ١٩٢٢ نشرت الوقائع المصرية «أمرا سلطانيا كريما»، كان آخر الأوامر السلطانية.. جاء هذا الأمر على شكل خطاب لرئيس الوزراء عبد الخالق ثروت باشا من السلطان فؤاد، وتضمن فقرة موجهة «إلى شعبنا الكريم»، كان نصها:

«لقد من الله علينا بأن جعل استقلال البلاد على يدنا وإنا لنبتهل إلى المولى عز وجل بأخلص الشكر، وأجمل الحمد على ذلك، ونعلن على ملأ العالم أن مصر منذ اليوم دولة متمتعة بالسيادة والاستقلال ونتخذ لنفسنا لقب صاحب الجلالة ملك مصر ليكون لبلادنا ما يتفق مع استقلالها من مظاهر الشخصية الدولية وأسباب العزة القومية.

«وهانحن نشهد الله ونشهد أمتنا فى هذه الساعة العظمى أننا لن نألو جهدا فى السعى بكل ما أوتينا من قوة وصدق عزم لخير بلادنا المحبوبة والعمل على إسعاد شعبنا الكريم.

«صدر بسراى عابدين فى ١٦ رجب سنة ١٣٤٠ (١٥ مارس سنة ١٩٢٢). رقم ١٨ سنة ١٩٢٢»

«فؤاد»

وكان هذا الأمر الكريم نهاية قصة طويلة وبداية قصة قصيرة.. الأولى: بدأت قبل ١١٧ سنة، وعلى وجه التحديد فى عام ١٨٠٥، بعد أن تولى محمد على باشا حكم مصر، ونجح من خلال صراعات دموية مع السلطان العثمانى فى أن يجعل الحكم وراثيا فى أسرته، مما تقرر بمقتضى تسوية ١٨٤٠ - ١٨٤١، والثانية: انتهت بعد ٣١ عاما حين ألغى النظام الملكى عام ١٩٥٣، بعد قيام ثورة يوليو بأقل من سنة واحدة.

وقد تعددت ألقاب الحاكم من أبناء الأسرة العلوية خلال المرحلة الأولى: باشا، خديو، سلطان، وكان لكل من هذه الألقاب قصة..

اللقب الأول تمتع به كل من محمد على وإبراهيم وعباس الأول وسعيد وإسماعيل، وكان هو ذات اللقب الذى يتمتع به سائر ولاة الإمبراطورية العثمانية حيث انتشر الباشوات فى عديد من أرجاء الإمبراطورية العجوز، ولم يكن الأمر مناسبا بالنسبة لمصر بعد أن حصلت على وضعية خاصة مغايرة لوضع الولايات الأخرى بعد حروب الشام خلال ثلاثينيات القرن التاسع عشر.

حاول إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) أن يجعل لقب الحاكم من أبناء الأسرة متفقا مع هذه الوضعية المغايرة، وهو ما نجح فيه بعد أربع سنوات من اعتلائه لكرسى الحكم فى مصر حين حصل من الباب العالى على حق التلقيب بالخديو ضمن مزايا عديدة نالها من السلطان العثمانى، الأمر الذى أصبحت معه مصر دولة شبه مستقلة.

صحيح أن هذا الحاكم الأشهر فى التاريخ المصرى الحديث قد دفع «دم قلبه»، أو بالأحرى «دم قلب مصر» للحصول على تلك المزايا، غير أن ما فعله، وإن زاد من حجم الديون وقاد فى النهاية إلى زيادة التدخل الأجنبى وخلعه عن مسند الخديوية. فقد أدى إلى تقطيع كثير من روابط التبعية بين بلاده وبين الدولة العلية، الأمر الذى قاد صاحبنا إلى أن يتصرف فى كثير من الأمور كحاكم مستقل.

من تلك الأمور، فيما يتصل بوصفه حاكما، أن الرجل كان أول من طبق فكرة البلاط Court التى كانت قد عرفتها أوربا مع قيام الممالك القومية خلال القرن التاسع عشر، والتى بلغت أوجها فى عصر الملك لويس الرابع عشر فى فرنسا (١٦٤٣ - ١٧١٥)، وهو ما بدأ إسماعيل فى القيام به بعد بناء عدد من القصور، وانتقاله بعد فترة غير طويلة من القلعة، من حيث كان يحكم الباشوات إلى سراى عابدين، التى أصبحت مقرا للحكم وموضعا للمناسبات الاجتماعية ومؤسسة لها موظفوها الذين عرفوا برجال القصر.



الملاحظ أن هذه المؤسسة ظلت تنمو على عهد خلفاء الخديو المرموق، ويقدم لنا أحد رجالها، أحمد شفيق باشا، وصفا تفصيليا لها فى كتابه المعروف «مذكراتى فى نصف قرن» نتعرف من خلاله على كثير من تفاصيل هذا البلاط الذى اكتسب اسما عربيا.. «المعية السنية»، أى أولئك العاملين (مع) سيد قصر عابدين.

والذى تميز عن سائر باشوات الدولة بلقب صاحب السمو الخديو المعظم.

التسمية الثالثة لحكام مصر من أبناء أسرة محمد على أطلقت فى أواخر عام ١٩١٤، نتيجة لهذا الحدث الجلل الذى تمثل فى إعلان الحماية البريطانية على مصر وقطع علاقة التبعية القانونية التى ظلت تربط بينها وبين حكومة الأستانة بامتداد القرون الأربعة السابقة منذ أن نجح السلطان سليم الأول فى دخول القاهرة عام ١٥١٧.

وقد جاءت هذه التسمية بعد قرار حكومة لندن خلع الخديو عباس حلمى الثانى الذى لم تطمئن إلى بقائه على عرش البلاد بعد تاريخه الحافل بالصراعات بينه وبين ممثلى الدولة المحتلة فى العاصمة المصرية، وبعد أن بدا صعوبة زحزحة ولائه للدولة العثمانية التى كانت قد دخلت وقتئذ الحرب العظمى فى صف المعسكر المعادى لبريطانيا والمعروف بدول الوسط.

التسمية كانت (بالسلطان)، والتى لم تأت اعتباطا بل بعد مشاورات عديدة بين إدارات وزارة الخارجية البريطانية من جانب، وبين الأمير حسين كامل، ابن إسماعيل وعم الخديو المخلوع، والمستر شيتام Cheetham ممثل الحكومة البريطانية فى القاهرة، وذلك بعد أن تم ترشيح الأمير ليحل محل ابن أخيه القابع فى الأستانة.

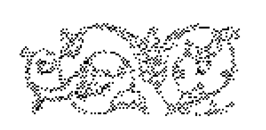
فمن ناحية: لم يكن مقبولا أن يتسمى الحاكم المصرى الجديد بالخديوى بعد إنهاء التبعية المصرية للدولة العلية بحكم تركية اللقب، مما كان يشير إلى أن استمراره يعنى الإبقاء على أحد مظاهر تلك التبعية، هذا فضلا عن تخوف السلطات البريطانية من أن تسمية الحاكم الجديد بنفس اللقب قد يعنى وجود «خديويين» وما يمكن أن يترتب على ذلك من البحث عن الشرعى بينهما، وهى مقارنة يمكن أن تنتهى بفوز عباس على عمه، بحكم أنه حصل على لقبه بفرمان سلطانى وليس بقرار من وزارة الخارجية البريطانية.

من ناحية أخرى: إمعانا فى قطع العلاقات بين القاهرة والأستانة فقد تقرر أن يكون اللقب البديل للحاكم المصرى الجديد «السلطان»، وهو نفس اللقب الذى يتمتع به الإمبراطور العثمانى، مما كان يعنى ببساطة استحالة وجود «سلطانين» فى دولة واحدة.

غير أن الحاكمين، الجالس على عرش الدولة العلية والجالس على عرش مصر، قد اختلفا فى ألفاظ التفخيم الملحقة باللقب، فبينما كان سلطان

صفحات من كتاب:
«فؤاد الأول.. المعلوم والمجهول»
يونان لبيب رزق
يصدر قريبا عن دار الشروق

الجالس على عرش الدولة العلية والجالس على عرش مصر، اختلفا فى ألفاظ التفخيم الملحقة باللقب، فبينما كان سلطان الأستانة «صاحب جلالة»، لم يحظ سلطان مصر سوى بوصف «صاحب العظمة»



الأستانة «صاحب جلالة»، لم يحظ سلطان مصر سوى بوصف «صاحب العظمة»، وهى تسمية لها قصة..

ذلك أنه بعد إعلان الحماية، وبعد حصول حسين كامل على لقب السلطان جرت مشاورات حول خيارات التفخيم التى تلحق باللقب .. صاحب الجلالة، وهو الخيار الذى استبعد حيث رأى المسئولون البريطانيون عدم لياقة أن يتمتع حاكم البلد المحمى بنفس لقب ملك بريطانيا، وهى الدولة الحامية، أو أن يبقى لفظ التفخيم صاحب السمو، وهو ما رفضه البرنس حسين كامل بحكم أن عديدا من أمراء الأسرة الحاكمة يتمتعون بهذا اللقب، وأنه من الأفضل أن يتميز عنهم بتفخيم مغاير، وجاء اختيار تسمية صاحب العظمة بمبادرة من حسين كامل نفسه، ولم تجد الخارجية البريطانية بأسا فى القبول بها.

على أى الأحوال كان لقب «عظمة السلطان» أقصر الألقاب عمرا فى تاريخ أسرة محمد على، فقد استمر لأقل من ثمانى سنوات .. ثلاث منها هى عهد السلطان حسين كامل، والخمس الأخرى هى السنوات الأولى من عهد فؤاد الذى تمتع باللقبين .. السلطان ثم الملك.

ويشير الإطلاع على الوثائق السرية البريطانية أنه لم تكن هناك ثمة مشكلة فى تغيير لقب الحاكم المصرى عام ١٩٢٢ مثل تلك التى نشبت عند تغيير ذلك اللقب قبل ثمانى سنوات، فقد جاء هذا التغيير بمبادرة من السلطان فؤاد ودونما اعتراض من جانب المسئولين البريطانيين فى القاهرة، ولعدد من الأسباب ..



منها أن هذا اللقب كان قد شاع خلال الفترة التى أعقبت الحرب العظمى فى العالم العربى، الشريف حسين الذى أصبح ملكا على الحجاز بعد ثورته على الدولة العثمانية المعروفة باسم الثورة العربية الكبرى، والأمير فيصل الذى أصبح ملكا على سوريا ثم العراق فى نفس الفترة، ولم يكن من المتصور أن يتمتع حكام مثل تلك الدول الناشئة بهذا اللقب ولا يتمتع به أبناء أسرة محمد على فى مصر بعد أن قضوا فى سدة الحكم تلك الفترة الطويلة التى بدأت منذ

الملك أحمد فؤاد



مطلع القرن التاسع عشر وحتى الربع الأول من القرن التالى.

ومنها أنه بعد إسقاط الحماية عن البلاد بمقتضى تصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ فقد سقطت معها الحجة البريطانية برفض تلقيب الحاكم المصرى «بصاحب الجلالة الملك» لئلا يطاول الجالس على عرش الدولة المتبوعة، فمن الناحية القانونية على الأقل لم يعد هناك تابع ومتبوع، كما كان الحال عند إعلان الحماية قبل نحو ثمانى سنوات.

المهم أنه مع الأمر السلطانى رقم ١٨ لسنة ١٩٢٢ وهو آخر تلك الأوامر، بدأ عصر جديد بأوامر ملكية، وبتطوير كبير فى المؤسسة الحاكمة التى جاء على رأسها فؤاد ثم فاروق، الأمر الذى يستحق المتابعة ..



من الناحية الدولية، وفى نفس يوم الأمر السلطانى، بعث رئيس الوزراء عبدالخالق باشا ثروت، بصفته وزيرا للخارجية بمنشور دورى إلى ممثلى الدول فى القاهرة ضمنه ترجمة النطق الملكى على أثر إلغاء الحماية البريطانية على مصر معلنا به أن مصر أصبحت دولة متمتعة بالسيادة والاستقلال وأن السلطان اتخذ لنفسه لقب صاحب الجلالة ملك مصر «وإننى أرجوكم التكرم بتبليغ هذا النطق إلى حكومتكم وانتهز هذه الفرصة لأكرر لجنابكم عظيم احترامى»!

وكان رد الملك جورج الخامس «ملك المملكة المتحدة وإمبراطور الهند» أول ما وصل «إلى جلالة الملك فؤاد»، والذى أهداه فيه صادق التهانى «وأرجو من صميم القلب أن تسعد بلادكم بثمار الاستقلال أزمانا طويلة تمنيت وجودها بين بريطانيا العظمى ومصر»، وجاءت أسبقية الرد وصياغته على هذا النحو مقصودة من جانب وزارة الخارجية البريطانية، فيما تشير إليه الوثائق البريطانية السرية.

تتابعت بعد ذلك الردود من عواهل الدول التى وصلها منشور الحكومة المصرية .. أولها جاء من ألبير ملك بلجيكا متضمنا التهنئة لفؤاد بالعرش الملكى «وأرجو من صميم فؤادى أن تكون أيامكم مقرونة بالسعادة وأن تتمتع مملكتكم بالرفاهية»!، تبعها برقيات أخرى وإن اختلفت فى الألفاظ إلا أنها

كانت تحمل نفس المضمون .. من قسطنطين ملك اليونان وهاكون ملك النرويج ثم سائر الملوك والأمراء.

أما على المستوى المصرى، فقد كانت المسألة أكبر كثيرا حيث جرت الاحتفالات فى سائر المدن المصرية نختار منها توصيف الاحتفالين اللذين أجريا فى القاهرة والإسكندرية ..

احتفال العاصمة جرى فى مسجد محمد على بالقلعة يوم الجمعة ١٧ مارس الذى عطلت فيه الشعائر الدينية من أواخر سنة ١٩١٤ «فوزعت المحافظة نحو ١٥٠٠ تذكرة على الأمراء والوزراء والعلماء والأعيان وفرشت الأرض التى يمر منها الموكب الملكى من ميدان الناصر صلاح الدين إلى باب المسجد بالرمل الأصفر وزين بالأعلام وفرشت الأرصفة فى مدخل المسجد بالسجاجيد الفاخرة. وأوقفت حكمدارية القاهرة فصائل من البوليس داخل القلعة وفى الطرق الأخرى».

وتستطرد الصحف الصادرة فى اليوم التالى فى وصف الاحتفال فتقول أن الكبراء والعلماء أخذوا يفدون على المسجد بالسيارات والعربات «وقبل الساعة ١٢ بقليل أقبل حضرة صاحب الجلالة ملك مصر فاستقبل جلالته حضرات أصحاب الدولة والمعالى الوزراء الحاليين والسابقين وغيرهم»، وتصف بعد ذلك الاحتفال حتى ركب «جلالته وبمعيته حضرة صاحب المعالى كبير الأمناء» عائدين إلى عابدين.

من الإسكندرية يبعث مكاتب الأهرام برسالة يصف فيها احتفال الثغر والذى بدأ بإطلاق مائة مدفع ومدفع «وقد دعا سعادة محمد حداية باشا محافظ المدينة جمهورا من كبار موظفى الحكومة والعلماء والقسوس والقضاة والأعيان والأدباء والتجار لسماع تلاوة الأمر الكريم الذى أصدره (فؤاد الأول) الجالس على عرش مصر معلنا فيه إلى الملأ أن مصر غدت من هذا اليوم دولة مستقلة ذات سيادة متخذا لنفسه لقب صاحب الجلالة ملك مصر بدلا من صاحب العظمة سلطان مصر».





الملكـــــة نــــازلــى

فى الثانية عشرة ظهرا اكتظت دار المحافظة بالمدعوين من موظفى دوائر الحكومة والأعيان والتجار وكان بين الحاضرين «بعض كبار العلماء وقضاة المحكمة الشرعية وكهنة الكنائس القبطية وبعض محررى الصحف المحلية، فلما انتظم عقد الجلوس وقف حداية باشا وتلا رسالة جلالة ملك مصر إلى شعبه فتلقاها المجتمعون بإصغاء تام».

وتقرر جريدة الأهرام فى تغطيتها لتلك الاحتفالات أن «المدينة كانت هادئة وقد نشرت الرايات فوق الدور الرسمية وأكثر المحال التجارية فى الشوارع المركزية»، مما يعنى افتقارها للشعبية، فلم يكن المصريون مستعدين للاحتفال بإعلان فؤاد ملكا بينما سعد باشا رهن المنفى.

ربما كان أهم ما بقى من هذا الاحتفال القصيدة الطويلة التى وضعها أحمد شوقى ونشرتها الأهرام فى صفحتها الأولى يوم ٣١ مارس وكان مما جاء فيها:

باه الملوك بهذا التاج إن له
فى جوهر الشمس لا فى الماس منتسبا
وته عليهم بعرش غير ذي لدة
من عهد خوفو على الماء استوى عجبا
لو استطعنا لزدنا فيه قائمة
ولاتخذنا له أم السها عتبا

فبينما احتفظت دواوين شوقى المطبوعة بتلك القصيدة فقد راح ذكر الاحتفالات فى طى النسيان !



شرع «صاحب الجلالة ملك مصر» بعد ذلك فى ترتيب شئون البلاط الأمر الذى تضمنته مجموعة من الأوامر الملكية التى نشرتها الوقائع المصرية، صدر أولها فى ١٣ أبريل سنة ١٩٢٢ بشأن «نظام الوراثة فى بيت محمد على»، وقد تضمن ثلاث عشرة مادة ..

تنظم المادة الأولى طريقة انتقال ولاية الملك «من صاحب العرش إلى أكبر أبنائه ثم إلى أكبر أبناء ذلك الابن الأكبر وهكذا طبقة بعد طبقة، وإذا توفى أكبر الأبناء قبل أن ينتقل إليه الملك كانت الولاية إلى أكبر أبنائه ولو كان للمتوفى إخوة. ويشترط فى كل الأحوال أن يولد الأبناء من زوجة شرعية. فولاية الملك من بعدنا لولدنا المحبوب الأمير فاروق».

فى حالة عدم وجود الابن نصت المادة الثالثة أن يئول العرش إلى «أكبر أبناء الإخوة الآخرين فإن لم يكن لأكبر إخوته الآخرين حسب ترتيب سن الإخوة». غير أن هذه المادة استثنت الخديو السابق عباس حلمى «فلا تثبت له ولاية الملك على أن هذا الاستثناء لا يتعداه إلى أبنائه وذريته».

المادتان الخامسة والسابعة تضمنتا بعض المحظورات، فتنص الأولى على أنه «لا حق للنساء أيا كانت طبقتهن فى ولاية الملك»، بينما تذكر الثانية أنه «إذا تزوج أمير بغير إذن الملك أو إذن من كان له الحق فى تولى سلطته يحرم هو وذريته من حقوقهم فى العرش وتنتقل ولاية الملك إلى من يليهم فى الترتيب. كذلك يحرم من العرش من صدر فى حقه حكم بإخراجه من الأسرة المالكة».

ولأن فؤاد الأول أنجب ابنه فاروق (١٩٢٠) بعد أن كان قد جاوز الخمسين (مواليد ١٨٦٩)؛ ولما كانت حالته الصحية على غير ما يرام، فقد كان من الطبيعى أن يعنى نظام الوراثة بترتيب الأوضاع فى حالة وفاته قبل أن يبلغ ولى العهد سن الرشد التى قررها هذا النظام بثمانى عشرة سنة هلالية، الأمر الذى خصص معه ثلاث مواد لاحتمال أن يرحل قبل أن يبلغ فاروق هذه السن.

نصت إحداها على أن يكون «للملك القاصر هيئة وصاية للعرش تتولى سلطة الملك حتى يبلغ سن الرشد»، بينما قررت أخرى ضرورة تأليف هذه الهيئة من ثلاثة «يختارهم الملك لولى العهد القاصر بوثيقة تحرر من أصلين يودع أحدهما بديوان الملك والآخر برياسة مجلس الوزراء وتحفظ الوثيقة فى ظرف مختوم ولا يفتح الظرف وتعلن الوثيقة إلا بعد وفاته وأمام البرلمان»، ووضع النظام فى حسبانه احتمال عدم وجود هذه الوثيقة فنص على أن «يعين البرلمان هيئة وصاية العرش» فى هذه الحالة.

قبل انقضاء شهرين أصدر الملك فؤاد الأمر




الملك فاروق

الملكة نازلى مع أولادها

الثانى مرسوما آخر وكان خاصا هذه المرة «بنظام الأسرة المالكة». وقد جاء فى مطلع المذكرة التفسيرية الملحقة به أن تلك الأسرة «ركن من أركان الدولة بما بينها وبين الجالس على العرش من أواصر القرابة وبما قد يؤول إليها من حقوق العرش. وهى من جهة أخرى أكبر الأسر وأكرمها والمثال الذى يحتذى فى ضبط النفس وكمال السلوك».

تضمن الأمر الملكى الجديد اثنتين وعشرين مادة بدأها بالقول أن «صاحب العرش رئيس الأسرة المالكة وله بهذه المثابة حق الولاية على أعضائها». ثم دلف من ذلك إلى تحديد من ينطبق عليهم وصف الأمراء.. أولاد الملك وأولادهم من الظهور، إخوة الملك وأخواته، الأشقاء لأب، أولاد ولاة مصر وخديويها وسلطانها وأولادهم من الظهور، من ذكر اسمه فى الكشف المرفق من ذرية محمد على من الظهور، من عدا هؤلاء من ذرية محمد على ممن يمنحهم الملك لقب الأمير أو الأميرة، زوجات الأمراء المتقدم بيانهم وأراملهم حتى يتزوجن.

وميز الأمر بين ألقاب الأمراء من أبناء الملك الذين يتمتعون بلقب «صاحب السمو الملكى»، وأبناء السلطان حسين كامل الذين يتلقبون «بصاحب السمو السلطانى» وبين سائر الأمراء والأميرات الذين يكتفى بتلقيبهم «بصاحب أو صاحبة السمو» فقط.

ثم إن هذا الأمر نظم عملية انتقال لقب الإمارة من صاحبه إلى أكبر أبنائه «وإذا لم يكن للأمير ذرية انتقل اللقب إلى أكبر إخوته ثم إلى أكبر أبنائه وهكذا»، ووضع الشرط التقليدى أن يولد الأمراء والأميرات من «زوجة شرعية وأن يكونوا مسلمين كما يشترط أيضا فى الأمراء أن يكونوا مصريين».



وقد عنى الأمر الخاص «بنظام الأسرة المالكة» عناية خاصة بقضية زواج الأمراء والأميرات لما يمكن أن يترتب عليها من اختلاط الدماء الملكية بدماء آخرين لا يرقون لنفس المستوى فنصت المادة السادسة على أنه «إذا أراد أمير أو أميرة أن يعقد عقد زواجه أو أراد من له الولاية على أمير أو أميرة أن يزوج وليه وجب عليه أن يحصل على إذن الملك بذلك، فإذا أصدر له الإذن أثبته رئيس ديوان الملك فى سجل خاص وأبلغه إياه كتابة».

وتحوط الأمر لحالة زواج الأمير أو الأميرة بغير إذن «فيقرر بأمر ملكى حرمانه من لقب الإمارة، وللملك أن يقرر حرمان ذرية الأمير من تلك الزوجية من ذلك اللقب أو أن يقصر الحرمان على تلك الذرية. كما أن له أن يقصر الأمر على حرمان الزوجة من أن تستمد لقب الإمارة من زوجها»، ولا نظن أن الملك فؤاد حين وقع هذا الأمر كان يتوقع تطبيقه على الأميرة فتحية صغرى بناته بعد أكثر من ربع قرن!

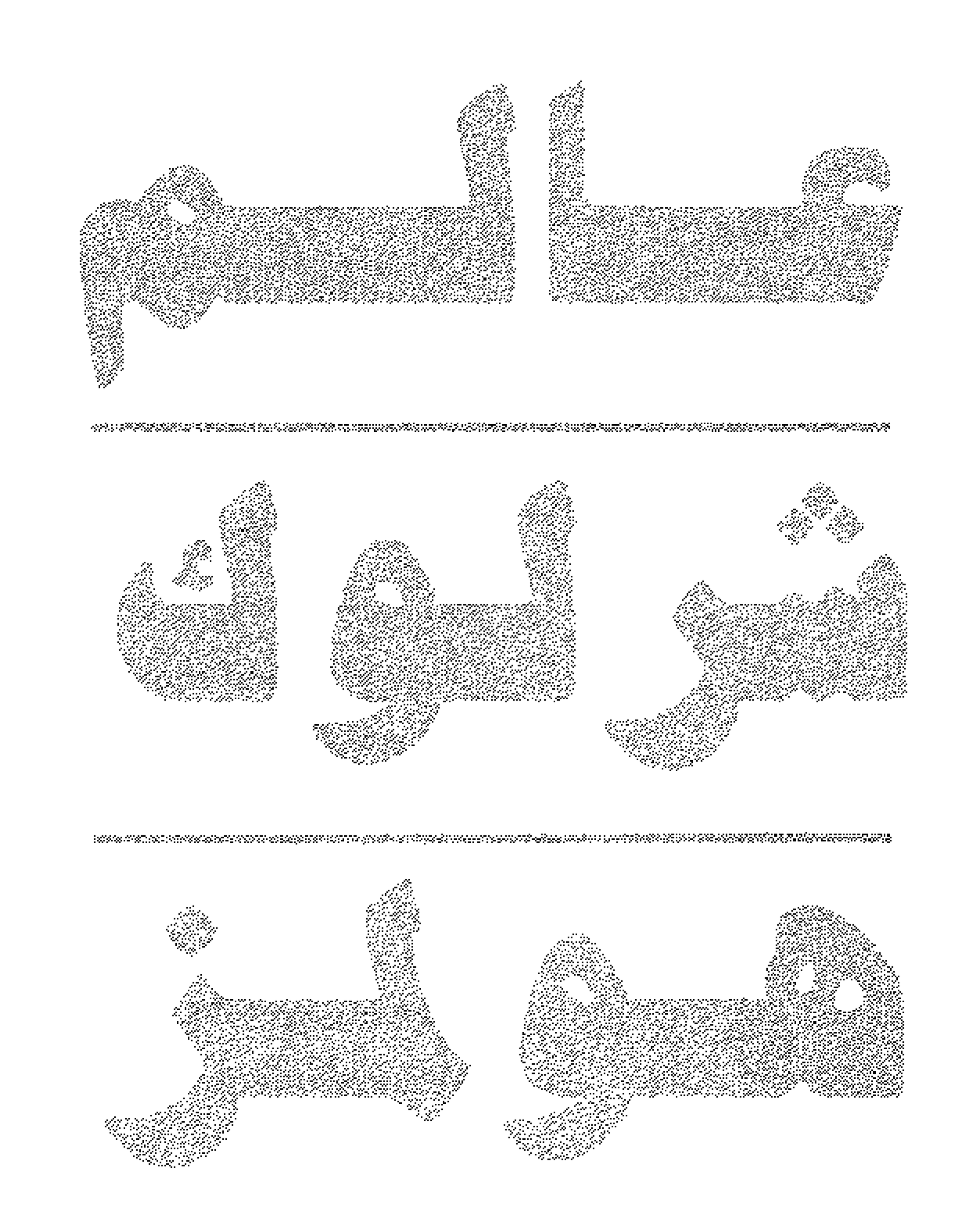
نظمت المادة الثامنة، ولأول مرة فى تاريخ أسرة محمد على، مجلس البلاط الملكى واختصاصاته..

التشكيل: أمير من الأسرة المالكة يعين بأمر ملكى، رئيس مجلس الأعيان (الشيوخ)، وزير الحقانية (العدل)، رئيس ديوان الملك، شيخ الأزهر، رئيس محكمة الاستئناف الأهلية بالقاهرة وأخيرا مفتى الديار المصرية، على أن تعقد الرئاسة للأمير، وأن يصدر أمر ملكى بتعيين «كاتم سر» للمجلس يحتفظ بسجلاته وأوراقه بديوان الملك.

الاختصاصات: النظر فى حالة ما إذا أراد أمير أو أميرة أو زوج أميرة «أن يفارق زوجه .. ويجوز للمجلس بعد سماع أقوال الطالب أن يأمر بحضور الزوجين أمامه ليسمع أقوالهما. فإذا تعذر على المجلس الإصلاح بين الزوجين وصدر الطلاق بعد ذلك من صاحب الحق فيه أثبته المجلس وسلم به وثيقة».

للمجلس أن يعين «وجهة تعليم الأمراء القاصرين القريبين من وراثة العرش بمقتضى أحكام الأمر الخاص بنظام التوارث»، كما أن للملك أن يأمر بعد أخذ رأى المجلس بإخراج أى أمير من الأسرة المالكة «إذا ارتكب أمورا تخل بكرامة الإمارة لعدم جدارته بالانتساب إليها وبحرمانه من لقبه».

بعد أيام قليلة صدر أمر آخر بتلقيب من دون الأمراء من أبناء أسرة محمد على بالنبلاء وأن يسبق لقبهم توصيف «صاحب أو صاحبة المجد»، تبع ذلك أن نشرت الأهرام يوم ٤ يوليو عام ١٩٢٢ قائمة بأسماء الأمراء (٢١) فى طليعتهم الأمير فاروق، والأميرات (٢٩)، والنبلاء (١٥) والنبيلات (١٤)، وقد تمتع جميع هؤلاء بما كفلته لهم تلك الألقاب من مزايا وأبهة لثلاثين عاما أخرى، حتى حرمتهم منها ثورة يوليو عام ١٩٥٢!■



مايكل تشابون

[١]

بعد مرور مائة وثماني عشرة سنة على ظهور أول مطبوعة لشرلوك هولمز فى عدد عيد الميلاد السنوى لعام ١٨٨٧، ما زال معجبوه ومعارضوه على حد سواء يشعرون بالحاجة لمحاولة تفسير سر جاذبية شرلوك هولمز المستمرة، وكأن قصص ومغامرات دكتور واطسون قد أصبحت نظاما اعتادوا عليه. مثل عمود الإنارة أو البريد الهوائى. ويحتاج فترة طويلة حتى يتم إلغاؤه أو تخطيه. وتفسير هذا النجاح قد يرجع لعدة أسباب منها احتواء تلك القصص على التخطيط الماهر والحبكة المقنعة أو تعطش الطبقة البرجوازية للمغامرات المنظمة، أو الحنين لعصر مضى (العصر الفيكتورى أو عصر النهضة)، أو بسبب الديناميكية المتجانسة التى يقدمها هولمز وواطسون أو أخلاق الجنتلمان - الرجل النبيل - التى يتمتع بها بوضوح سير آرثر كونان أو دويل، أو قد يكون أهم هذه الأسباب هو نوعية الكتابة نفسها وجودتها، الأعلى بكثير مما تحتاج إليه هذه الموضوعات. هذه التفسيرات المقدمة من قبل المؤيدين والنقاد على حد سواء توحى بشكل مباشر أو غير مباشر أنه ربما تكون الخمس وستون قصة والأربع روايات القصيرة التى تمثل رصيد شرلوك هولمز لا تستحق مثل هذا الإعجاب المستمر.

والشك فى قيمة الاستحقاق الأدبى لقصص هولمز موجود منذ البداية حيث تكمن المشكلة أو العلة فى الكاتب نفسه. بالطبع سيكون من الحمق القول بأن كونان دويل مبتكر شخصية شرلوك هولمز احتقر مؤلفاته عن هولمز. إلا أنه كان من المعروف أنه قد ندم على كتابة هذه المؤلفات واستخفها حيث قال عنها «لقد أخذت جرعة زائدة من (هولمز) جعلتنى أشعر نحوه مثلما أشعر نحو أحد الأطعمة التى تناولت الكثير منها فى مرة من المرات لدرجة أن مجرد ذكر اسمها يصيبنى بالشعور بالغثيان. فى عام ١٨٩٣، حاول الكاتب أثناء تأليفه قصة «المشكلة الأخيرة» - التى تحكى عن تصرفات رجل يائس - محاولة جادة لجعل هولمز يُقتل (على يد دكتور موريارتى أثناء وجودهم فى شلالات ريتيباتش). ولكن حتى أول قصصه عن هولمز «دراسة عن سكارليت» كان ينقصها قلة إيمان الكاتب فى إبداعاته حيث إن غالبية الجزء الثانى من القصة - الذى لا يحتوى على هولمز أو واطسون - كان يدور حول التجول فى بؤس وسط نفايات مرمون فى مدينة يوتا وهو المكان الذى فقد فيه القاتل - الذى قبض عليه هولمز لاحقا - الفتاة التى أحبها.

فى مغامرة هولمز التالية «إشارة الأربعة»، يبدأ الفصل الأول بالكثير من النقد الذاتى على لسان المخبر عن الجهود الأدبية لمرافقيه الأربعة وبالتالى عن الطبيب الشاب الذى يعانى من ضائقة مالية والذى يملك كل الخيوط فى يده. ويقول هولمز لواطسون «لقد ألقيت نظرة سريعة عليها»، مشيراً إلى قصة «دراسة عن سكارليت» ثم تابع:

«أنا لا أستطيع أن أهنئك بصدق على هذه القصة. إن التحقيق هو - أو يجب أن يكون - علم مضبوط ويجب أن يتم التعامل معه بنفس الطريقة الباردة والخالية من العواطف التى يتم التعامل بها مع أى علم، لقد حاولت تلوين القصة بالرومانسية مما نتج عنه نفس التأثير الذى قد يحدث إذا أدخلت قصة حب أو فرار على النظرية الخامسة لإقليدس».

وقد يشعر بعضنا بالطبع أن النظرية الخامسة لإقليدس سوف تتطور فقط إذا ما أضفنا إليها مكونا لطيفا كثير السيولة. وهذا نص مثالى يعبر عن السخرية من الذات بطريقة فكاهية جيدة حيث يقوم كونان دويل بعرض ذكائه الماكر الذى نادراً ما يقوم أحد - حتى أشد المعجبين تحمساً - بإعطائه الفضل عليه.

بينما كان كونان دويل مشغولاً بتحضير قصص شرلوك هولمز وبالتخطيط لموته وبإعداد الفخ لإدانة والترسكوت والاستمرار فى كتابة قصص الخيال الشعبى. فى البداية لاحتياجه وبعد ذلك بسبب النجاح الذى حققته، كان كونان أيضاً يقضى وقتاً ممتعاً بشكل ملموس. فيبدو أن إحدى خصائص هذا الرجل - كما يتضح أعلاه - هى أنه يقضى وقتاً ممتعاً على حساب نفسه.

ومثل أكثر الكتاب، كان كونان يكتب من أجل المال. وقد جعله سوء حظه كفنان يكسب أكواماً من المال ويصبح مشهوراً فى العالم بسبب قصص لم يكن هو يعتبرها جديرة بموهبته، فى حين أنه كان يحصل على تقدير أو أجر أقل عن أعمال كانت أهم بالنسبة إليه، ولأنه كان ينفق الكثير من المال على الإحسان والخير وعلى خططه الجامحة وعاداته فى الإنفاق - كما أنه كان موهوباً فى تعاملاته مع

The New Annotated Sherlock Holmes, Volumes 1 and 2
(شرلوك هولمز الجديد.. مجلد ١ و٢)
By: Sir Arthur Conan Doyle,
edited by Leslie S. Klinger
Norton, 1,875 pp., $75.00

الأطفال. فقد كانت هذه الأكوام من المال غير كافية لتغطية كل هذه المصاريف. القليل من الكتاب هم من قاموا بالكتابة من أجل المال بنفس التصميم الذي كتب به كونان دويل في كل مرة استسلم فيها لكتابة المزيد عن شرلوك هولمز. إن استمرارية هذا العمل وتكراره على هذا النحو الناجح إنما يُعتبر - من وجهة نظري - شهادة ليس فقط على فن دويل وموهبته في رواية القصص وسحر ما يكتبه، ولكن أيضاً دليل على قوة المال وتأثيره على خيال الكاتب وإن كانت تلك القوة قد ينظر إليها البعض على أنها مهملة أو ينكرها البعض ويسخر منها البعض الآخر.

[٢]

الأسرار المشتركة، والخداع والتنكر، والادعاء، والخزي المدفون والشر المكبوت، والمرأة المجنونة الموجودة في الغرفة العلوية، وحياة لندن السرية، وإخفاء الحرمان والحيرة تحت الواجهة الصخرية للعالم، كل هذه التعبيرات هي كلمات مألوفة وحاضرة في الأدب الشعبي الفيكتوري.

في عام ١٨٨٩، قام جي. أم. ستودارت، المحرر الأمريكي لمجلة ليبينكوت، بدعوة أوسكار وايلد وكاتب آخر على الغداء واقترح أن يكتب كلٌ منهم قصة طويلة لتنشر في مجلته. أحد ضيوفه في هذا اليوم المشهود رحل وهو يحلم بكتابة قصة عن رجل بوهيمي وغير حكيم، عبقري ولكنه مختل العقل يطارد ضباب لندن الأصفر اللون، كما أنه يتعاطى الكوكايين والمورفين ليخفف من عذاب العيش في هذا العالم الكئيب غير المريح. ويقوم هذا البطل بوضع حد لإدمانه عن طريق وضع خطة سرية للكشف عن القشرة التي اعتاد الناس الآخرون إخفاء حياتهم تحتها وعن طريق كشف الأسرار التاريخية المليئة بالعنف والشر. وقد قام ستودارت بنشر رواية كونان دويل الثانية عن هولمز بعنوان «إشارة الأربعة»، أما وايلد فقد كتب «صورة دوريان جراي».



إن العادة الفيكتورية برؤية الأشياء بشكل مضاعف والقدرة على قراءة الإحساس بالعار المخفي عن العيون والمشاعر السرية في الحياة الإنسانية العادية وصلت إلى ذروتها بالقصص البوليسية لسيجموند فرويد واستمرت حتى وصلت إلى وقتنا هذا. وإنه لمن المغري قراءة السيرة الذاتية لكونان دويل كقصة فيكتورية كلاسيكية من هذا النوع، النوع الذي يحمل النجاح المطارد بالفشل المخزي، الوفاء في الحياة الزوجية الذي يخفي في طياته خيانة، والفلسفة الواقعية العلمية التي تخفي سذاجة عميقة.

إن حياة كونان دويل مبتكر شخصية هولمز مبنية - بداية من اسمه - على سلسلة من المرادفات المزدوجة: الأيرلندي والإسكتلندي، الهندي والإنجليزي، الطبيب والروائي، الفاشل المجهول والفارس المشهور، الرياضي والجمالي، رب الأسرة المحب والهائم القاسي، الزوج الجامد المشاعر والقروي العاشق البائس، بطل الحقيقة ومدمن الإخفاء، المدافع عن إصلاح قانون الطلاق والرافض لإعطاء حق التصويت للمرأة، المادح لإجينكورت والحزين المكسور الفؤاد على لاسوم. هذه السلسلة من الصفات المزدوجة اختتمت بزوج نموذجي جعل كويكسوت وسايشز بيتسانسون هما المتنافسان الوحيدان على قلوب القراء وفي سجلات الصداقة الخيالية التي تسجل قصصاً عن نوع نادر من الرجال الذين يجدون في بعضهم البعض. وفقط في بعضهم البعض - مادة وإحساساً وعاطفة رجل واحد كامل.

آرثر كونان دويل كان حفيد رسام كاريكاتير، وابن أخ مصمم الغلاف الأصلي لمجلة بانشي وابن شارلز دويل، المهندس المعماري والرسام الذي مات في مصحة خاصة بسبب شرب الخمر، وبسبب نوع من الجنون الذاتي الذي يجعل الإنسان يرى نفسه ملعوناً بسبب زيادة سلامة العقل. كان جنونه من النوع الذي يجعل الإنسان يتخيل أنه يقوم بقراءة النص العشوائي للعالم الطبيعي مكتشفا رسائل وعلاقات سرية كما أنه يكتشف الشياطين والجان والكائنات الأخرى. لقد أرهق تشارلز دويل ابنه بأن ترك له تركة من الفشل بالإضافة لكنز غني وغير ملموس مثل مجموعة الطقوس التي تركها سير رالف موسجراف لورثته المحيرين، ألا وهو النظر إلى العالم بطريقة غريبة الأطوار وبدون مركز وجعله رغم ذلك عالما متماسك الأطراف. إن استهتار الأب وإدمانه للخمر وإصابته بمرض الصرع وبالتالي إيداعه في إحدى المصحات كان بالنسبة لكونان دويل بمثابة البديهيات السوداء للوجود في هذا العالم، تلك البديهيات التي لم يُعترف بها أبداً بل وتم إنكارها أساساً في بعض الأحيان.

أما والدة دويل - ماري - والتي كان دائماً يناديها «السيدة»، فيبدو أنها كانت نموذجا للأمومة الفيكتورية، كانت نحيفة الجسم ولكن ضخمة. كانت أيضاً امرأة أيرلندية تعرف كيف تسعد أولادها وتخيفهم في نفس الوقت عندما تروي لهم قصص الأشباح وأساطير الأبطال بجانب المدفأة في ليالي الشتاء الطويلة. وهي أم لعشرة أطفال (عاش منهم سبعة فقط) كما أنها كانت مثالاً للأم الصالحة المضحية بذاتها رغم كونها كانت على



مثل أكثر الكتاب، كان كونان يكتب من أجل المال. وقد جعله سوء حظه كفنان يكسب أكواماً من المال ويصبح مشهوراً في العالم بسبب قصص لم يكن هو يعتبرها جديرة بموهبته، في حين أنه كان يحصل على تقدير أو أجر أقل عن أعمال كانت أهم بالنسبة إليه



علاقة برجل يصغرها بخمس عشرة سنة كان يؤجر غرفة في منزلها، والدلائل التي تشير إلى وجود علاقة جنسية بينها وبين هذا المستأجر الذي كان يدعى براني والير ويعمل أخصائياً في علم الأمراض هي دلائل ضئيلة ولكن موحية.

وقد انتقل والير إلى منزل عائلة دويل قبل دخول والد كونان دويل المصحة وكذلك قبل ولادة أصغر أطفال ماري وهي فتاة سميت براينى جوليا دويل - وجوليا هو اسم والدة والير. وعليه فإن استنتاج وجود علاقة لا يتطلب تفكيراً حكيماً أو قوة ملاحظة. وعندما قام والير بشراء منزل في ريف يوركشير، أخذ ماري وبراين دويل للعيش معه. وقد قام أيضاً بدعم آرثر الصغير مادياً كما كان قرار كونان دويل المصيري بالالتحاق بكلية الطب مبنياً بالتأكيد على رغبات المستأجر ذي التأثير القوي بشكل غامض.

إن قراءة السيرة الذاتية لحياة كونان دويل التي كتبها دانيال ستاشوير تؤكد أن براين والبر كان - عملياً - الشخصية البارزة الأكثر أهمية في السنوات المبكرة من حياة كونان دويل، ورغم ذلك فإنه في كل كتاباته المتعلقة بسيرته الذاتية وكل رسائله التي نشرت لاحقاً، لم يكن هناك أي ذكر لبراين والبر ولا حتى مرة واحدة سواء لشكره أو لتصفية حسابه معه.

إلا أن هناك إشارة مبهمة في مذكراته: «لقد تبنت أمي مبدأ المشاركة في منزل كبير وهو ما قد يكون قد سهل عليها بعض الأمور ولكنه كان بمثابة كارثة في أمور أخرى».



والعديد من قصص هولمز تركز على نشاطات المستأجرين الأشرار في بيوت الضيافة والنزل وزوجات الآباء وأزواج الأمهات المتآمرين أو الأشخاص الذين كانوا يحبسون أحباءهم في أماكن بعيدة. إن الشبح التأنيبي للأب المحبوس من أجل مصلحته «المفترضة»، يظهر في الشخصية الرمزية للجندي السابق في «مغامرات الجندي الشاحب» حيث نرى المحارب السابق الذي شارك في حرب البوير مسجون في «بناية منفصلة» عن عقار الأسرة اعتقاداً منهم أنه قد أصيب بمرض الجذام في أفريقيا.

ويمكن أن نرى هذا الشبح أيضاً في الوجه الإنساني البائس للأسير الغامض في رواية «الوجه الأصفر» وفي الشخصية المحطمة في رواية «الرجل الأعوج»، حيث تدور حول الجندي السابق الذي يطارد ويقتل الضابط الإنجليزي الذي قبل سنوات في الهند خانه وسلمه لأيدي المعذبين.

إن المحقق فرويد قد يستنتج بأن كونان دويل لم يتعاف كلياً من الإحساس

بالألم والإذلال اللذين شعر بهما أولاً عندما كان يشاهد أمه وهى تخون والده المجنون فى منزله، وبعد ذلك من كونه قد أجبر على الوقوف ساكناً فى الوقت الذى كان الرجل العجوز يُرسل إلى مستشفى مجانين مونتروز الملكية ولم يعد أبداً إلى المنزل.

إن التاريخ الأسرى لكونان دويل وحياته فى البيت قد حدثت فى مدينة عكست بدقة ثنائياتها وازدواجياتها، فمدينة أدنبرة فى القرن التاسع عشر كانت تجسد نبضات فكرة جيكيل وهايد فى العقل الفيكتورى بدرجة أكثر حتى من لندن. فى لندن، كان الشر والخير، العام والخاص متلازمين وكأنهما جاران قريبان بل كانا أيضاً كما هو الحال مع هنرى جيكيل وادوارد هايد. يشتركان فى جسد واحد.

كانت لندن متمثلة فى فن السوق غير المنظم كما فى رواية «دكان الفضول القديم» أو شخصية كروك فى رواية «المنزل الكئيب» حيث المناظر الطبيعية مغطاة بالضباب والطين، وأثناء فترة طفولة كونان دويل، كانت أدنبرة تتضمن مدينتين متميزتين هما البلدة القديمة والجديدة.

كان وسط أدنبرة القديم المنتمى للقرون الوسطى - «هذا الحى الملعون النتن المتكون من كتلة من الأحجار القوية والكلس والروث» كما وصفه توماس كاريل - كان سيئ السمعة فى أنحاء أوروبا بسبب قذارته وتلوثه. فى بداية نهايات القرن الثامن، كانت المدينة قد حل محلها جزئياً وليس كلياً مدينة مهيبة مبنية بالحجارة الرمادية على الحافة إلى شمال المقاطعة القديمة.

إن هذه الخطوة الناجحة جزئياً لتحسين الذات التى قامت بها تلك المدينة الفخورة بإنجازها الثقافى والتجارى والمتحمسة لمحو ماضيها المظلم نتج عنها مدينة مكافحة عقلانية تشترك فى الحفاظ على أسرارها وتخفى شوارعها ذكرى قلقة عن هاوية الأسكتلنديين القديمة الدامية.

إن هذه المدينة تعكس أيضاً مأزق وإنجاز كونان دويل نفسه، فهو قد قضى طفولته الكئيبة والقلقة بين الفشل والفقر وعدم القدرة على نسيان والده من ناحية ومن الناحية الأخرى شهرة وتألق الجد الفنان الناجح والأعمام الموجودين فى لندن البعيدة، أى أنه تربى بين الإحساس الدائم بالدمار والخزى وبين المستقبل اللامع الذى طالما حلم به (وحققه لاحقاً) بين العالم الأيرلندى - الكاثوليكى الغريب الموجود فى قصص والدته وبين أدب اسكتلندا الفيكتورى البروتستانتى التجريبى.

فى كلية الطب بجامعة أدنبرة وفى قلب المدينة القديمة المخيف، تعلم كونان دويل بشكل علمى أن طريقة والده فى قراءة العالم بالرسائل يمكن أن تُدمج مع موهبة والدته فى تأليف القصص. فى خريف ١٨٧٦، بدأ بحضور المحاضرات والعمل ككاتب فى المستشفى الملكى الذى يرأسه دكتور جوزيف بيل وهو ممارس عام مبدع متخصص فيما قد يطلق عليه هو اسم أدب التشخيص. ونحن قد نطلق عليه أيضاً لقب قصة نثرية أو علم الكشف.

لقد كان جو بيل بمثابة أسطورة فى كلية الطب. وكانت خدمته المفضلة هى أن يقوم بتشخيص المرضى الموجودين فى غرفة الانتظار بالمستشفى بدون حتى أن يتكلم معهم أو يقوم بالكشف عليهم، وهى خدمة كان يستمتع جداً بالقيام بها تماماً مثل الشخصية التى كان هو الملهم لها فى رواية «انقلاب المسرح»، أيها السادة، إن هذا الرجل صياد سمك، سوف تلاحظون إنه رغم أن اليوم هو يوم صيفى حار جداً، فإن المريض يرتدى حذاء طويل الرقبة، وعندما جلس على الكرسى أصبح من السهل رؤية الحذاء بوضوح، لا أحد يرتدى حذاء طويل الرقبة فى هذا الفصل من السنة إلا البحار.. إنه يخفى لفافة من التبغ فى الزاوية البعيدة من فمه وهو يحركها بدهاء شديد يا سادة.

عالم شرلوك هولمز

رغم أن فشل كونان دويل كطبيب ممارس قد تمت المبالغة فيه، إلا أنه يبدو واضحا أنه كان قليل الحظ في المهنة التى اختارها والتى لم يكن يستمتع بممارستها أيضا

بالإضافة لذلك، ولكى أثبت صحة افتراضاتى، لقد لاحظت العديد من قشر السمك ملتصقة بملابسه ويديه بينما رائحة السمك التى تنبعث منه تعلن عن حضوره بطريقة ملحوظة ومميزة جداً. إن المغزى من هذه التخمينات الملهمة ومن تجميع بعض الحقائق والصفات الشكلية - البعض منها قد يكون غير واضح للعين غير المدربة - ومقارنتها بمخزون داخلى من المعرفة والمعلومات المكتسبة من ملاحظات سابقة - أى أساس العرض الذى يقدمه بيل. هو للفت نظر الطبيب الشاب إلى هذا العدد الكبير من الإشارات والأعراض والاختصارات التى يقدمها المريض. المريض يأتى ويتكلم بإسهاب معطياً كماً كبيراً من المعلومات، فالمريض أو المريضة هو عبارة عن صحن زجاجى رقيق ملئ بالحقائق التى تحتاج فقط إلى الصبر وإلى عين مدربة ثاقبة لتقرأ وتشخص.

إلا أن هذه المهارات الخاصة بقوة الملاحظة والقدرة على التفسير ليست مرتبطة بمهنة الطب بدرجة ارتباطها بالكتاب والمخبرين، ولكى تنجح كمشخص أدبى أو روائى أو مخبر، فأنت تحتاج أن تلم بفن كنت ستتعلمه من والدتك لو كنت آرثر كونان دويل ألا وهو فن الإحساس بالقصة، من أجل «التاريخ» الذى سيتضمن الإشارات والأعراض ومن أجل الطريقة التى سيعاد تركيب القصة بها - بتعبير علاجى - لمصلحة المريض.

رغم أن فشل كونان دويل كطبيب ممارس قد تمت المبالغة فيه، إلا أنه يبدو واضحاً أنه كان قليل الحظ فى المهنة التى اختارها والتى لم يكن يستمتع بممارستها أيضاً. (هناك كاتب واحد على الأقل قال إن كونان دويل قد يكون قد قتل مريضاً عن طريق ارتكاب حماقة شبيهة بحماقات تشارلز بوفارى أو قل بدوافع أكثر شراً، ثم قام بعد ذلك بالزواج من أخت الرجل المتوفى وسيطر على الدخل المادى الذى ورثته عن أخيها. ومثل العديد من الأسكتلنديين فى هذا العصر، سواء كانوا مهندسين أو مشرفين أو مديرين أو أمراء تجارة أو جنود مشاه أو حكماء الإمبراطورية، كان كونان دويل عنده ميل قوى لحب المغامرة، وفى محاولة للهروب من المصير الذى حدده له والير، قام كونان دويل بمحاولتين ناقصتين أو فاشلتين، الأولى أن يصبح طبيباً على ظهر سفينة والثانية اتخاذ قرار طائش لترك الممارسة العامة من أجل دراسة طب العيون فى ألمانيا رغم أنه كان بالكاد يفهم اللغة الألمانية.



لقد وجد كونان دويل نفسه وهو فى أواخر العشرينيات من عمره مربوطاً بسلسلة من الممارسات الطبية الفاشلة أو المضجرة أو الصعبة، وبزوجة شابة ذات صحة ضعيفة وبإعالة طفل هو الأول من خمسة أطفال سينجبهم لاحقاً، كما أنه كان مديناً ومرفوضاً من زبائن شارع هارلى الراقى بالإضافة لأن كرامته منعته من اللجوء إلى أسرته لطلب العون وفى نفس الوقت كان يحن إلى النوع الحقيقى من المغامرات التى أوقدتها فيه قصص والدته. آفاقه بدأت تنخفض ووعوده تذهب هباءً ولا تتحقق. وقد يكون قد بدأ أيضاً برؤية نفسه ضائعاً، لقد رأى أن أعمال جوزيف بيل هى نوع من الملاذ عن طريق سرد القصص فى العيادة فى أدنبرة.

فربما كان من الحتمى أن تتجه أفكاره إلى بيل فى هذا الوقت فقد كان محاصراً فى غرفة استشارته المقفرة، وكما لجأ هولمز إلى حقنة الكوكايين تلك، أخذ كونان قلمه.

أنا أعرف بأننى خاطرت بأن يعتبرنى البعض أقحم بعض العوامل غير المترابطة على هذا الموضوع لأننى تحدثت كثيراً جداً عن الصلة أو العلاقة بين الأطباء والأدب وبين سرد القصة والشفاء. ولذلك سأشير فقط إلى أن أول اثنتى عشرة قصة من قصص هولمز قد جمعت وطبعت فى كتاب بعنوان «مغامرات شرلوك هولمز» وهو الكتاب التى جعل كونان دويل مشهوراً وثرياً وأنقذه من الحياة التى لم يكن يتمنى أن يحياها، لقد جاء هذا الكتاب بإهداء إلى دكتور جوزيف بيل. ■

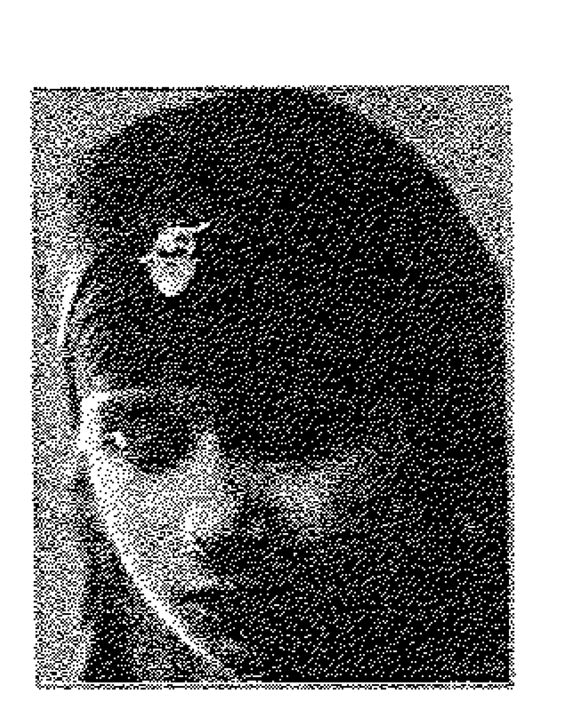


أم كلثوم

غـروب عصـر.. وشـروق عصـر

إليـاس سـحاب وفيكتـور سـحاب

٣٠ عامًا على الرحيل.. تغير العالم وتغير العرب.. ظهرت أجيال جديدة وأذواق جديدة ووسـائط إعـلامية جديدة. شىء واحد لم يتغير تقريبًا هو فن أم كلثوم وغناء أم كلثوم وتذوق فن أم كلثوم.. فهى لم تكن مجرد مطربة عظيمة صاحبة صوت رائع بل رمزًا من رموز الحضارة العربية، اختلف العرب كعادتهم حول كل شىء إلا شيئًا واحدًا «حـب أم كلثـوم» وتسابقوا فى إطلاق الألقاب عليها. فهى كوكب الشرق وسيدة الغناء العربى و«الست» وثومة. خلال حياتها وبعد رحيلها لم تتوقف الإصدارات التى تناولت فن وحياة وعصر أم كلثوم. أحدث هذه الكتب لفت الانتباه بما حكاه عن مشروع زواج أم كلثوم بالملحن محمود الشريف والآخر بفخامة إخراجه ومعلوماته الموسوعية.. «وجهات نظر» تنشر صفحات من الكتابين.



■■ الآن، وبعد مرور أكثر من ربع قرن على رحيل أم كلثوم، وعقد كامل على رحيل محمد عبد الوهاب، يبدو المشهد العام للنهضة الموسيقية والغنائية العربية (فى القرن العشرين) شديد الوضوح، فى خط سيره العام، وفى تتابع حلقاته التفصيلية. لذلك أصبح بالإمكان القول بثقة ودقة أكثر من أى وقت مضى: إن أم كلثوم ومعها الثلاثى الموسيقى القصبجى - زكريا أحمد- السنباطى) ومحمد عبد الوهاب (بصفته المزدوجة ملحناً ومطرباً) يشكلان أعلى وأبرز قمتين فى تاريخ الموسيقى والغناء العربيين فى القرن العشرين، بعد المرحلة التأسيسية - الانتقالية التى دشنها وأطلقها سيد درويش، قبل رحيله المبكر، وبرغم القصر الشديد لعمر تجربته الفنية البالغة الثراء (١٩١٧ - ١٩٢٣). بل إن بالإمكان، استزادة فى دقة التعبير، القول بأن أم كلثوم (وملحنيها الأساسيِّين) ومحمد عبد الوهاب، قد شكلا النهر الأساسى للموسيقى والغناء العربيين فى القرن العشرين، الذى تفرعت منه كل الألوان الموسيقية والغنائية الأخرى. ويجدر هنا الايضاح أننى إنما أعنى المجرى العام لما يمكن أن نسميه «الموسيقى العربية الكلاسيكية المعاصرة»، التى شكلت معالم الذائقة الموسيقية - الغنائية العامة للعرب المعاصرين فى كل أقطارهم، بما لا يشمل - بالطبع - تلك الألوان العربية المحلية المحصورة فى أقاليم المشرق وأقاليم المغرب، والتى لم تمارس حتى يومنا هذا أثرا هاما مشتركا فى الوجدان العربى العام والذائقة العربية العامة للموسيقى والغناء، على ما لهذه الالوان، أو لبعضها على الأقل، من قيمة عظيمة كتراث كلاسيكى، لا بد له فى يوم من الأيام من لعب دوره الحضارى العربى العام.

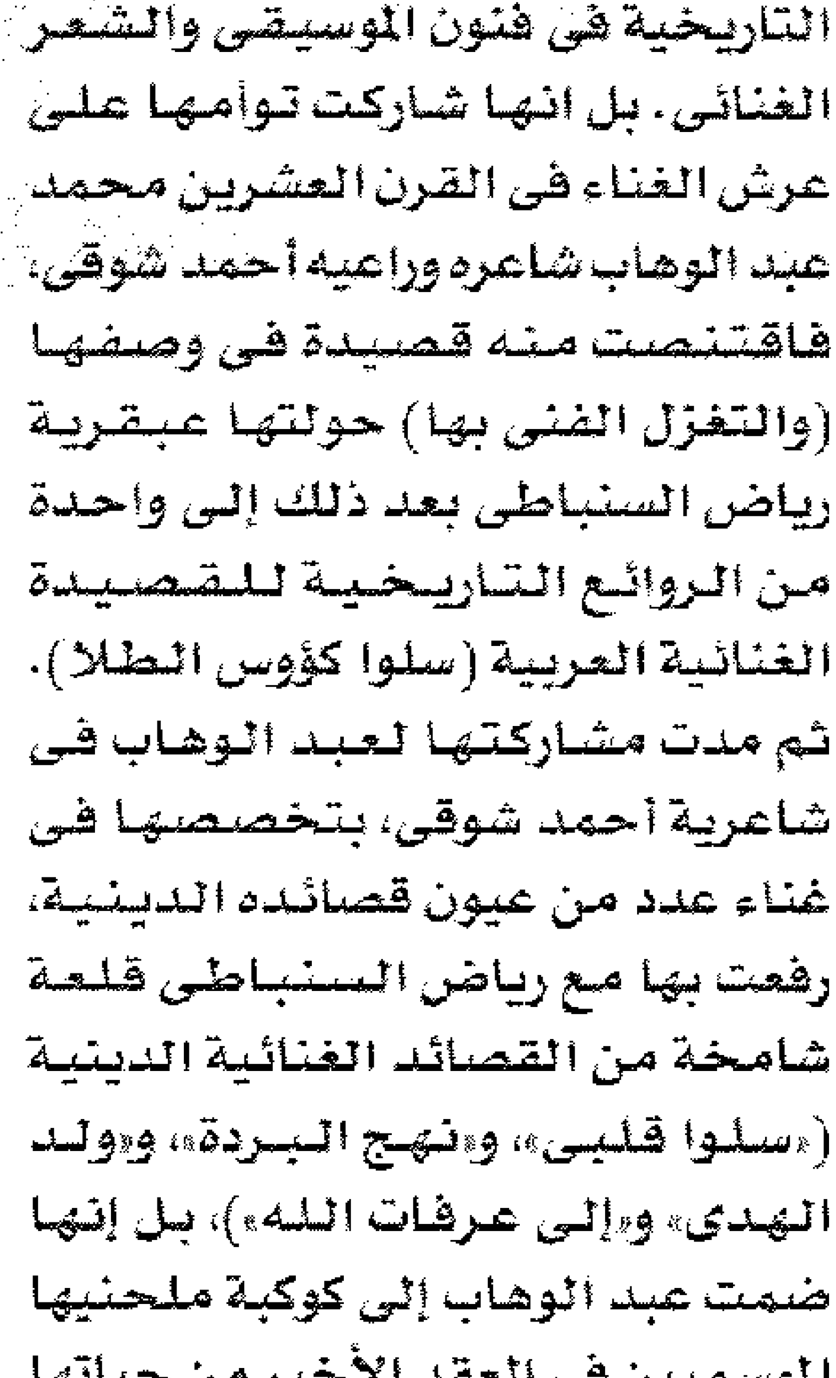


والأهم من ذلك، أن ظاهرة النهضة الموسيقية - الغنائية التى نمت وترعرعت فى مصر على مدى قرن وربع (١٨٥٠ - ١٩٧٥) وعمت أرجاء الوطن العربى، تكاد تكون تكرارا عصريا للنهضة الأولى التى امتدت فى الزمن من صدر الاسلام (ظهور طويس فى عهد الخليفة عثمان بن عفان ٦٤٤ - ٦٥٦) إلى نهاية العصر الذهبى فى عهد ثامن الخلفاء العباسيين (المعتصم ٨٣٣ - ٨٤٢) أى بين منتصف القرن السابع ومنتصف القرن التاسع (يضاف إلى ذلك امتدادها الأندلسى مع زرياب فى الفترة الموازية للعهد الذهبى العباسى)، وامتدت جغرافيا من نقطة الانطلاق الاولى فى الحجاز، إلى نقطة الاستقرار والازدهار فى دمشق وبغداد، الى نقطة الانتشار الأبعد فى الأندلس.

إن الكلام عن اللون الكلثومى أو التيار الكلثومى فى الغناء العربى، كمسوغ لحشر تراث أم كلثوم كله فى نمط واحد من الإبداع الموسيقى - الغنائى، هو أبعد ما يكون عن الحقيقة، كما سنكتشف عند التوقف بالتحليل التفصيلى أمام الملامح الخاصة لكل واحد من عباقرة التلحين الثلاثة، الذين خصوا أم كلثوم بمعظم نتاجهم.

وهكذا فإن الاعتقاد والمناداة بوحدانية النمط الكلثومى فى الموسيقى والغناء يجافى وقائع تاريخ أم كلثوم الحقيقى، إضافة إلى أنه لا يعلى من شأنها

أم كلثوم
السيرة
إلياس سحاب
الأغانى
د. فيكتور سحاب
٣ مجلدات
بيروت: موسيقى الشرق، ٢٠٠٤



الفنى، بل يفعل العكس تماما، وستكتشف بعد عرض الوقائع الحقيقية لفن أم كلثوم وتحليلها، أن رصيد أم كلثوم الفنى بما استخرجته من شعرائها وملحنيها وعازفيها، وما أبدعته من أساليب الأداء الغنائى، أكثر غنى وتنوعا مما يعتقد غلاة المتحزبين لوحدانية اللون الكلثومى.

بهذا المعنى يمكن القول بلا أى مبالغة لفظية مجانية إن أم كلثوم، بكل هذه المكونات، تعد مع زميلها محمد عبد الوهاب، من أبرز الامتدادات فى عصرنا الحديث لسلالة المغنين والمغنيات الذين صنعوا تاريخ الغناء والموسيقى فى هذه المنطقة من العالم، منذ قديم الزمان، على النحو الذى حاولنا فى الصفحات القليلة السابقة أن نرسم صورة له بملامح سريعة مركزة. وقد أتاحت لها سلامة البيئة الأولى التى تكونت فيها، وحسن رعاية التيارات الاجتماعية والثقافية الواعية فى المجتمع القاهرى فى المرحلة الانتقالية الحساسة بين الإنشاد الدينى واحتراف الغناء، وقوة شخصيتها وفطنتها وخفة ظلها المصرية الصميمة، كل تلك العوامل سهلت لها دقة لا مثيل لها فى اختيار شعرائها (أحمد رامى وبيرم التونسى) وملحنيها (وأبرزهم القصبجى وزكريا أحمد والسنباطى) وكلهم خصوها بخلاصة عبقرياتهم الشعرية واللحنية، وكلهم ينتمون إلى تلك السلالات



التاريخية فى فنون الموسيقى والشعر الغنائى. بل انها شاركت توأمها على عرش الغناء فى القرن العشرين محمد عبد الوهاب شاعره وراعيه أحمد شوقى، فاقتنصت منه قصيدة فى وصفها (والتغزل الفنى بها) حولتها عبقرية رياض السنباطى بعد ذلك إلى واحدة من الروائع التاريخية للقصيدة الغنائية العربية (سلوا كؤوس الطلا). ثم مدت مشاركتها لعبد الوهاب فى شاعرية أحمد شوقى، بتخصصها فى غناء عدد من عيون قصائده الدينية، رفعت بها مع رياض السنباطى قلعة شامخة من القصائد الغنائية الدينية («سلوا قلبى» و«نهج البردة» و«ولد الهدى» و«إلى عرفات الله»)، بل إنها ضمت عبد الوهاب إلى كوكبة ملحنيها الموسميين فى العقد الأخير من حياتها الفنية.




لا شك فى أن عقد العشرينيات، كان العقد الحاسم فى حياة أم كلثوم، ففيه كانت قد حسمت وأنشأت كل أسس حياتها الشخصية والفنية، التى انطلقت منها إلى استكمال ملامح مجدها الفنى وصعودها الاجتماعى:

❖ حسمت أمر موقعها داخل منزلها الأسرى، أولا، وهو الموقع الذى نجحت فى رسمه وفقا لمواهبها وكفاءاتها الاستثنائية، لا وفقا للتقاليد الاجتماعية المحافظة التى تحسم الموقع الأول لمصلحة الكبير فى مواجهة الصغير، ولمصلحة الذكر فى مواجهة الأنثى.

❖ حسمت أمر استقرارها فى القاهرة فى مواجهة إعصارين عاتيين، لم تكن مواجهتهما على أى درجة من السهولة:

أ- إعصار الغناء الترفيهى الهابط، لاسيما للأنثى التى تريد مزاولة الغناء فى ذلك الوقت.

ب- إعصار حملات التشهير وتشويه السمعة التى كانت، لا سيما فى السنوات الأولى، ضغوطا مضاعفة عليها، بما تصيبها به من إحباط، وبما تثيره فى نفس والدها الريفى المحافظ، صاحب القرار الأول فى حياتها الشخصية والفنية فى تلك السنوات المبكرة.

هذا المنعطف التاريخى الذى وصفه كمال النجمى بعبارات تساوت فيها الصراحة القاسية بالدقة والوضوح، اكتمل الحسم فيه بالنسبة للأصوات النسائية بين ١٩٢٨ و١٩٣٠، فبدأ الأمر باستسلام منيرة المهدية (زعيمة مرحلة ما قبل أم كلثوم فى الغناء النسائى) ليس فقط أمام جمال صوت أم كلثوم وقوته، بل أمام الفن الجديد الذى حمله صوت أم كلثوم بألحان أبو العلا محمد من القصائد التقليدية اللحن، الخارجة من رحم التجويد القرآنى والتوشيح الدينى، وألحان محمد القصبجى الحاملة على صوت أم كلثوم كل بذور التجديد فى اللحن والأداء، على قاعدة عربية كلاسيكية وباستيعاب صحى وواضح لفنون الأوبرا الإيطالية، فبدأ هذا الاستسلام بترداد منيرة المهدية أشهر ألحان القصبجى الجديدة لأم كلثوم وأكثرها تطورا (إن حالى فى هواها عجب، وإن كنت أسامح)، ثم انسحبت تدرجا من عالم الغناء. أما نجمة الغناء الثانية فتحية أحمد فلم تعتزل، بدليل أننا بقينا نستمع إليها حتى عقد الأربعينيات فى ألحان منفردة لزكريا أحمد وفريد الأطرش وسواهما، غير أن ظهورها تحول، بعد أن أسلس المستمعون العرب (فى مصر وخارجها) قياد آذانهم لأم كلثوم، من ظهور دائم ومكثف، إلى ظهور متقطع لعقدين من الزمن، ما لبث أن تحول فى النهاية إلى انسحاب كامل، خاصة بعد أن اندفعت أم كلثوم بعد الثلاثينيات فى تفجير طاقات فرسانها الثلاثة محمد القصبجى وزكريا أحمد ورياض السنباطى، فى خط مواز لتفجر الطاقات اللحنية والصوتية للنجم الآخر محمد عبد الوهاب، الأمر الذى أقفل الباب تماما أمام نجوم المرحلة السابقة، وعلى رأسهم فى الرجال المطرب الكبير صالح عبد الحى، لإصراره على التمسك بالأسلوب التقليدى فى الغناء.

وإذا كان انسحاب فتحية أحمد التدريجى، قد خفف كثيرا من الملامح المأسوية لانسحاب تلك الفنانة ذات الحنجرة الممتازة على مكابرة فى استيعاب روح الكلاسيكية الجديدة فى الغناء العربى، فإن الشخصية العنيدة والمكابرة عند منيرة المهدية قد أضفت مسحة مأسوية حقيقية على اعتزالها، خاصة عندما قامت بعد ذلك بمحاولتين يائستين بائستين للعودة عن الاعتزال. كانت المحاولة الأولى فى عقد الثلاثينيات بعد اقتحام كل من عبد الوهاب وأم كلثوم عالم السينما بأفلام غنائية، كانت تزيد من تلميع نجوميتهما وإقبال الجماهير عليهما. فأنتجت منيرة المهدية ومثلت فيلم «الغندورة» الذى سقط سقوطا ذريعا، فى مقابل نجاح جماهيرى تاريخى لأفلام عبد الوهاب وأم كلثوم.

ولعل الازدواجية الريفية - المدنية، هى التى عصمت أم كلثوم، عند وصولها إلى قمة الهرم الاجتماعى فى العاصمة، وانخراطها فى علاقة مميزة مع الملك والأسرة المالكة، من أن تفقد ملامح الشخصية العامة المرتبطة بكل الطبقات الاجتماعية لشعبها، وبالأحاسيس الوطنية والدينية والاجتماعية والعاطفية لهذه الطبقات. وقد كانت لهذا الواقع آثاره الواضحة، لا فى سلوك أم كلثوم الشخصى فقط، بل فى نتاجها الفنى وخياراتها الفنية. خاصة فى مجال الأعمال ذات الطابع الوطنى، أو الدينى، أو ذلك النمط الفريد من بعض قصائدها وأغنياتها التى كانت مزيجا فريدا من العاطفة الوطنية والعاطفة الدينية.

والمؤكد أن ظهور رياض السنباطى فى حياة أم كلثوم، الشخصية والفنية، كان له أكبر الأثر فى حياتها، لأن علاقتها برياض السنباطى لم تثمر فقط التحول الفنى الأساسى فى حياتها، بل طبعت بطابعها كل ما قدمته أم كلثوم من أعمال فنية حتى نهاية حياتها، ومن ذلك تعاونها الفنى مع ملحن عملاق من وزن محمد عبد الوهاب، أو ملحنين شبان مثل بليغ حمدى والموجى والطويل ومكاوى. فكل هؤلاء لم يكونوا يتعاملون مع أم كلثوم وحدها، بل مع الصيغة الفنية الكلثومية - السنباطية التى لازمتها حتى نهاية حياتها.

وهناك وجهات نظر أشد تطرفا فى

تفسير هذه الظاهرة، تقارن بين الخطين المتوازيين فى شخصية رياض السنباطى الفنية، فتستنتج من المقارنة ما تعده تنازلا سنباطيا لأم كلثوم، أو مسايرة لها (فى عبارة ألطف)، حتى يعتقد بعض النقاد والمحللين، أن ما أنجزه السنباطى من خلال حنجرة أم كلثوم، على عظمته، كان على حساب حريته اللحنية المطلقة، التى أثبتها السنباطى فى ألحان غناها بصوته مثل «فجر» و«أشواق» و«ذات يوم يا حبيبى» و«على عودى» وبقية ألحان فيلم حبيب قلبى، و«لحن الوفاء» (لعبد الحليم حافظ)، وأنه كان يعد بألوان أكثر تطورا لو بقى أكثر إنتاجه خارج الإطار الكلثومى. ولعل أكثر النظريات تطرفا فى هذا المجال وردت على لسان كمال الطويل، الذى نقل عنه قوله «إن أم كلثوم كانت أجمل عقبة فى طريق تطور الموسيقى العربية».

ومهما كان من أمر هذا الاختلاف فى وجهات النظر، فلا شك فى أن أعمالا عظيمة، وأنماطا عظيمة قد ازدهرت فى حديقة التفاهم الكلثومى - السنباطى. لاسيما أن هذه الحديقة ظلت حكرا على فن رياض السنباطى، يختال فيها منفردا حتى بداية عقد الستينيات.

وعلى موجة هذه التجارب الناجحة جدا، فنيا وجماهيريا، زادت جرأة أم كلثوم فى مغامرتها التجديدية، فكلفت الموجى والطويل الناشئين، بمشاركة الكبير المخضرم رياض السنباطى بتلحين أغنيات البرنامج الإذاعى الصوفى «رابعة العدوية»، الذى كان يفترض أنه اختصاص رياض السنباطى وحده، رائد اللون الصوفى فى الموسيقى العربية المعاصرة. ومرة أخرى، نجحت التجربة، بل إن التحدى قد استفز موهبة الطويل والموجى، فوضعا ألحانا تجاوزت فى انتشارها ألحان السنباطى فى رابعة العدوية، ربما لطزاجة ألحانها.

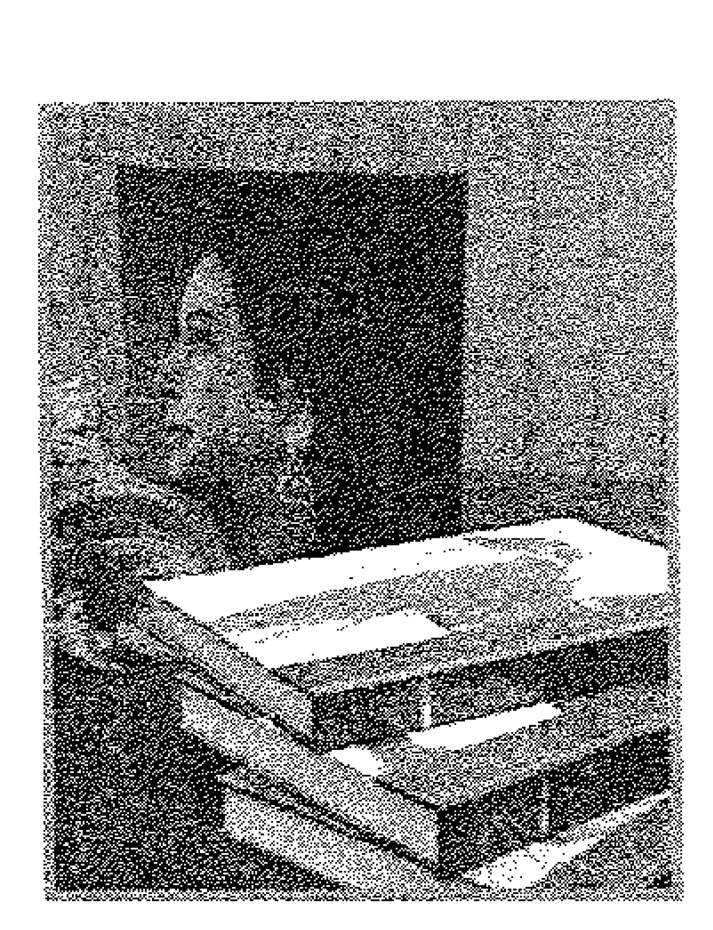
غير أن بليغ حمدى، ظل صاحب الحظ الأكبر بين الملحنين الشبان مع أم كلثوم، لأن كمال الطويل، صاحب التجارب الوطنية والدينية الناجحة معها منذ العام ١٩٥٦، لم ينل حظ الدخول فى فريق ملحنى المونولوجات العاطفية المسرحية الطويلة لأم كلثوم. وحتى الموجى، تأخر ظهور لحنه العاطفى الأول لأم كلثوم (للصبر حدود) حتى مطلع العام ١٩٦٤، وهو الموعد الذى ظهر فيه أيضا أول تعاون لأم كلثوم مع عبد الوهاب. أما بليغ حمدى، فقد فتحت له أم كلثوم أبوابها على مصاريعها، منذ العام ١٩٦٠، فى مغامرة حقيقية. لأن رصيده الفنى حتى مع عبد الحليم حافظ، لم يكن فى ذلك الوقت قد قطع شوطا كبيرا. وهنالك آراء عديدة فى تفسير هذه الحظوة المبكرة التى نالها بليغ حمدى لدى أم كلثوم، أشهرها الرأى القائل بأن محمد فوزى هو الذى رشح بليغ حمدى بقوة وإلحاح لأم كلثوم. غير أن الواضح، أن أم كلثوم كانت منذ منتصف عقد الخمسينيات قد وصلت إلى ذروة سنوات طويلة من الأمجاد الفنية والاجتماعية، ودان لها كل هدف بعيد، وسعى إليها كل منصب فى نقابة الموسيقيين أو سواها، وأصبح كبار الملحنين ومشاهيرهم يعلنون صراحة رغبتهم فى أن يتوجوا نجاحهم الفنى بتقديم لحن لأم كلثوم.



إن نظرة خلفية شاملة على خريطة الثقافة العربية فى القرن العشرين، تضع تحت أبصارنا بضعة أسماء من المبدعين فى مجالات الأدب والمسرح والسينما والموسيقى والغناء والفنون التشكيلية والفكر، كانت على تماس مباشر، منذ بداية الطريق أو فى منتصفه، مع وجدان المواطنين العرب فى كل أقطارهم، وفكرهم ومشاعرهم، قفزت من فوق الحدود السياسية التى رسمت فى الدوائر الدولية المسيطرة، بعد انفراط عقد الإمبراطورية العثمانية، فى مسيرة تسبغ شرعية كاملة على مقولة أن حدود الدول العربية السياسية فى القرن العشرين، ليست بالضرورة، بل ليست بأى حال من الأحوال، مطابقة للحدود الثقافية.

وإذا كانت الأسماء التى استطاعت على امتداد القرن العشرين أن تتجاوز الحدود السياسية الضيقة، إلى الحدود الثقافية التى تغطى مساحة الوطن العربى بأسره، هى نادرة فى مجال الموسيقى والغناء، فإن اسم أم كلثوم يقف بلا شك فى الصف الأول منها. ■

حـــول الموسـوعة



لست موسيقيا محترفا أو كاتبا، لكن لدى شغف بالموسيقى بكل أشكالها وأوطانها. أذكر أنى عندما كنت صبيا درست آلة الكمان على الأسس الغربية، وكانت الكتب التى استخدمتها فى ممارسة التمارين أو عزف القطع الموسيقية فى غاية الدقة والإتقان. كانت هذه الكتب مطبوعة فى أوروبا والولايات المتحدة، وقد عكست جودة مضمونها وإخراجها مدى احترام هؤلاء القوم لتراثهم واهتمامهم العميق بالحفاظ عليه.

من هنا بدأت تراودنى فكرة إنتاج ما يساهم فى الحفاظ على التراث الموسيقى العربى وتقديمه بشكل أفضل يليق بتراثنا الراقى العريق. كانت الأفكار والمواضيع متعددة ومتشعبة، وكان يجب أن نبدأ من مكان ما. لقد جمعتنى الأقدار قبل أربع سنوات بالشقيقين السيد رفيق نحاس والمهندس جورج نحاس من لبنان الشقيق، وهما مثلى من هواة الموسيقى، أما قدراتهما فى شؤون الموسيقى العربية ومعرفتهما وأحاسيسهما الفنية فهى فى مرتبة المحترفين الأصيلين فى العالم العربى. بدأنا نحن الثلاثة مع صديق من الكويت هو السيد رائد الحمد، من المهتمين بأمور الموسيقى العربية، نبحث عن الموضوع المناسب الذى يجب أن نبدأ به، وكيفية إخراجه للنور. فكانت الفكرة التالية:

أولا: أن نقوم بإنتاج عملين فى آن واحد، العمل الأول عن السيدة أم كلثوم يتضمن كتابين منفصلين.

الأول عن سيرتها الشخصية والفنية والثانى عن أغانيها، على أن يتكرر الأمر نفسه بالنسبة للموسيقار محمد عبد الوهاب، مع مراعاة تغطية أغانيه وألحانه لسواه من المغنين والمغنيات.

ثانيا: أن يكون الإنتاج على أعلى قدر ممكن من الدقة والإتقان فى المضمون كما فى التصميم والإخراج والطباعة.

وكان أن التقينا ونحن فى غمرة البحث والنقاش بالشقيقين الأستاذ إلياس سحاب والدكتور فكتور سحاب اللذين شاركا وساهما بفاعلية فى تأكيد وبلورة الفكرة لما لهما من خبرة طويلة فى شؤون الموسيقى العربية، ولانشغالهما بالهموم نفسها. اكتملت الحلقة، فقررت السير فى إنتاج الفكرة وتحويلها إلى مشروع فعلى، وبادرت بتأسيس شركة مع الصديقين الشقيقين رفيق وجورج نحاس باسم «موسيقى الشرق» لمتابعة هذا المشروع والسير قدما فى مشاريع أخرى مشابهة ومكملة يجرى بحثها حاليا.

قد يتساءل القارئ عن اختيار البدء بأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب، علما أن هناك فنانين آخرين معاصرين ذوى شأن كبير..

الإجابة باختصار، إن مشروعا متكاملا لإحياء التراث الموسيقى العربى بالأسلوب والمستوى الراقى المطلوب ليس بالشىء اليسير لذلك فقد ارتأينا أن يكون هذا العمل مجرد خطوة فى هذا الاتجاه، والباكورة الأولى.

عبد الله عقيل (الناشر)

غلبت أصالح في روحي



هذه أغنية من تلك التى تستحق أن تحتل إحدى المراتب الأولى بين أعظم ما غنت أم كلثوم، بل بين أعظم الغناء العربى على الإطلاق. ولعلها أعظم مونولوج لحنه رياض السنباطى، حتى أن بعض النقاد يعدها توأم رق الحبيب بجدارة. وهى تتألف، إذا استثنينا البيتين الأولين والبيتين الأخيرين: من أربعة «مشاهد» والمقدمة والختام: غلبت أصالح، و: وأبات أصالح.

المقدمة الموسيقية تتألف من جزءين أولهما إيقاع وقور، أما الثانى فهو على إيقاع الفوكس ويتخلله حوار بين القانون والفرقة الموسيقية. ويذيله تقسيم على الكمان يمهد لعودة الجزء الأول من المقدمة الموسيقية. وإذا قلنا إن كل هذا فى غاية الجمال، فلن نكف عن قول هذا فى كل أجزاء هذه الأغنية التحفة. أما المقدمة الغنائية، وهى البيتان الأولان، فتعرض الموضوع الموسيقى باختصار وبلاغة موسيقية جديرة بالسنباطى.

«المشهد الأول»، أربعة أبيات تبدأ من: صعبان علىَّ. مقام البيت الأول النهاوند، أما الثانى فيكاد لا يصبر ليدخل فى مقام الراست، حتى نهاية الأبيات الأربعة، التى تتخللها صرخة وجدانية مؤثرة: غير على البعد حالك.

المشهد الثانى، أربعة أبيات أيضاً، من: وأنا اللى أخلصت، وتسبقها لازمة فيها حوار جميل جداً بين الناى والفرقة على مقام النكريز (فى بعض التسجيلات يتولى القانون العزف المنفرد). البيتان الأولان باللحن ذاته تقريباً، إذ أن كلمة ضنين، فى المرة الثانية تتحول إلى تغريد يستمر فى تسجيل شائع ٢٣ ثانية، وهو من أعظم ما يمكن أن تسمع أذن من غناء.

المشهد الثالث، سبعة أبيات، ومقامه النكريز أيضاً. وفيه بيتان يتشابهان لحناً: ويعدت عنك، و: والقلب منك. وفيه أيضاً بلوغ باللحن إلى أعلى درجاته أيضاً لدى قولها: مجروح. وهى درجة: رضاك، فى المشهد السابق. لكنها هنا تعبر عن صراخ المجروح. ويدخل اللحن مقام البياتى ومزاجه عند قولها: لما الزمان اللى غدر به.

المشهد الرابع، فيه أربعة أبيات، وتسبقه لازمة موسيقية فى مستوى جمال سابقتها، ومقامه النهاوند. ويتحول لحنه إلى الراست عند قولها: واسأل عنك، ويعود إلى النهاوند فى عجز البيت الرابع: وانا اللى طول بعدى ما همك، ليمهد للعودة إلى المقدمة الغنائية: وأبات أصالح بروحى، بحبك عبقرى فى متانة التأليف الموسيقى.

فى هذه الأغنية الخالدة مواضع عديدة تستنسبها أم كلثوم للتغريد والارتجال، وعلى الأخص لتطوير اللحن غناء على ميزان موسيقى يرافقها فيه عباقرة العازفين: محمد القصبجى بالعود، ومحمد عبده صالح بالقانون، وإبراهيم عفيفى بالرق، وأحمد الحفناوى بالكمان، وعباس فؤاد بالكونترباص، وغيرهم. وفى هذه الأغنية تسجيلات عديدة تختار أم كلثوم أن ترتجل فيها عند غنائها المشهد الرابع: حتى الزمان. وفى هذه التسجيلات دروس حقيقية لأسلوب التغريد والتفريد، وكذلك لأسلوب العزف المصاحب، الذى يخدم الغناء ويسنده، ولا يحاول الاستعراض على حسابه. كل هذه القيم جعلت من: غلبت أصالح، صرحاً موسيقياً شاهقاً فى موسيقى العرب فى القرن العشرين.

غلبت أصالح فى روحى
تأليف: أحمد رامى .. تلحين: رياض السنباطى
النوع: مونولوج
ظهورها: اسطوانة: كايروفون (١٥، ١٣د) حفلة: ١٩٤٦/١/٣
مقامها: نهاوند .. إيقاعها: الوحدة الكبيرة.. زمنها: ٥٤ د

فات الميعاد



تبدأ المقدمة الموسيقية على مقام نهاوند مرسلة، يعزف فيها الجيتار، ثم حين يبدأ الإيقاع يعزف الساكسوفون لحناً شجياً. وحين يتوقف الإيقاع يتحاور الكمان مع الفرقة ولكن على مقام الهزام.

المطلع الغنائى مقامه عراق ويبدأ مرسلاً. ويدخل الإيقاع فى البيت الثانى: تفيد بإيه، بلحن تحول إلى مذهب فى ذيل الأغصان الثلاثة. لحن البيت الأول غنى بالمرارة، ويعبر عن المعنى تعبيراً صادقاً. لكن الانتقال إلى البيت الثانى على مقام البياتى من دون لازمة، يضعف حبكة اللحن. تفيد بإيه مقامه البياتى، وطالت ليالى الألم، مقامه الراست، ويعود: وكفاية بقى إلى البياتى، ليستقر اللحن فى الخاتمة: فات الميعاد، عند العراق.

لازمة الغصن الأول مقامها عجم، ويبدؤها الساكسوفون موقعة، وتتحول الفرقة الموسيقية إلى النهاوند. لكن الغناء مقامه عجم: يا ما كنت أتمنى، ويحيد اللحن إلى الكورد فالبياتى فى البيت الثانى: بس أنا. ويمكث اللحن على البياتى، حتى قولها: ستاير النسيان، على مقام الراست. ويعود البيتان الأخيران: وإن كان على الحب القديم وأساه، إلى البياتى، لدخول المذهب: تفيد بإيه، على هذا المقام.

لازمة الغصن الثانى موقعة على البياتى، وفيها فكرة موسيقية طريفة، إذ يزن بعض الوتريات، ليعزف البعض الآخر اللحن، موقعاً ولكن من دون آلات إيقاع. الغناء مرسل على البياتى: الليل ودقة الساعات. ويتحول اللحن إلى الصبا الموقع: وقسوة التنهيد، لينكفئ إلى العجم: وعايزنا. أما العودة إلى البياتى: وهات لى قلب، فللتمهيد للمذهب: تفيد بإيه.

لازمة الغصن الثالث موقعة ومقامها الراست. وفى وسطها قلب للإيقاع ويتخلله عزف جميل على الكمان. أما البيتان الأولان: من نارى فلحنهما بياتى شورى جميل ومؤثر جداً، ويعبر عن لوعة ومرارة بصدق. لكن لحن البيتين التاليين يتحول إلى البياتى من دون تمهيد، على نحو غير مقنع، على الرغم من جمال الألحان، التى تحتاج إلى منطق فى الترابط، وعند انتهاء البيتين، يدخل المذهب: تفيد بإيه.

هذه الأغنية نموذج على تفوق جمال الألحان عند بليغ، على متانة البنية عنده.

فات الميعاد
تأليف: مرسى جميل عزيز .. تلحين: بليغ حمدى
النوع: طقطوقة
ظهورها: اسطوانة: صوت القاهرة (٥٨، ٢٧د.) حفلة: ١٩٦٧/٢/٢
مقامها: عراق .. إيقاعها: الوحدة الكبيرة .. زمنها: ٩٧د.

الحب الممكن
الزواج المستحيل



طارق الشناوى



■■ يعتقد البعض أن «أم كلثوم» هى الحب الكبير والحقيقى فى حياة «محمود الشريف»، وحقيقة الأمر أن «أم كلثوم» هى أشهر قصة حب على خريطة «محمود الشريف» العاطفية، ولكنها ليست أصدقها، وإن كانت هى الخط الفاصل فى حياة «محمود الشريف» و«أم كلثوم».

قال لى «محمود الشريف» فى إحدى الليالى التى جمعتنا أنه لم يحب «أم كلثوم» كامرأة قدر حبه لها كمطربة!

ودليلى على ذلك أن «محمود الشريف» - كما ذكر لى - كان وهو مرتبط بـ «أم كلثوم» عندما يمسك بالعود ليلحن ويجد اللحن مستعصيًا على قريحته يغادر فيللا أم كلثوم متجهًا إلى المنصورة حيث عشيقته «فردوس» لكى تلهمه بالأنغام العصية مثل «أبو العيون السود» أو «على شط بحر الهوى» أو «لما رمتنا العين»!

كانت «فردوس» غانية التقى بها «محمود الشريف» فى فترة انتقاله بين القاهرة والإسكندرية فى نهاية العشرينيات ومطلع الثلاثينيات.. ولمح «محمود الشريف» بقعة مضيئة داخل «فردوس» التى قطعت علاقتها بحياة الليل بعد أن تعرفت على الشريف.. والذى أطلق عليه أهل الحارة التى تقطن بها - من كثرة تردده عليها - «مجنون فردوس»!

الأنغام التى لا يستطيع «الشريف» أن يقتنصها فى فيللا «أم كلثوم» المتعددة الطوابق البالغة الثراء تأتى له راضخة عندما يلتقى بـ «فردوس» فى بيتها الذى لا تزيد حجراته على واحدة يمارس فيها الحياة والحب والإلهام.

التقى «محمود الشريف» وجهًا لوجه مع «أم كلثوم» فى فيللتها بالزمالك - عام ١٩٤٦ - كان طلبه الأول هو أن تغنى له - بمفرده - (إن كنت أسامح) فكان هو المستمع الوحيد لصوتها فى تلك الليلة التى لم ينسها أبدًا ولم تنسها أيضًا «أم كلثوم».

أنا والعذاب.. وأم كلثوم.. محمود الشريف
طارق الشناوى
القاهرة: دار الخيام، ٢٠٠٤، ١٨٢ صفحة

ولكن هذا لم يكن اللقاء الأول بين «أم كلثوم» و«محمود الشريف»، فقد التقى بها - لأول مرة - عام ١٩٣٤ فى مكتب الإذاعى «محمد فتحى» وربما لا يعرف الجيل الحالى هذا الإذاعى الكبير الذى رحل عن عالمنا فى منتصف الثمانينيات والذى كان يلقب بـ «كروان الإذاعة» لجمال صوته، وكانت «أم كلثوم» لا ترضى بغيره بديلاً لكى يقدم حفلاتها الغنائية، وذلك قبل ثورة يوليو ١٩٥٢، حيث أصبح «جلال معوض» هو الذى يتولى هذه المهمة بعد الثورة.

كانت «أم كلثوم» تأنس كثيرًا لآراء «محمد فتحى» ولهذا قدم لها فى مكتبه الملحن الشاب «محمود الشريف»، وقال لها إنه ملحن أغنية (بتسألينى باحبك ليه) فردت عليه «أم كلثوم» قائلة إنها كانت تعتقد أن ملحن الأغنية هو «محمد عبد الوهاب»! والواقع أن أغلب العاملين فى الوسط الفنى كانوا ينسبون لحن (بتسألينى باحبك ليه) إلى «محمد عبد الوهاب» لأنه قد قدمه فى فيلم (تاكسى حنطور) الذى لعب بطولته «عبد المطلب» وكان «عبد المطلب» قد غنى لـ «عبد الوهاب» لحنًا آخر وهو (كان ليه خصامك ويايا) ولأن اسم «عبد الوهاب» أكبر بكثير من «محمود الشريف» فإن لحن «الشريف» عندما نجح نسبوه إلى «محمد عبد الوهاب»!، ولم تكن المقارنة لصالح «عبد الوهاب» على الإطلاق وربما لهذا السبب فإن «عبد الوهاب» منذ ذلك الحين أصبح يتحفظ كثيرًا فى الاشتراك مع آخرين فى تلحين أغانى الأفلام خوفًا من أن يتكرر الأمر معه مثلما حدث مع (بتسألينى باحبك ليه)؟!

كان الأمر بالنسبة لـ «محمود الشريف» لا يزيد على كونه لقاء عابرًا بأعظم صوت غنائى أحبه محمود الشريف.. أما بالنسبة لـ «أم كلثوم» فلقد أخبرت «محمود» أن الحب منذ تلك اللحظة قد عرف طريقه إليها وأن قلبها ردد أول لحن عاطفى له بعد أن ظل طوال هذه السنوات صامتًا عن الغناء فى الحياة!!

انطلق «محمود الشريف» محققًا نجاحات كبيرة ولافتة مع أصوات «ليلى مراد» و«عبد المطلب» و«كارم محمود» و«نجاة على» و«سعاد مكاوى» و«أحلام» و«شهر زاد» و«سعاد محمد»، وردد الناس ألحانه التى كانت تسرى فى وجدانهم.. كانت ألحانه تجمع نبضًا شعبيًا وحسًا فلكلوريًا، وذلك رغم أنها ليست ألحانًا فلكلورية، ولكنها من فرط صدقها وعفويتها تشعرك وكأنها ألحان أخذها «محمود الشريف» من أفواه الناس وقدمها للناس.

ولهذا حرص «محمد فتحى» فى عام ١٩٤٦ على أن يقدم لـ «أم كلثوم» مفاجأة وهى ملحن يدخل قدرًا من العصرية على مشوارها الفنى مع العمالقة الثلاثة «زكريا أحمد» و«محمد القصبجى» و«رياض السنباطى»، وقدم «محمد فتحى» لـ «محمود الشريف» كلمات أغنية (شمس الأصيل) لـ «بيرم التونسى»، وبالفعل لحن «محمود الشريف» الكلمات وأسمعها أولاً لـ «محمد فتحى» الذى طلب منه أن يتكتم هذا المشروع الغنائى حتى يظهر للناس.. واتصل «فتحى» بـ «أم كلثوم» بعد أن اطمأن على اللحن، وكانت هناك جلسة ثلاثية جمعت بين الشريف وفتحى وأم كلثوم.. واستعادت «أم كلثوم» «الشريف» أكثر من مرة، ثم طلبت منه أن يذهب إليها فى الحادية عشرة من صباح اليوم التالى ليسمعها اللحن كاملاً فى فيللتها.. وانتظر «محمد فتحى» نتيجة هذا اللقاء (الثنائى) فلم يتصل به «الشريف» ولم تتصل به «أم كلثوم»، وأيقن «فتحى» أن هناك خلافًا حادًا وقع بينهما وأن «أم كلثوم» لم يعجبها اللحن أو أنها طلبت تعديلات والشريف بطبعه لا يقبل أن يتدخل أحد فى ألحانه وأنه على أية حال قد توقف مشروع اللقاء الفنى.

ولم يشأ «محمد فتحى» أن يتدخل حتى لا يغضب أى طرف.. وبعد أسابيع قرأ فى الجرائد - بالتحديد فى أخبار اليوم - خبر زواج أم كلثوم بتاريخ ٧ ديسمبر ١٩٤٦.



أما «محمود الشريف» فلقد ذكر لى أن «أم كلثوم» طلبت منه أن يحضر معه دبلتين يكتب على واحدة (لا إله إلا الله) وعلى الثانية (محمد رسول الله) حتى لا يفترقا أبدًا.. ورغم ذلك كان الفراق.

أما عن لقاءات الحبيبين فقد روى لى «محمود الشريف» أن «أم كلثوم» كانت تزوره فى منزله وارتبطت بصداقة مع زوجته وشقيقته، ولم



تعلم لا الزوجة ولا الشقيقة أن ما يربط «الشريف» و«أم كلثوم» شيء آخر أبعد من مجرد علاقة مطربة بملحن.

كانت «أم كلثوم» تحنو كثيراً على «فاطمة» وتداعبها وتشد من أزرها عندما تشعر أنها تعاني آلام المرض، وتصر «فاطمة» على أن تذيقها طعاماً من يديها عندما يشتد عودها وتصبح قادرة على إعداد المائدة.

وانتقل الشريف بعد ذلك إلى منزل أخيه في الرضاعة محمد محمود شعبان «بابا شارو» حيث كانت تمتد الجلسات بين «أم كلثوم» و«الشريف» و«بابا شارو» وأيضاً ملحن وعازف عود مغمور اسمه «عبد الرءوف عيسى» وهو صاحب لحن وحيد حقق قدراً من الشهرة وهو (يا حاسدين الناس) لـ «محمد عبد المطلب».

وفي إحدى الجلسات كتبت «أم كلثوم» كلمات أغنية «شمس الأصيل» بيدها وقدمتها إلى «محمود الشريف» واحتفظ هو بهذه الوثيقة النادرة.

لم يحاول «الشريف» أن يحتكر صوت «أم كلثوم» بل إنه قال لها أنه يرى أن تعاونها مع «زكريا أحمد» و«القصبجي» و«رياض السنباطي» أمر ضروري وأنه لا يمكن الاستغناء عن ألحانهم.

حلم «محمود الشريف» أنه من خلال صوت «أم كلثوم» يستطيع إحياء المسرح الغنائي الذي وجده «الشريف» ينهار ولا يحاول أحد إنقاذه، فقد انشغل كل من «أم كلثوم» و«عبد الوهاب» بالمنافسة في مجال الأغنية الفردية ولم يعد يشغلهما على الإطلاق أن يقدما للجمهور مسرحاً غنائياً.

قال «الشريف» لـ «أم كلثوم»: أحلم بمسرح «ثومة»، وبدأ في التخطيط لحلمه، واختار موقعاً قريباً من دار الأوبرا القديمة بميدان العتبة.. وكان «الشريف» مولعاً بالرسم فرسم تخطيطاً مبدئياً لهذا المسرح ولاسم «أم كلثوم» الذي يتصدر المسرح.. وبينما كانت تستغرقه أحلامه الفنية كانت «أم كلثوم» غارقة في حالة عاطفية بعيدة عن الفن، فهي تشعر أنها وجدت أخيراً الرجل الذي تبحث عنه.. الرجل القادر على أن يحميها ويدافع عنها ويفرض سلطانه عليها، الذي تستطيع أن تستند إليه، ولهذا فعندما سألها «مصطفى أمين» بذكاء هل ستعتزل الغناء بعد زواجها من «الشريف» قالت له «أم كلثوم»: الأمر له وما يريده هكذا استسلمت (أم كلثوم)!! الكلمات تشي بين سطورها بهذا الخضوع المطلق للرجل الذي أحبته والذي من الممكن أن تضحي بكل شيء من أجله وبأعز ما تملكه «أم كلثوم» ـ صوتها ـ فهي من الممكن أن تهديه لرجل واحد فقط يستمع إليه.. وهو «محمود الشريف».

هذه الكلمة التي قالتها «أم كلثوم» هي التي أثارت الرأي العام ضد «محمود الشريف» فقد أصبح هو الغريم الأول لكل رجل أحب «صوت» أم كلثوم، أما الذين أحبوا (أم كلثوم) فلقد عبر كل منهم عن موقفه الغاضب!

فقد روى لي «الشريف» ما فعله «أحمد رامي» عندما قرأ الخبر في جريدة أخبار اليوم، فلم يشعر بنفسه وهو يخرج من بيته في مصر الجديدة بـ (البيجامة) من هول المفاجأة! واتجه للمحطة واستقل الترام ولم يكن يدري أين سيذهب أو لماذا ركب الترام ولم يدرك أنه يرتدي البيجامة إلا عندما نبهه الكمساري!!

أما «زكريا أحمد» فقد حكى لي «الشريف» أنه ذهب لفيللا «أم كلثوم» لإجراء بروفة عمل معها، وعندما أخبرته مديرة المنزل أن «أم كلثوم» تعتذر لأنها متعبة ـ وكان «زكريا» يعلم أن «محمود الشريف» مقيم بالفيلا ـ فانهال بالشتائم على «أم كلثوم» و«الشريف» وغادر الفيللا!!

أما «القصبجي» العاشق الأول لأم كلثوم فإنه لم يكتف مثل «زكريا أحمد» بأن يقف في بهو الفيللا منتظراً ولكنه صعد مباشرة إلى غرفة نوم «أم كلثوم» ومعه مسدس يخفيه خلف ظهره وبدا متحفزاً تجاه «أم كلثوم» و«الشريف»، وتنبهت «أم كلثوم» لذلك فقالت له: مخبي إيه ورا ظهرك يا قصب؟!.. ووقع المسدس من القصبجي ووقع هو أيضاً على الأرض!

وتحولت هذه الواقعة إلى شكوى في النيابة بتهمة الشروع في القتل تقدم بها «الشريف» ضد «القصبجي».. وبدأت النيابة التحقيق.

ولكن «أم كلثوم» تدخلت في اللحظات الأخيرة وأوقفت التحقيق حتى لا يقف «محمد القصبجي» أمام النيابة وتتحول الواقعة إلى قصة تلوكها الألسنة وتتلقفها الصحف.

حتى القصر الملكي لم يرض عن هذه الزيجة وتدخل لمنعها.. وتلقت «أم كلثوم» ـ التي كان قد أنعم عليها الملك بلقب «صاحبة العصمة» ـ تهديداً مباشراً من القصر الملكي بإيعاز من «شريف باشا صبري» خال الملك الذي كان عاشقاً لـ «أم كلثوم».

وكان ينبغي أن تتم تغطية هذا الحدث ـ انفصال «أم كلثوم» و«محمود الشريف» ـ إعلامياً بما يرضي كل الأطراف «أم كلثوم». أما «محمود الشريف» فإنه سوف ينسحب أو يتوارى قليلاً، هذا ما اعتقده «مصطفى أمين» ـ أقرب أصدقاء «أم كلثوم» من الصحفيين خلال تلك السنوات..

حاولت «أم كلثوم» أن تهون على «الشريف» وطلبت منه أن يهدئ من ثورته وأن يخفض رأسه للعاصفة حتى تمر بسلام وأن تظل العلاقة قائمة ولكن بلا إعلان.. لكنه لم يرض بأن يقف في تلك المنطقة الرمادية التي يرفضها دائماً لأنها ضد طبيعته الجامحة والجانحة.. ولهذا ترك دبلة الخطوبة ـ والتي كتب عليها (لا إله إلا الله) ـ في فيللا «أم كلثوم» ولم يعد إليها..

أما «مصطفى أمين» فلقد كتب مقالاً عنوانه (جنازة حب) كله أكاذيب كما وصفه «محمود الشريف».

وعلق «الشريف» على المقال قائلاً: (إن المقال انحاز لـ «أم كلثوم» على حساب الحقيقة، وانحاز للقصر والملك على حساب كل القيم.. وأم كلثوم تعرف زوجتي وشقيقتي وجاءت إلى منزلي أكثر من مرة، والوسط الفني كله يعرف أنني متزوج!).

بل لقد كتب «الشريف» ـ بخط يده ـ يروي أن «أم كلثوم» لمحت الحزن يخيم على «الشريف» يوماً فسألته عن سر حزنه.. فقال لها: فاطمة مريضة.. فقالت له «أم كلثوم»: أنا لهذا أحترمك، وأحبك، بسبب إخلاصك لزوجتك..

وليس أدل من ذلك على أن «أم كلثوم» كانت تعلم أنه متزوج لكن «مصطفى أمين» أراد أن يجعل من هذه العلاقة قصة ميلودرامية تبدو فيها «أم كلثوم» بطلة لا تريد أن تبني سعادتها على تعاسة امرأة مريضة.. وبالطبع فإن نسج القصة بهذا الشكل سوف يزيد من تعاطف الجمهور مع «أم كلثوم» ومن غضبهم على «الشريف» الذي يبدو مخادعاً أخفى زواجه عن الحبيبة البطلة «أم كلثوم»!



والغريب أنه كما قال لي «الشريف» أنه هو الذي مهد للعلاقة بين «أم كلثوم» و«حسن الحفناوي» أستاذ الأمراض الجلدية الذي أصبح زوجاً لـ «أم كلثوم» بعد ذلك، والذي كان صديقاً «للشريف»، فعندما اشتكت «أم كلثوم» من بعض المتاعب قدم لها «الشريف» صديقه «حسن الحفناوي».. وعندما تزوجت «أم كلثوم» بـ «حسن الحفناوي» ـ عام ١٩٥٣ ـ كانت تعلم بالطبع أنه متزوج وعنده أولاد!

ولا ينسى «الشريف» وقع خبر الزواج على «فاطمة» التي كظمت غضبها، لكن «الشريف» أخبرها أن هذا الزواج هو أقرب للمشروع الفني وأنها ستظل زوجته وحبيبته التي لم يحب غيرها رغم أن الأطباء كانوا يحذرونه من أن العلاقة الزوجية بينهما ممنوعة حتى لا تتأثر صحتها، ولكن العلاقة بينهما كانت أقوى من العلاقة المادية بين كل زوج وزوجته..

كان أول شيء فعله «محمود الشريف» هو أنه قد ألقى باللحن الذي أعده لـ «أم كلثوم» لأغنية (شمس الأصيل) من شرفة منزله بعد أن مزق شريط البروفة ـ على العود ـ التي جمعت بينه وبين «أم كلثوم».. أما اللحن الذي يذاع حالياً فهو من تلحين «رياض السنباطي».

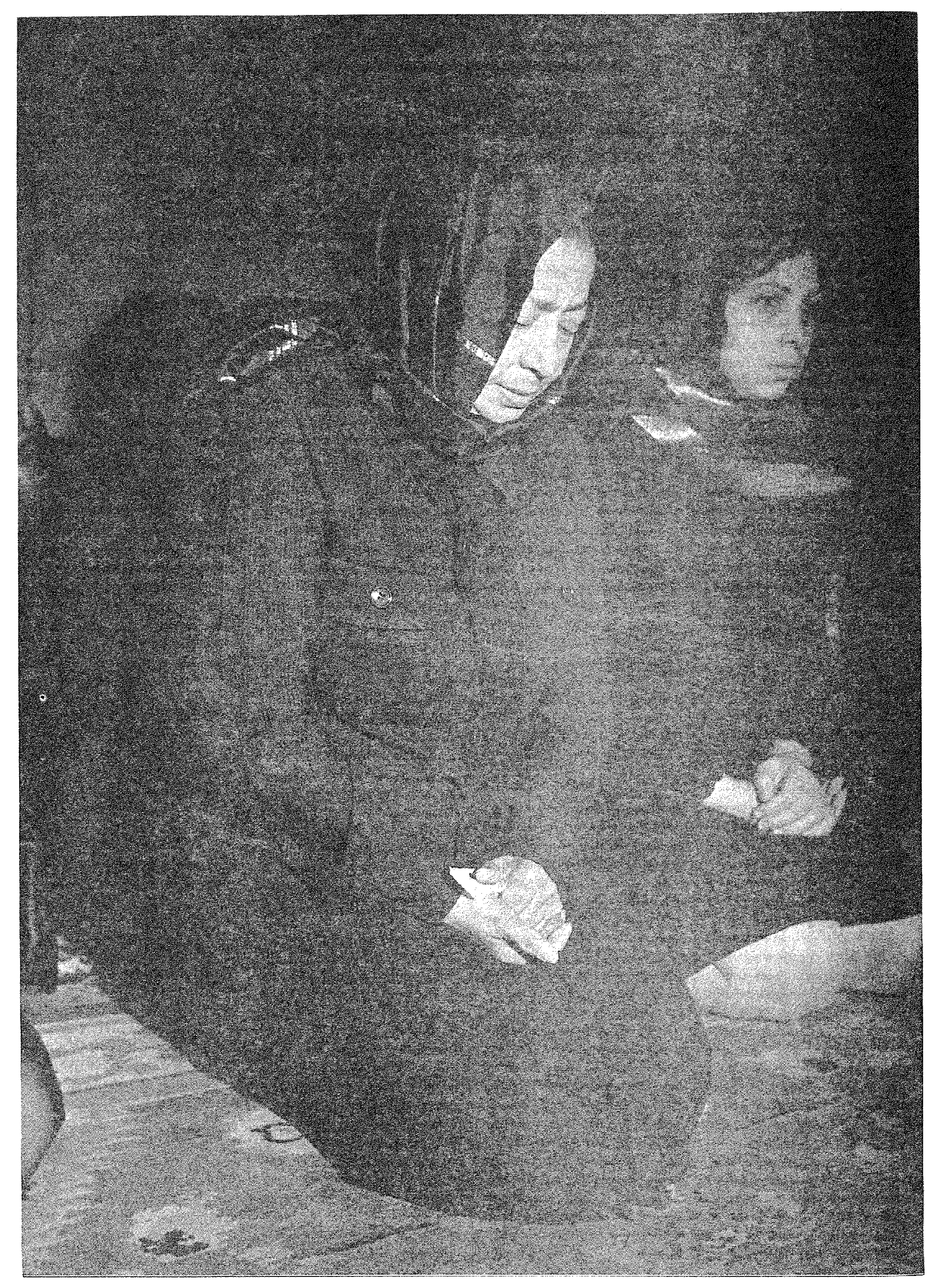
ظل الشريف يضع كل مشاعره في ألحانه.. وعندما يجد لديه لحناً غير مكتمل يهرع إلى «فردوس» ـ عشيقته ـ في المنصورة.. وفي لحظة أخرى يجد نفسه يبكي على حبيبته وقديسته ـ كما كان يطلق عليها ـ «فاطمة» إذا ما اشتد عليها المرض الذي لم يمنعها أن تنجب له ابنته الوحيدة «إكرام» لتظل بينهما رابطة لا تنقطع حتى بعد رحيل الحبيبة التي كانت تعلم أن ملاك الموت ينتظرها قبل أن تصل إلى الثلاثين من عمرها!!



سألت «محمود الشريف» بعد رحيل «أم كلثوم»: إذا التقيت بـ «أم كلثوم» في الخلود ما الذي تقوله لها وتتوقع أن تقوله لك؟ قال لي: سوف أقول لها ألم أقل لك أن المسرح الغنائي هو الخلود الفني الحقيقي!.. وتوقع «الشريف» أن تقول له: عندك حق يا «محمود»!!

هذه هي قصة «الشريف» و«ثومة» التي رواها لي «محمود الشريف» والتي سجل بعضها بقلمه، وتناقلت بعض وقائعها قصاصات من الصحف.. والتي قال عنها «محمود الشريف»: لم تكن قصتي مع «أم كلثوم» حكاية الشاطر حسن وست الحسن والجمال ولكنها مأساة ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

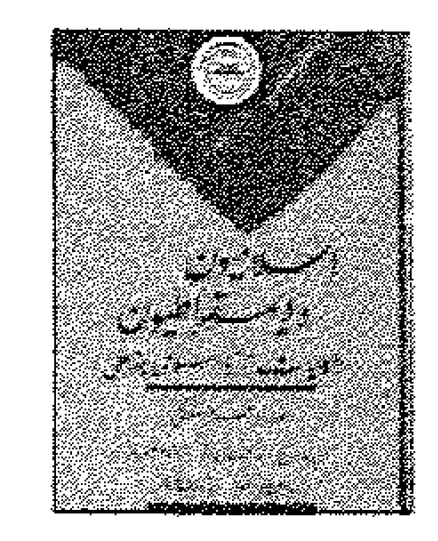
إنه الرجل الذي أحبته «أم كلثوم» وكانت على استعداد لأن تضحي بالجميع من أجله كما قالت له.. إن أمراء وأثرياء قدموا لها قلوبهم لكن قلبها لم يخفق إلا لهذا الرجل.. بينما أحبها «محمود الشريف» صوتاً قادراً على أن يقدم ألحانه للناس ويضمن لها الذيوع والانتشار على كل الألسنة.. وتحولت علاقة «أم كلثوم» بـ «محمود الشريف» مع الزمن إلى أغنية أضاف لها الناس، وأضافت لها بعض الأقلام بعض الأنغام النشاز التي لم تكن في اللحن الأصلي الذي صاغه «الشريف» و«أم كلثوم»! ■



تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

إسلاميون وديمقراطيون إشكاليات بناء تيار إسلامى ديمقراطى

تحرير: د. عمرو الشوبكى
القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٤، ٣١٧صفحة



هل الإسلام ضد الحداثة؟ هل هناك إعاقات بنيوية داخل الأنساق العقيدية والشعائرية والتشريعية والقيمية الإسلامية تناهض الديمقراطية؟ هل هناك إمكانية لتطوير الجماعات الإسلامية السياسية، وخاصة أنظمتها الفكرية والأيديولوجية وخطاباتها ومنظماتها وكوادرها واستراتيجيتها، بحيث تستطيع صياغة برامج إسلامية وديمقراطية؟

وهل التجارب الإقليمية السياسية فى تطور المنظمات الإسلامية السياسية فى إطار ديمقراطى، كالحالة التركية، يمكن أن تشكل مثالاً سياسياً قابلاً للاحتذاء والاستمداد السياسى وأقلمته داخل بنى سوسيو - سياسية وثقافية أخرى فى إطار الجغرافيا السياسية للإسلام العربى؟، وفى نطاق الحالة المصرية بكل تضاريسها السياسية والثقافية والاجتماعية التاريخية المعقدة؟

وما هى تأثيرات العولمة وأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ على تطور الجماعات الإسلامية السياسية؟

أسئلة عديدة، يثيرها هذا الكتاب الذى شارك فيه نبيل عبد الفتاح، ود. جان ماركو وهشام جعفر ود. مصطفى اللباد وهبة رءوف عزت بالإضافة إلى د. عمرو الشوبكى.

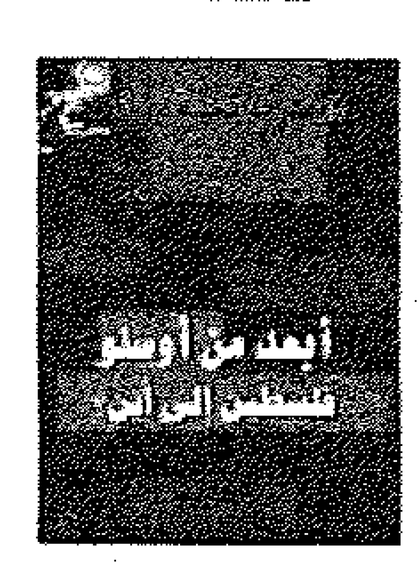
ويناقش الكتاب من أكثر من زاوية التحولات التى شهدها الخطاب الإسلامى، والتحديات الكبيرة التى تقف أمام تحول هذا التيار إلى تيار ديمقراطى يؤمن باحترام الحريات العامة وحقوق الإنسان، وليمثل عنصر قوة فى نهضة الأمة.

وقد جاء القسم الأول ليعالج التحديات الفكرية والسياسية التى تقف أمام تطور التيار الإسلامى، والعوامل التى تكبح انطلاق «خيال الإسلاميين» كما أشارت هبة عزت فى دراستها الجريئة، أو تلك المتعلقة بالتحديات التى تقف أمام بناء مشروع إسلامى ديمقراطى كما كتب هشام جعفر فى دراسته المهمة حول هذا الموضوع. وتضمن القسم الثالث مجموعة من الدراسات حول مجموعة من التجارب والتحولات التى شهدتها الحركات الإسلامية فى مقارنة بين النماذج الثلاثة «الكبار فى الشرق الأوسط: تركيا وإيران ومصر، وقدم د. عمرو الشوبكى دراسة مقارنة بين خبرة الإخوان المسلمين فى مصر، وحزب العدالة والتنمية فى تركيا، وقدم د. جان ماركو دراسة دقيقة عن «الإسلام السياسى وما بعد الإسلام السياسى فى تركيا»، وكتب د. مصطفى اللباد دراسة أخرى مهمة عن تحولات النموذج الإيرانى وتطور الخطاب الدينى من الخمينى إلى خاتمى.

أما القسم الثالث فتضمن دراسة لنبيل عبد الفتاح حول «العولمة والديمقراطية والإسلام السياسى» ألقت الضوء على مستقبل التيارات الإسلامية فى ظل بيئة عالمية جديدة، «تعولت» فيها الكثير من القيم التى أثرت على الخطاب الإسلامى.

أبعد من أوسلو.. فلسطين إلى أين؟

نايف حواتمة
القاهرة: مركز المحروسة، ٢٠٠٤، ٣١٢صفحة



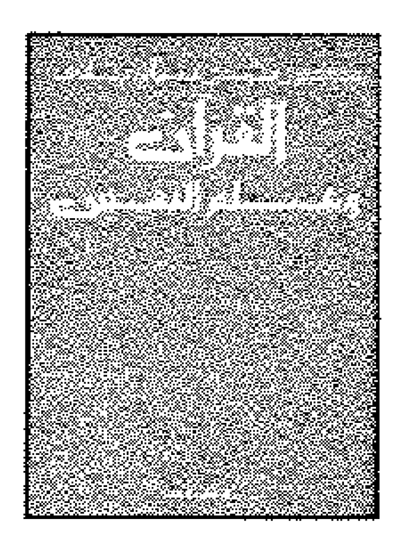
يبحث هذا الكتاب فى ملحمة الصمود الأسطورى للشعب الفلسطينى على مدى ٤٥ شهراً من الانتفاضة، وكيف أدى هذا الصمود إلى انكسار شعارات شارون من «دعوا الجيش ينتصر» و«لا لبيع أرض إسرائيل» إلى «لا يمكن إدامة الاحتلال إلى الأبد» والاستعداد «لتنازلات مؤلمة».. و«لا بد من إقامة دولة فلسطينية» و«حان الوقت لتقسيم أرض هذه البلاد».

يطالب الكتاب بالعمل على إيجاد موقف فلسطينى، وقيادة فلسطينية موحدة، وحكومة اتحاد وطنى تتحد فيها الإيقاعات بين المؤسسات الفلسطينية، لتتمكن هذه المؤسسات من أن تأخذ دورها ومداها عملاً بوثائق فلسطينية كثيرة وفى المقدمة منها وثيقة «إعلان الاستقلال» فى نوفمبر ١٩٨٨، التى قررت بناء نظام سياسى فلسطينى برلمانى ديمقراطى، يقوم على المساواة بين المواطنين بغض النظر عن الجنس والعرق والدين والمذهب، والمساواة بين الرجل والمرأة.. وهى المطالب التى طرحت على الساحة الفلسطينية قبل عدة سنوات من خارطة الطريق الرباعية الدولية، والدعوة الأمريكية لإصلاح السلطة الفلسطينية.

ويؤكد المؤلف أن السياسة الانفرادية والانقسامية فى السلطة الفلسطينية هى «العقدة الرئيسية» فى تصحيح المسار الوطنى - القومى الفلسطينى، وإعادة بناء عناصر وأعمدة القوة الفلسطينية نحو إنجاز مهمات المرحلة، وفتح الطريق نحو مرحلة لاحقة تحت سقف «فلسطين ديمقراطية موحدة».. وهذه هى القضية المطروحة على الأشقاء فى قوى التحرر والتقدم العربية، وقوى الحرية والسلام العالمية.

القرآن وعلم النفس

د. محمد عثمان نجاتى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ٣١٩صفحة



تضمن القرآن الكريم كثيراً من الآيات التى تعرضت لطبيعة تكوين الإنسان، ووصفت أحوال النفس المختلفة، وبينت أسباب انحرافها ومرضها، وطرق تهذيبها وتربيتها وعلاجها.

يؤكد المؤلف أن هذه الآيات بمثابة المعالم التى يسترشد بها الإنسان فى فهم نفسه وخصالها المختلفة، وفى توجيهه إلى الطريق السليم فى تهذيبها وتربيتها، كما أنه من الممكن أن نسترشد بما ورد فى القرآن الكريم من حقائق عن الإنسان، وصفاته وأحواله النفسية فى تكوين صورة صحيحة عن شخصية الإنسان، وعن الدوافع الأساسية التى تحرك سلوكه، وعن العوامل الرئيسية لتوافق شخصيته وتكاملها، ولتحقيق صحته النفسية، مما يكون من شأنه أن يمهد الطريق لقيام «علم النفس» تتفق نتائجه وحقائقه مع الحقائق الصحيحة عن الإنسان التى نستمدها من كلام الله سبحانه وتعالى، خالق الإنسان والأعلم بطبيعته وأسرار تكوينه.

يهتم الكتاب بالتركيز على الجوانب الدينية والروحية والقيم الإنسانية العليا والحب فى أسمى صوره الإنسانية، بعيداً عن النواحى الجنسية التى تغلب على دراسة علماء النفس المحدثين للحب، وأثر العبادات فى سلوك الإنسان، والصراع النفسى بين الدوافع البدنية والدوافع الروحية، وهى مجالات بدأ الاهتمام بها يأخذ حظه بعد طول تجاهل لها من الغالبية من علماء النفس، حتى بدأ عدد قليل منهم يفطن إلى أهمية دراسة النواحى الروحية فى الإنسان دون الاقتصار على دراسة السلوك الإنسانى الذى يمكن ملاحظته وقياسه.

عمارة الفقراء أم عمارة الأغنياء رؤية موضوعية لعمارة حسن فتحى

محمد عبد السلام العامرى
القاهرة: مكتبة مدبولى، ٢٠٠٤، ١٤٧ صفحة



يبدأ المؤلف أول سطور كتابه هذا بسؤال يشبه العاصفة: هل من الخطأ إعطاء حسن فتحى مكاناً مركزياً فى تطوير العمارة المعاصرة كما قال أحد المعماريين؟ وهل صحيح أن مفرداته محدودة وأن طرق البناء التى أعاد اكتشافها قد طبقت فى عدد محدود من المشروعات فى الإسكان الريفى؟

يجيب المؤلف أن هناك عيوباً كثيرة ونقاط ضعف لا حصر لها، ورؤية غير واضحة مشوشة فى عمارة حسن فتحى التى أبدعها للفقراء. إذ أن عمارة الطين لا يمكن أن تدخل المدينة، ولن تحل مشاكل المجتمعات الحضرية ذات الكثافة السكانية العالية، حيث الأرض غالية الثمن، والامتداد رأسياً، وهذا ما يتعارض مع التوسع الأفقى لعمارته. كما أنها لا تقاوم الزمن ولا المناخ وتنهار بعد فترة تحت تأثير مياه الأمطار.

وقد استعانت عمارته بالقباب التى ارتبطت بالأضرحة فى وجدان الإنسان المصرى، حتى أن علماء المسلمين دعوا إلى اعتبار القبة أمراً غير مستحب فى عمارة المساجد، كما انحصر فكره المعمارى فى البناء السكنى المفرد، ولم يمتد إلى البناء السكنى المركب.

وهناك مآخذ كثيرة على هذه العمارة وعلى هذه النظرية، إلا أن هذا لا يقلل من محاولة الرجل فى بحثه عن نظرية معمارية محلية تتناسب مع المواد المحلية.

إلا أنه من الثابت أن الرجل قد عرف قدر المثقفين والضغوط فى المجتمع والأثرياء الذين بقيت منازلهم الخاصة تجسيداً بارزاً ومهماً فى فن البناء، وأنه على مدى عمره الطويل ونظريته التى ملأت الدنيا، لم يسكن عمارته فقير واحد.

ويقول المؤلف: لا شك أن مثل هذه التساؤلات حول هذه النظرية المعمارية تؤكد أنه لابد أن يكون خلفها ثراء وغنى ونموذج وقدرة ووظيفة وريادة وعبقرية مقاتلة فى الدفاع عنها فى النفس الأخير.

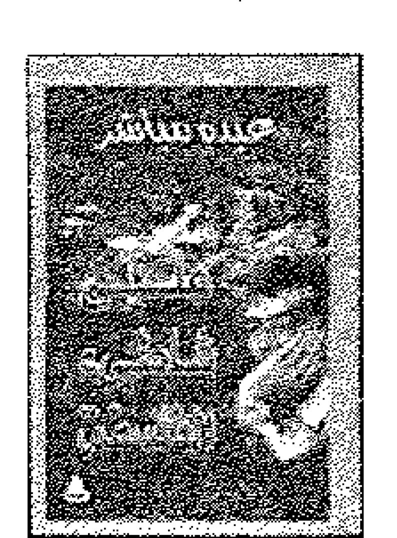
يلقى الكتاب الضوء على أفكار حسن فتحى خاصة فيما يتعلق بالنظام التعاونى الاشتراكى فى البناء، مؤكداً الجانب الإنسانى فى عمارته، الذى يشدد على أن عشرة أفراد يستطيعون بناء عشرة مساكن، لكن فرداً واحداً لا يستطيع بناء مسكن واحد. كما كان يؤمن بأنه لا مناص للمجتمعات النامية أو الفقيرة من استعمال التكنولوجيا المتوافرة فى البناء والتى تعتمد على المادة المحلية كالطين فى الأرياف والأحجار والطوب الطفلى فى الصحراء، كما تعتمد على المهارات المحلية فى التشييد، وتواجه فى الوقت نفسه كل المتطلبات المعيشية للإنسان وظيفياً ومناخياً بالوسائل الذاتية ودون الاعتماد على التكنولوجيا الغربية.

■

على شاطئ الفلسفة

عبده مباشر

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥، ٢٤٤ صفحة، ٤٧٥ قرشًا



الفلسفة فى رأى المؤلف ليست رياضة عقلية أو قفزًا فى المجهول، بل طريقًا لاكتساب الحكمة وتدريب العقل والتعمق فى التفكير، وتربية ملكة النقد الدقيق والحكم السليم. ومعرفة الفلسفة أو حتى الاقتراب منها ومن قضاياها تتيح للقارئ الاطلاع على تطور التفكير البشرى، وتفتح الباب لمعرفة أحوال الميتافيزيقا والمنطق، وتنمى لديه ملكة البحث الحر والنقد، وتقوده إلى التفرقة بين الأفكار الفلسفية والدينية والأساطير.

وفى هذا الكتاب، حاول الكاتب تبسيط مفهوم الفلسفة، وتقديم موجز لتاريخها وبحوثها وتطورها بدءاً بالفلسفة اليونانية وصولاً إلى بدايات الفلسفة الحديثة مروراً بالفلسفة الإسلامية.

■

الإنسان المغترب عند إيريك فروم

د. حسن حماد

القاهرة: مكتبة دار الحكمة، ٢٠٠٥، ٢٧٨صفحة



تعد كلمة الاغتراب من أكثر الكلمات تداولاً فى الكتابات التى تعالج مشكلات المجتمع المعاصر، وقد أصبح من المألوف أن نجد كثيراً من المفكرين المعاصرين يصفون الإنسان المعاصر بأنه إنسان مغترب.

يدور الفصل الأول عن حياة «فروم» وحياته وعصره وأفكاره ومؤلفاته، ويبحث الفصل الثانى فى الجذور اللغوية لفكرة الاغتراب عند فروم، والكشف عن الجذور التاريخية للاغتراب عنده سواء من خلال إشاراته هو شخصياً لأهم الشخصيات التى أثرت فى بلورة أفكاره عن الاغتراب، أو فى التشابه بين مفهوم الاغتراب عنده وبين مفهوم الاغتراب كما ورد لدى الفلاسفة السابقين عليه. كما تعرض هذا الفصل لفكرة الاغتراب فى العهدين القديم والجديد، وفكرة الاغتراب لدى الفلاسفة السابقين والمعاصرين.

وتعرض الفصل الثالث بالمناقشة لمعنى الاغتراب عن الذات عند فروم الذى يرتبط بمفهومى «الذات الزائفة» و«الذات الأصيلة».

ويبحث الفصل الرابع فى الاغتراب الشامل فى المجتمع المعاصر، سواء فى النظام الاشتراكى أو الرأسمالى: فى علاقات الإنسان بالآخرين وفى مجال العمل وفى الإنتاج والاستهلاك، وفى الموقف الدينى المعاصر، وفى ممارسة الحب المزيف، وفى هذا الفصل يبدو تأثر «فروم» الواضح بكارل ماركس خاصة فى مجال معالجة «اغتراب العمل» و«اغتراب الناتج البشرى» و«اغتراب الاستهلاك»، ويلاحظ المؤلف أن فروم يركز على الجانب الإنسانى من نقد ماركس للرأسمالية.

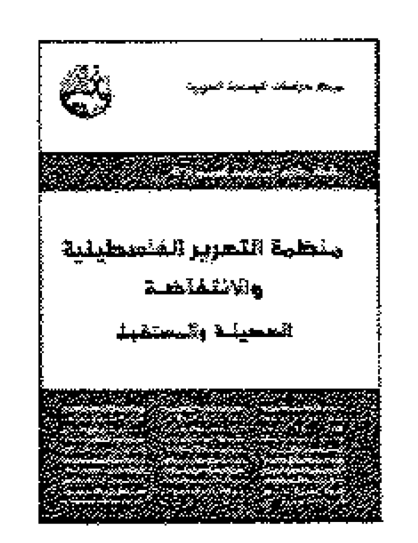
ويدور الفصل الخامس عن «قهر الاغتراب» عند فروم.

ويؤكد المؤلف أنه باستعراض مؤلفات فروم يتضح أنه لم يقدم نظرية متكاملة عن الاغتراب، لأنه لم يجعل من دراسة الظاهرة هدفاً فى ذاته، وإنما استخدمها كوسيلة لكشف بعض السلبيات التى يعانى منها الإنسان المعاصر، ولفهم التطورات الاجتماعية التى حدثت بعد ظهور الرأسمالية.

■

منظمة التحرير الفلسطينية والانتفاضة: الحصيلة والمستقبل

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤، ٢٤٣ صفحة، ٧ دولارات



صدر حديثًا عن مركز دراسات الوحدة العربية كتاب «منظمة التحرير الفلسطينية والانتفاضة: الحصيلة والمستقبل» ضمن سلسلة كتب المستقبل العربى(٣٦)، وبمشاركة نخبة واسعة تضم: عبد الإله بلقزيز ومجدى حماد وشفيق الحوت وأسامة حمدان وحسين أبو النمل وصلاح الدين الدباغ وسهيل الناطور وسليمان الرياشى وإبراهيم الدقاق وأنيس صايغ وأسامة عبد الرحمن ومحمد خالد الأزعر وأسعد عبد الرحمن وطلال ناجى ورمضان عبد الله شلح وصلاح صلاح وهشام شرابى ونواف الموسوى وعماد فوزى شعيبى وماهر الطاهر وخير الدين حسيب وسليم الحص وهيثم الكيلانى وعزمى بشارة وناصر قنديل وعماد جاد ومنير شفيق وجورج ناصيف ورفعت النمر.

تكمن أهمية هذا الكتاب فى أنه خلال عام (٢٠٠٤)، تكون قد مرت أربعون سنة منذ تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية، وثلاثون سنة على إعلان «البرنامج المرحلى» لمنظمة التحرير (الذى أسس لفكرة المرحلية ولفكرة قيام سلطة وطنية فى المناطق المحتلة فى حرب ١٩٦٧)، وأربعة أعوام منذ اندلاع انتفاضة الأقصى. وهى مناسبات كبيرة ومفصلية فى تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية، طبعت نضالها خلال مساره الطويل المتعرج. ومن الطبيعى أن يُعاد فتح ملف العمل الوطنى الفلسطينى فى ضوء حصيلة هذه الحقبة من تراكمات النجاح والإخفاق فيه للتأمل فى دروسها، واستيعاب ما يحتاج إلى استيعاب من تلك الدروس. وليس من شك فى أن تناول تجربة منظمة التحرير والانتفاضة يقع فى قلب تلك الحاجة إلى إعادة فتح ذلك الملف.

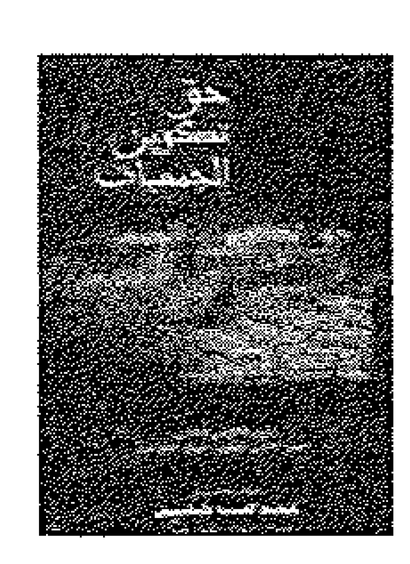
تحاول مادة هذا الكتاب تقديم مساهمة فى مجال تلك القراءة المطلوبة اليوم لتجربة العمل الوطنى الفلسطينى من مدخلين رئيسيين: منظمة التحرير الفلسطينية وانتفاضة الأقصى. وهى مساهمة شارك فيها باحثون مختصون فى القضية الفلسطينية والصراع العربى - الإسرائيلى، وسياسيون وقادة فى فصائل الثورة ومؤسسات منظمة التحرير. والكتاب يستكمل ما سبق ونشره مركز دراسات الوحدة العربية من كتب ودراسات.

■

حق تكوين الجمعيات

إعداد وتحليل: عبد الله خليل

القاهرة: ٢٠٠٤، ٥٢٢ صفحة



تشغل قضية حرية تكوين الجمعيات وتمويل العمل الأهلى فى المنطقة العربية حيزًا كبيرًا من الاهتمام خاصة فى ظل وجود العديد من القوانين المعوقة لهذه الحرية.

وهذه الدراسة تحاول الوقوف على هذه المعوقات لإيجاد وسيلة عربية لدعم مؤسسات المجتمع المدنى وتقوية قدراتها فى تنمية مواردها المحلية لدعم نشاطها فى المجالات الإنسانية. وتقوم الدراسة على فكرة موجزها هو: «إنشاء مؤسسة غير ربحية تكون مهمتها إدارة وديعة وقفية نقدية، يخصص عائدها لتوفير الدعم والمنح المالية للمؤسسات الاجتماعية والخيرية ونشطاء حقوق الإنسان وسيادة القانون فى المنطقة العربية».

وقد تم اختيار خمس دول عربية تتمتع بهامش نسبى من الحرية لدراسة إمكانية إنشاء صندوق فى أى منها فى ظل الأنظمة القانونية السائدة فيها وهى: مصر - لبنان - المغرب - الأردن - الإمارات العربية المتحدة «دبى».

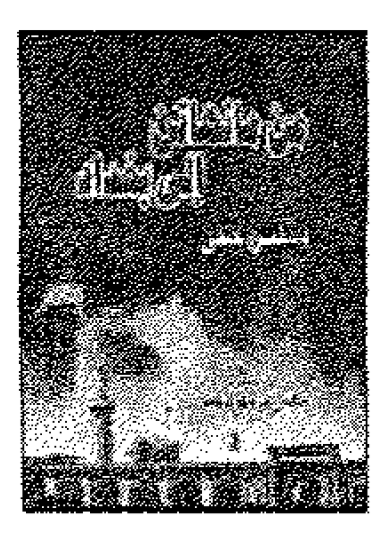
تتناول الدراسة الوضع التشريعى فى الدول محل الدراسة، الذى يحكم عمل المؤسسات الخيرية الوقفية لتمويل مؤسسات ونشطاء برامج حقوق الإنسان.

■

من مانهاتن إلى بغداد

د. حسن حنفى

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤، ٤٢٠ صفحة



هذا الكتاب يدحض ذريعة اتخاذ الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ للعدوان على أفغانستان ثم العراق، وتهديد سوريا وإيران والسودان واليمن وتهميش مصر.

يوضح الكتاب أنه بحجة القضاء على أسلحة الدمار الشامل التى بحوزة صدام حسين تم تدمير العراق نفسه من أجل خلق إسرائيل الكبرى من الفرات إلى النيل وتحقيق الحلم الصهيونى، ووصول النفوذ

الأمريكى حتى أواسط آسيا لحصار الصين والاتحاد السوفيتى، والقضاء على تجربة النمور الآسيوية فى جنوب شرق آسيا.

يساهم الكتاب فى إعادة بناء الوطن العربى فى مرحلة ما بعد العدوان على فلسطين والعراق، ويبين أسباب العجز العربى، وحصار النظم العربية بين المطرقة والسندان:

مطرقة الخارج والتبعية له، وسندان الداخل فى قهر الشعوب، وهو يمهد أيضاً لإرساء حركة تحرر عربى ثانية تبدأ من المقاومة الوطنية فى العراق وفلسطين.

كما يمد الكتاب جسور القومية العربية إلى دول الجوار، إيران وتركيا، وتدعيم ظهيرى الوطن العربى من أجل نزع فتيل الصراع بين الثورة العربية والثورة الإسلامية فى إيران، وإبعاد تركيا عن الحلف من الكيان الصهيونى من أجل تكوين قطب ثان عربى إسلامى فى مواجهة عالم أحادى القطب.

ويقيم الكتاب أيضاً الجسور بين العرب وأوروبا من خلال حوار الحضارات وتنمية العلاقات الثقافية التاريخية بين ضفتى البحر الأبيض المتوسط من أجل إبعاد أوروبا عن أمريكا وربطها أكثر بالوطن العربى.

والكتاب يمثل جهد المؤلف الكبير فى تشخيص أزمات العالم العربى والإسلامى، محاولاً تقديم بدائل ثورية لمواجهة هذه الأزمات اعتماداً على القوى العربية فى الأساس، بتحالفاتها الخارجية كما قدم أيضاً مفاهيم التعاون الإقليمى والاعتماد المتبادل كبديل عن العولمة.

مياه النيل فى السياسة المصرية

أيمن السيد عبد الوهاب

القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٤، ٢٢٩صفحة

اكتسبت قضايا المياه أهمية استثنائية فى السياسات العالمية، وخاصة فى العقود الأخيرة، ولا سيما فى الأقاليم الفرعية والدول التى تعانى من نقص المياه، أو سوء توزيعها.

ومن ثم أصبحت واحدة من مصادر إثارة النزاعات السياسية والعسكرية، التى من الممكن أن تشتعل فى السنوات أو العقود المقبلة وخاصة فى منطقة الشرق الأوسط.

وقد كان النيل ولا يزال أحد أبرز دوائر اهتمامات السياسة الخارجية المصرية، لعدة أسباب منها اعتباره من أهم قضايا الأمن القومى والإقليمى المصرى، وأيضاً باعتباره يشغل حيزاً مهماً من الإدراك النخبوى والشعبى، وبارتباطه بطبيعة الدولة المركزية فى مصر. كما شكلت مياه النيل أحد أبرز محددات السياسة الخارجية تجاه دول حوض النيل، الذى يخضع لسياسات دول كبرى وإقليمية ومصالح متنافسة، فى ظل إطار قانونى دولى يحكم عملية توزيع الحصص بين وحدات نظام حوض النيل الفرعى.

وتعد هذه الدراسة مدخلاً أساسياً لتحليل آليات صنع وتنفيذ السياسة المصرية إزاء دول الحوض، فضلاً عن تقييم هذه السياسة بموضوعية.

يوم سقوط بغداد
الحكام العرب فى عيون شعوبهم

د. أيمن منصور ندا

القاهرة: المدينة برس، ٢٠٠٤، ٢٦٦صفحة



تأتى أهمية هذا الكتاب/ الدراسة فى أنه الأول من نوعه - عربياً - الذى يقيس اتجاهات الرأى العام تجاه حكامه، كما تنبع أهميته من اللحظة التاريخية التى تم فيها جمع البيانات الميدانية لهذه الدراسة وهى يوم التاسع من أبريل ٢٠٠٣، وهو اليوم الذى سقطت فيه بغداد، وهو الأمر الذى يجعل هذه الدراسة «وثيقة تاريخية» ترصد نبض الرأى العام، فى لحظة خاصة جداً، على إيلامها.

وقد كشفت هذه الدراسة عن عدة مؤشرات مهمة، إضافة إلى نتائجها، منها: أن الرأى العام المصرى ليس كامناً، كما يتهمه البعض، وليس سلبياً كما يراه البعض، فهو رأى عام واع ومدرك لما يحدث، ويستطيع أن يعبر عن رأيه ويكشف عن اتجاهاته بوضوح وقوة.

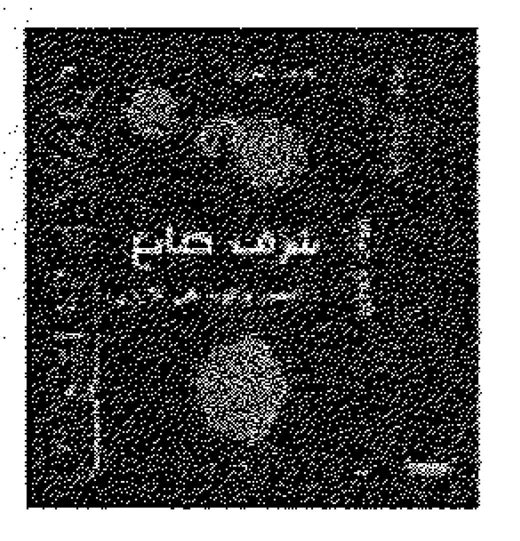
ورغم حساسية موضوع الدراسة وما قد يثيره فى نفوس البعض من خوف أو قلق، فقد انخفضت نسبة الرافضين لإجراء الدراسة معهم، وقلت نسبة المتهربين من الإجابة عن بعض أسئلتها.

ومع الشكل الأكاديمى الذى حرص المؤلف عليه فى كتابه، فإنه بالتأكيد سوف يكون مفيداً للباحثين المتخصصين، وأيضاً مهماً للمثقفين والمفكرين، وبالإضافة إلى ذلك، ممتعاً لكل قارئ جاد يستطيع قراءة ما بين السطور.

شرف ضائع - الموت والحب فى الأردن

نورما خورى

دمشق: دار قدمس، ٢٠٠٤



هذا الكتاب أثار معركتين حاميتين تعدتا الحدود العربية إلى أستراليا..!

كان موضوع المعركة الأولى هو مضمون الرواية التى تدور حول الجرائم ضد النساء التى ترتكب باسم الشرف والعرض، وهى الجرائم التى تحتل مساحات واسعة من الجدل فى العديد من المجتمعات العربية وبخاصة فى الأردن، حيث تنتشر جرائم قتل النساء بدعاوى الحفاظ على العرض فى وقت يوفر القانون «للرجل القاتل» حماية من العقاب الرادع، تشجعه على تكرار جريمته، وتوفر بيئة مواتية لاستمرار هذه الجرائم.

أما المعركة الثانية، فقد اندلعت مع اتهام البعض للمؤلفة بالكذب، حيث شككت صحيفة «سيدنى مورننج هيرالد» الأسترالية بصحة رواية المؤلفة على أساس أنها عاشت خارج الأردن فى الوقت المفترض أن جريمة ضد إحدى النساء قد وقعت فيه، وهو ما يعنى أن جوانب مهمة من الرواية مختلقة أو على الأقل غير دقيقة، فى نفس الوقت كانت «دار قدمس» قد قاربت على الانتهاء من إعداد النسخة العربية من الكتاب للنشر، بعد أن أخذت الإذن من المؤلفة على ترجمة روايتها من الإنجليزية إلى العربية، والتى وافقت فوراً وطلبت التبرع بعائد بيع الكتاب إلى منظمة غير حكومية بالأردن.

وتؤكد مقدمة الناشر العربى للكتاب أنه لاحظ بكل تأكيد الأغلاط التى ارتكبتها المؤلفة فى وصف عمان وجغرافية الأردن، ولم يغب عنه إطلاقاً الحبكة الدرامية التى لا مفر منها فى أى كتابة، إلا أن النقطة الرئيسية لم تكن جغرافية عمان ولا حدود الأردن، إنما الجريمة التى ترتكب باسم الشرف والدين، وعدم تصدى السلطات المعنية لها. وتقول المقدمة أيضاً: «وإذا كنا لم نفاجأ إطلاقاً بالحملة «الغربية» على السيدة نورما التى «أوقعت بهم» وفضحت معاداتهم الغريزية للعرب والإسلام والتى استندت إلى قصة مختلفة ساهموا هم مساهمة مباشرة فى نشرها، فإننا فجعنا حقاً بقيام سيدات جعلن، على ما يدعين، من قضية «جرائم الشرف» وحقوق المرأة فى محور نضالهن اليومى، بالتشهير بالكتاب ومؤلفته، حيث قالت إحداهن إنها «اكتشفت فى الكتاب ٧٠ غلطاً».

وفى ظل هذا اللغط الساخن يطرح البعض تساؤلات مهمة: هل يتغير وضع المرأة العربية فى الأردن وغيرها من البلاد العربية إن لم يتم اكتشاف أى أخطاء فى كتاب السيدة نورما؟ وهل يسقط عن المناضلات العربيات من أجل حقوق المرأة فى الأردن وفى غير الأردن، حق مواصلة نشاطهن إن اكتشف المعادون لهن «٧٠» غلطة فى كتاباتهن؟

الإجابة بالقطع هى: لا.. وهو ما يؤكد على أن الهجوم على المؤلفة يضر بقضية المرأة واحترام إنسانيتها، ويفتح المجال أمام أفكار تشجع على ارتكاب الجرائم ضد النساء وتبيح قتلهن بدعاوى الحفاظ على الشرف!

والثابت أن الانجرار وراء القضايا الثانوية يؤدى إلى إلحاق أضرار جسيمة بقضية المرأة العربية وحقوقها فى المساواة التامة مع الرجل أمام القانون، والمؤسف أن بعض السيدات وقعن فى هذا الفخ. والمؤسف أيضاً أن تركيز منظمات وشخصيات نسائية عربية على بعض أغلاط فى الكتاب، واعتراف المؤلفة الشجاعة بغلطتها على شاشات التليفزيون فى أستراليا، قاد ضمن أمور أخرى إلى تهليل القوى المعادية للمرأة، وكأن التفاصيل تغير من حقيقة تعرفها كل امرأة عربية، أياً كان دينها أو مذهبها وهى أنها مضطهدة وأن حقوقها منتقصة.

وثمة حقيقة مهمة تسطع وسط كل هذا الجدل، هى أن هذه الرواية وما صاحبها من «إثارة»، قد أشعلت النقاش حول ما يسمى بجرائم الشرف، وضرورة معاقبة المجرمين وقيام الحكومات العربية المعنية بممارسة دورها فى حماية المجتمع من القاصرين عقلياً وأخلاقياً، والتركيز على تغيير صورة المرأة لدى البعض بأنها «ناقصة عقل ودين» من أجل مواجهة حاسمة ضد أنصار جرائم الشرف وغسل العار.

وقد جاء إصرار دار قدمس على نشر الرواية خاصة بعد اعتراف المؤلفة بأغلاط ارتكبتها، ورغبتها فى تحويل عائد البيع إلى منظمات غير حكومية، ليؤكد على ضرورة لفت الانتباه لمواصلة النضال لمساواة المرأة الكاملة بالرجل قانونياً أياً كانت العقبات التى تحول دون ذلك، وانطلاقاً من أجل الهدف الكبير هو تحرير المجتمعات العربية وتساوى المواطنين كلهم أمام القانون.

العلاقات فى زمن الاستهلاك حياة بلا روابط

زيجمونت باومان
ترجمة: د. فاطمة نصر
القاهرة: إصدارات سطور، ٢٠٠٥، ١٦٢صفحة



يعنى هذا الكتاب بالشخصية المركزية فى أزمنتنا الراهنة أى: الرجل والمرأة.. بعلاقاتهما «السائلة».

فهذه الشخصية أصبحت بلا روابط، وتحديداً لا روابط ثابتة متينة تتيح لها الاستقرار، وتعريف الذات وتأكيدها.

ونظراً لعدم وجود روابط دائمة لهم، يصبح على سكان مجتمعنا الحديث الذى يعانى من السيولة، إقامة أى نوع من الصلات مع أشخاص آخرين، معتمدين على بديهتهم ومهارتهم، دون أن تكون هناك أى ضمانة حقيقية لاستمرار هذه الصلات، كما أنه يبدو أنه لابد أن تظل هذه الروابط غير محكمة. حتى يسهل حلها مرة أخرى سريعاً وبدون بذل أى جهد حينما تتغير الظروف، وهى بالقطع تتغير مرة تلو المرة فى مجتمعنا السائل الحديث.

وهن الروابط الإنسانية المخيف.. والشعور بعدم الأمان الذى يلهمه هذا الوهن.. والرغبات المتصارعة لإحكام الروابط وتركها غير محكمة فى آن.. هى السمات الرئيسية لهذا الكتاب الجديد المهم لعالم الاجتماع باومان الأستاذ لعلم الاجتماع بجامعتى ليدز ووارسو.

الحصـــــــاد دراسات نقدية وأعمال إبداعية

بديع بغدادى
دمشق: دار الرائى، ٢٠٠٤، ٤٥٤صفحة



بالرغم من أن الأديب والكاتب بديع بغدادى قد اعتكف الكتابة والنشاط الأدبى منذ حوالى عقد ونيف لأسباب عامة وشخصية، ورغم أن ما قدمه من أعمال وكتابات صحفية ونقدية وإبداعات ما بين قصة قصيرة ومسرح ودراما إذاعية، لا يشكل عدداً كبيراً.. فإن ما قدمه يمتلك قيمة كبيرة من حيث الكيف.

ينتمى المؤلف إلى ذلك الجيل الذى عاصر أهم المراحل فى تاريخنا الحديث المعاصر، بكل ما شهدته هذه المراحل من نهوض قومى وثورى وحداثى، وانكسار وانكفاء وانحسار، فقد شهد أديبنا الاستعمار الفرنسى فى طفولته وأوائل فتوته، كما شهد فى شبابه الاستقلال والنهوض الشعبى والوطنى فى الخمسينيات، ومقاومة العدوان الثلاثى وفرحة الوحدة وآلام انكسار ولوعة الهزيمة وبوارق الأمل بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣.

وعبر هذه الرحلة الطويلة قدم أديبنا مجموعة من المساهمات الأدبية التى تركت بصمتها فى مسيرة الحياة الأدبية فى سوريا، وخاصة فى مجال القصة القصيرة حيث يعتبر بديع بغدادى من الأسماء المؤسسة لهذا الفن الأدبى إلى جانب أسماء مهمة مثل القصاص الراحل سعيد حورانيه والروائى الراحل فارس زرزور والأديب الكبير زكريا تامر.

وهذا الكتاب يجمع نخبة من الأعمال الأدبية التى ساهم بها بغدادى فى الحياة الأدبية والإبداعية السورية، كما يعتبر مرجعاً للمهتمين والدارسين لحقبة مهمة من تاريخ سوريا الأدبى.

صورة العائلة

حمدى الجابرى
القاهرة: مكتبة دار الحكمة، ٢٠٠٥، ٢٨٦صفحة



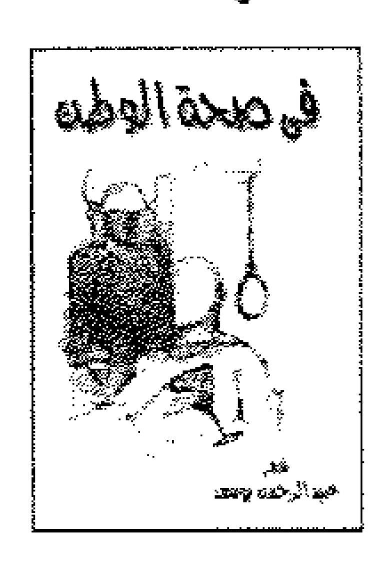
بين دفتى هذا الكتاب، تنطلق موهبة د. حمدى الجابرى الشعرية فى دفقات وجدانية متتالية فى قصائد قصيرة، تدور حول بعض كوامن النفس البشرية بمختلف تجلياتها، وبنظرتها إلى العالم الذى يحيط بها.

يكشف الديوان فى أولى قصائده سر هذه الدفقات الشعرية التى يحويها الديوان، وهى أن الشاعر سوف يدافع عن وجوده فى شراسة، وسيدافع عن غرفته ويقول كلاماً حزيناً، كالذى تقوله الفراشات إذ تلتقى بإله الحرائق فى غرفة معتمة، والذى تقوله النوارس حين تباغت البحر بقصيدة مارقة بلا قافية.

فى كل قصائد الديوان تبدو وكأنها تنضح بالحياة وبالحيوية، رغم ما بها من مرارة.. سوف يستفيد بها القارئ بكل تأكيد.

فى صحة الوطن

عبد الرحمن يوسف
القاهرة: ٢٠٠٤، ١١٢ صفحة



هذا الديوان هو الديوان السياسى الأول للشاعر، سبقته ثلاثة دواوين أخرى هى «على المكشوف» و«نزف الحروف» و«أمام المرآة». يشتمل هذا الديوان على ثمانى قصائد تتخلل سطورها رؤية الشاعر السياسية - فى قالب فنى - لأوضاع الأمة العربية على مستوى الشعوب والحكام، وتخلص هذه الرؤية إلى أن الخلل الذى نعانى منه يكمن فى القادة.

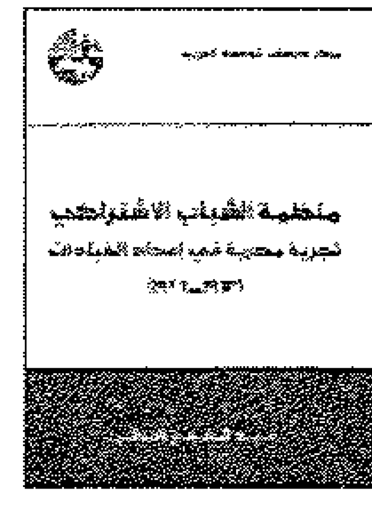
صاحب نشر القصائد مجموعة رسومات تعبيرية تفصح بالكثير مما قد لا يفصح به الكلام المكتوب. ففى القصيدة الأولى «قانون الدولة» يوجد رسم لحاكم يجلس على كرسيه ويحمله عدد من أفراد شعبه وهم مجبرون على ذلك، وهو معنى تؤازره قصيدة الشاعر التى ترفض الحكم البوليسى، وهو ما تؤكده أيضاً قصيدته الثانية التى ترفض كذلك بقاء الحكام فى السلطة لسنوات طويلة، وعدم تداول السلطة بالطرق السلمية.

قصائد الشاعر فى مجملها تبحث عن حرية الشعوب العربية من حكامها ومن القوى الأجنبية، وهو فى إحدى قصائده يرفض ديكتاتورية النظام العراقى السابق، إلا أنه فى نفس الوقت يرفض أن يكون خلاص الشعب العراقى على يد قوى غربية استعمارية.

أما فى قصيدة «فى صحة الوطن» التى يحمل الديوان اسمها، فقد كتبها الشاعر فى صياغة شعرية جديدة، فهى تتكون من ٢٠ كأساً، كل كأس عبارة عن مقطوعة شعرية موصولة بما قبلها وما بعدها، وهى كلها من وحى سقوط بغداد.

منظمة الشباب الاشتراكى: تجربة مصرية فى إعداد القيادات (١٩٦٣ - ١٩٧٦)

عبد الغفار شكر
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥، ٤٥٦ صفحة، ١٢ دولاراً

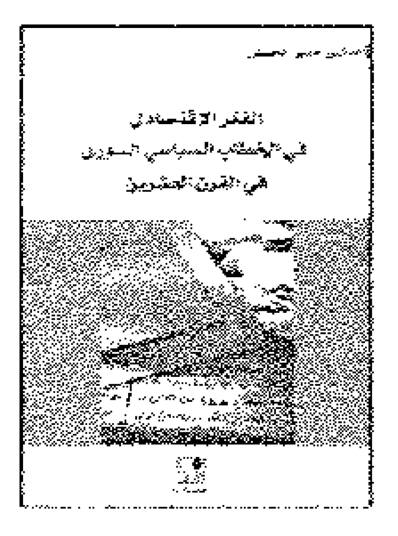


كان الدافع الأساسى وراء دراسة تجربة منظمة الشباب الاشتراكى فى إعداد القيادات هو أن هذه المنظمة زودت المجتمع المصرى بجيل جديد من القيادات خلال حقبتى الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين. وقد ساهم هذا الجيل فى بعث الحيوية فى المنظمات الجماهيرية، وتجديد الحياة السياسية، ووفر للبلاد نخبة قيادية جديدة ساهمت فى العمل الوطنى تحت قيادة جمال عبد الناصر، وتصدت لسياسات الردة على ثورة يوليو بعد رحيله، بقدر ما تصدت لسياسات الصلح المنفرد مع إسرائيل. وقد ناضلت من أجل ضمان الاستقلال الوطنى والتطور الديمقراطى للمجتمع المصرى، وكانت أساس حركة جماهيرية مستقلة وتعددية سياسية واعدة على أرض الواقع.

ومع التسليم بأن هذه التجربة لا يمكن تكرارها أو استعادتها لأنها كانت نتاجاً لعصرها ولظروف مصر فى الستينيات من القرن العشرين، إلا أنه يمكن الاستفادة منها وتمثل أهم دروسها، وفى مقدمتها أن المزاوجة بين التكوين الفكرى والتدريب القيادى والإدماج فى حركة المجتمع من خلال النشاط السياسى والجماهيرى هى شرط ضرورى للنجاح فى إعداد القيادات الشابة، وأنه من أهم عوامل النجاح للقيادات الجديدة: توفر الوعى القائم على المعرفة العلمية، وروح المبادرة الناجمة عن القدرة الحركية، والشعبية التى تصنعها علاقة سليمة بالجماهير.

الفكر الاقتصادى فى الخطاب السياسى السورى فى القرن العشرين

د. منير الحمش
بيروت: بيسان للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤، ٥٦٧ صفحة



ارتبطت المسألة الاقتصادية على مر التاريخ بمجموعة من العناصر الثابتة والمتحولة، وهى على أى حال ترتبط بقضايا الإنتاج وإعادة الإنتاج، ووسائل الإنتاج وعلاقته وقواه، كما ترتبط بالاستهلاك وبالعمل وبالأسعار ورأس المال وكذلك بالملكية والاحتكار والثروة والسلطة. والفكر الاقتصادى فى سوريا هو جزء من الفكر السياسى الوطنى والقومى، ومع انشغال الحركات السياسية المختلفة فى سوريا بقضية التحرر والاستعمار وقضية فلسطين منذ بداية القرن العشرين، فإن الاقتصاد لم يكن بعيداً عن توجهات تلك الحركات، التى

كانت بدورها مفتوحة على مختلف التيارات في الفكر الاقتصادي والقومي والعالمي.

يؤكد الكتاب أن الفكر الاقتصادي السوري اصطدم في مطلع القرن العشرين بوجود الاستعمار العثماني، ثم الفرنسي، وهو ما جعل مسألة التحرر السياسي تحتل الحيز الأكبر من تفكير السياسيين والمثقفين، وإن لم تغب عن هذا التفكير المسألة الاقتصادية والاجتماعية. وقد رأى بعض منهم أن النهضة يمكن أن تتحقق وفق النموذج الغربي «الليبرالي أو الاشتراكي» في حين رأى آخرون أن الإسلام هو دين ودنيا وفي تطبيق الشريعة الإسلامية يكمن الحل المثالي لجميع المشاكل الدنيوية بما فيها القضايا الاقتصادية، بينما رأى فريق ثالث تأجيل المسألة برمتها حتى يتم التحرير وجلاء الاستعمار.

ويشير المؤلف أنه بدلاً من أن يتخذ المفكرون والمثقفون السوريون موقفاً نقدياً من الأفكار الوافدة والتراثية، فقد اتخذ معظمهم الموقف الأسهل، وهو نقل الفكر كما هو، مما أوصلنا إلى حالة من «وثنية الفكر» والاستكانة إلى ما هو متاح. جرى هذا لدى المفكرين الليبراليين الاقتصاديين في تبنيهم لحرية السوق، كما هو الحال لدى الماركسيين الذين تبنوا التخطيط المركزي كما يطبق في الاتحاد السوفيتي السابق، أو في الصين عندما حصل الخلاف السوفيتي - الصيني.

أما الإسلاميون فقد نأوا بأنفسهم عن أي تطوير أو تحديث أو اجتهاد فيما عدا القلة ومنهم د. مصطفى السباعي حيث أسبغ على الاقتصاد الإسلامي صفة الاشتراكية، كما حاول ميشيل عفلق أن يضفي على الاشتراكية طابعاً قومياً وربطها بالتحرر والاستقلال وأسبغ عليها طابع العدالة الاجتماعية.

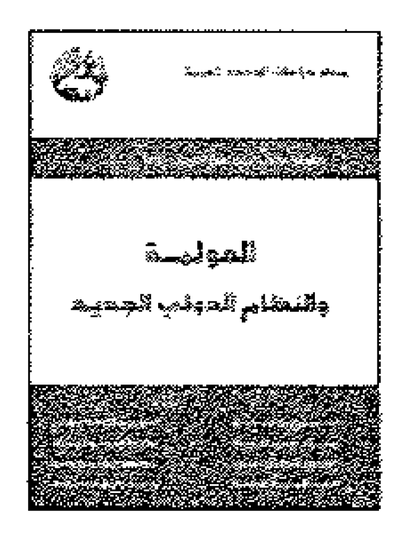
ومع تولي حزب البعث الحكم في سوريا ابتداء من ١٩٦٣/٣/٨ حاول الخروج من إطار العموميات في مقولاته الاشتراكية، فاختار النهج الماركسي من خلال شعار «الطريق العربي للاشتراكية»، إلا أن ضعف الوعي بالنظرية الاقتصادية كان سبباً - إلى جانب أسباب أخرى - في عدم تحقق نجاح في عملية التحول الاشتراكي في الستينيات.

وينقسم الكتاب إلى قسمين، يتناول الأول التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في سوريا خلال القرن العشرين، والقسم الثاني تناول تيارات الفكر الاقتصادي في السياسة السورية مع استبعاد النتاج الفكري والاقتصادي للباحثين والأكاديميين المستقلين إلا ما ندر، فالكتاب يحدد موضوعه في تتبع الفكر الاقتصادي في مواقف وسياسات الحركات والمنظمات والأحزاب السياسية السورية.

العولمة والنظام الدولي الجديد

مجموعة من المؤلفين

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥، ١٨٥ صفحة، ٦ دولارات



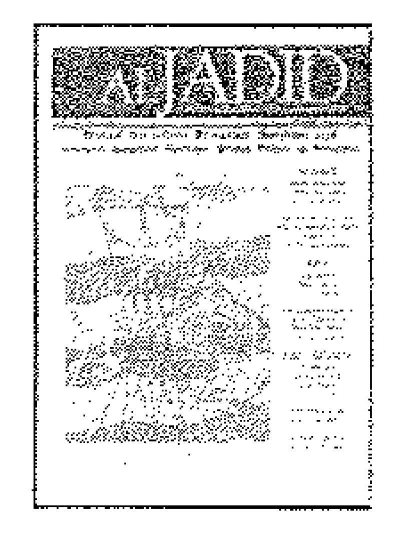
ثلاثة أطوار من التوسعية الرأسمالية تطبع تاريخ النظام الاقتصادي وترسم منعطفاته الكبرى خلال القرون الثلاثة الماضية، وتحتها - وفي تلازم معاً - ثلاثة عناوين وثلاث ظواهر: الاستعمار، والإمبريالية، والعولمة.

في النظام الدولي الجديد حيث الرأسمالية تعولمت، والتوازنات الدولية التقليدية انهارت، والأوحدية القطبية ترسخت، تتنامى ظواهر وقواعد جديدة في العلاقة بين المجتمعات والدول: لم تعد السيادة مقدسة ومشمولة بالحماية القانونية الدولية، ولم تعد الدولة الوطنية قادرة على حفظ بقائها سيدة متماسكة في وجه نتائج العولمة على داخلها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، كما أن مسائل الهوية عادت تطرح نفسها بقوة أمام الهزات الشديدة الناجمة عن فعل العولمة والنظام الدولي الجديد. وفي امتداد ذلك كله تتنامى حركة ممانعة تبدأ بخطاب رفض العولمة لتصل إلى حركة مناهضة اجتماعية وسياسية عالمية.

تستكمل مادة هذا الكتاب مواد كتب أخرى أصدرها مركز دراسات الوحدة العربية حول العولمة مقدمة للقارئ رؤية نقدية عربية لظاهرة باتت مفاعيلها مؤثرة في نسيج مجتمعاتنا الداخلي.

دوريات

الجديد Al Jadid

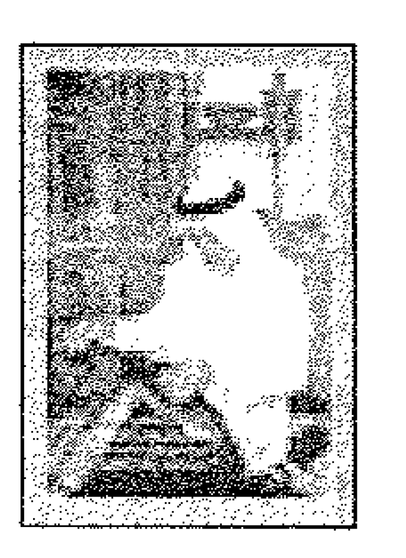


الجديد: مجلة أمريكية ربع سنوية تصدر في كاليفورنيا، اهتماماتها في الأدب، والثقافة، والفن والسياسة. كتابها عرب أو من له اهتمامات بالعالم العربي. في آخر عدد مقالات عن محطة الجزيرة، انطباعات عن هوية العرب الأمريكان، مقالة عن الراحل حنا بطاطا وكتابه عن الفلاح السوري، حديث مع أمين معلوف، مقالة عن صنع الله إبراهيم وأحمد بو زفير. مقالة عن أشعار ١٥ امرأة عربية في مهرجان الشعر العربي الفرنسي. مقالة عن زها حديد العراقية الأصل والتي حصلت على أحسن جائزة لهندسى التصميم في فرنسا.

Aljadid on line:
www.aljadid.com

العربي

الكويت: عدد مارس ٢٠٠٥



بعد أن فشلت نظرية التحديث التي تحاكي الغرب كسبيل للتقدم، وكذلك التبعية التي تعلق ذنب التخلف في أعناقه، صعدت في الوقت الحالي نظرية جديدة تشير إلى أهمية رأس المال الثقافي كبديل ممكن.

وحول تلك النظرية يدور حديث الشهر في العدد الصادر من مجلة «العربي» لشهر مارس ٢٠٠٥، إذ يكتب رئيس التحرير الدكتور سليمان إبراهيم العسكري مؤكدا على أهمية الثقافة، بكل معانيها كقاعدة انطلاق اقتصادي واجتماعي.

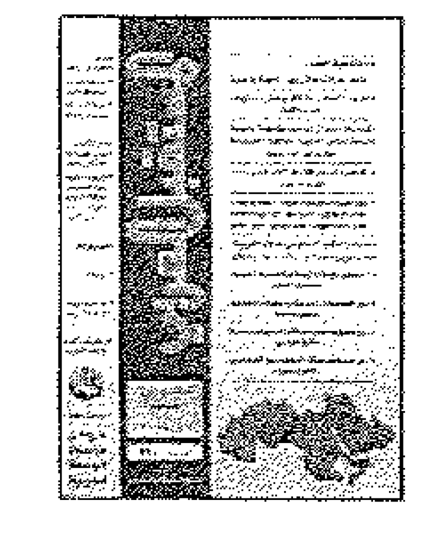
وفيما يكتب د. عبد الله الجسمي عن الدور الشعبي ونهوض الثقافة العربية، فإن أحمد السيد النجار يتناول موضوع السوق العربية الشائك، متسائلا عن امكانية تحول ذلك الحلم إلى حقيقة.

أما أمين هويدي فيكتب عن الخرائط التي تكتب وتتكلم، ويخصص الدكتور أحمد أبوزيد مقاله في المستقبليات ليستعرض بوادر تراجع الحركة النسوية.

وفي باب وجها لوجه يلتقي أشرف أبو اليزيد مع الفنان حلمي التوني في حوار عن الفن الشعبي وتجربته الخاصة والمهمة. هذا بالاضافة إلى الأبواب الثابتة والمسابقات، وعروض الكتب.

المستقبل العربي

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، العدد ٣١٠

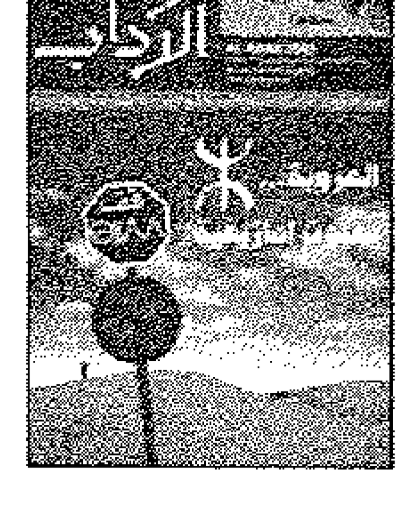


في العدد افتتاحية بعنوان: «ياسر عرفات.. عاش بين الحياة والموت»، وفيه أيضاً «انتخابات العراق تواجه مقاطعة واسعة، وفترة بوش الثانية تواجه المقاومة» وهو نص لحوار أجري مع خير الدين حسيب.

ويتضمن العدد دراستين لافتتين هما: «أوروبا تحتفل بالتوقيع على دستورها بينما الوطن العربي مهدد بالخروج من التاريخ» لحسن نافعة، و«ظاهرة أسعار النفط العالمية في عام ٢٠٠٤» لوليد خدوري.

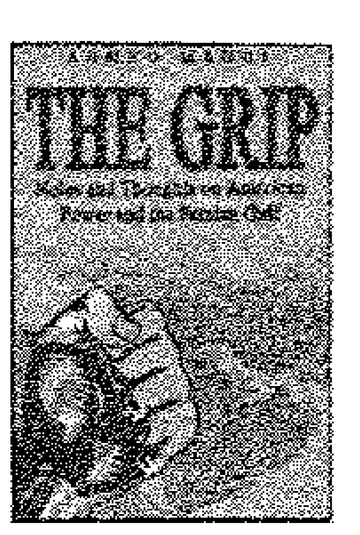
الآداب

بيروت: العدد ٥٣، ٧ جنيهات



يدور ملف هذا العدد عن «الأمازيجية» من خلال أربعة موضوعات وهي «العروبة بعيون أمازيجية»، والحركة الثقافية الأمازيجية، و«استراتيجية النضال الديمقراطي للحركة الثقافية الأمازيجية بالمغرب»، وندوة بعنوان: «الأمازيجية: هوية ثقافية أم رهان سياسي؟». وبالعدد أيضاً دراسة عن الحركة الشيوعية العربية، وأخرى عن الدكتورة نوال السعداوي.

The Grip.. Notes and Thoughts on American Power and the Persian Gulf
(القبضـــــة)
Ahmed Mahdi
Amman: Amon Media Investment, 254PP., 2005



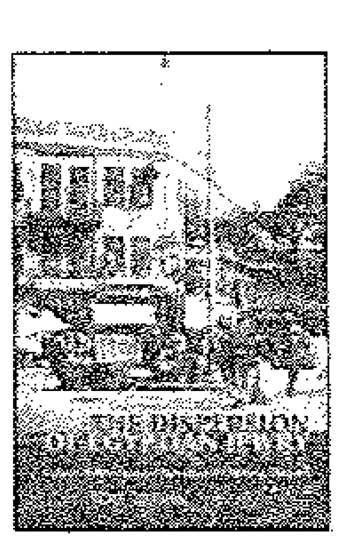
يناقش الكتاب كيف أحكمت الولايات المتحدة قبضتها على منطقة الشرق الأوسط والخليج، وكيف أن هذه القبضة قد بدأت فى الانحسار بفعل سياسات الرئيس الأمريكى جورج بوش بالرغم من - أو بسبب - غزوه لكل من أفغانستان والعراق.

يتحدث الكتاب أيضاً عن مدى قدرة العرب على السيطرة على منطقتهم.

ويتضمن الكتاب نحو سبعة عشر فصلاً، يتناول الجزء الأول منها أزمة السويس، وحرب اليمن و١٩٦٧ و١٩٧٣، والثورة الإسلامية فى إيران، وظروف مقتل ٢٥٠ جندياً أمريكياً فى لبنان عام ١٩٨٣، والغزو العراقى للكويت، والإعلان الأمريكى للنظام العالمى الجديد، ونبذة عن التدخل الأمريكى فى الصومال والبوسنة وكوسوفو، ونبذة عن العلاقات الأمريكية السعودية، والعلاقات الأمريكية التركية، وآثار العقوبات الاقتصادية على العراق، وعملية ثعلب الصحراء عام ١٩٩٨، والغزو الأمريكى للعراق، ودور المحافظين الجدد فى إدارة الرئيس الأمريكى جورج بوش الابن. أما الجزء الثانى من الكتاب فإنه يتحدث عن مظاهر القوة الأمريكية من خلال إلقاء الضوء على القوة العسكرية والاقتصادية والإعلامية والدبلوماسية والتكنولوجية للولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبى، وموقف الولايات المتحدة من الوحدة العربية والوحدة الأوروبية، وكيفية صناعة القرار فى السياسة الخارجية الأمريكية.. إلخ.

ويشير المؤلف إلى أن تجاهل بوش للأصول والأعراف خلق اعوجاجاً كبيراً فى السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط وجعل المصالح الأمريكية فى خطر بفعل اهتمامه بأهداف المحافظين الجدد داخل إدارته وتجاهله للأدوات التى يواجه الإرهاب من خلالها، لقد جعل بوش الابن الولايات المتحدة - حسب المؤلف - فى وضع أصعب فى مواجهة الإرهاب، كما جعل بعض الشباب المسلم المتطرف أكثر ميلاً للتطرف، فضلاً عن أنه أثار حفيظة القدامى الذين لم يتفقوا مع سياساته.

The Dispersion of Egyptian Jewry.. Culture, Politics and the Formation of a Modern Diaspora
(تشتت الشعب اليهودى المصرى.. ثقافة وسياسة وتكون الشتات الحديث)
Jeol Beinin
AUC Press



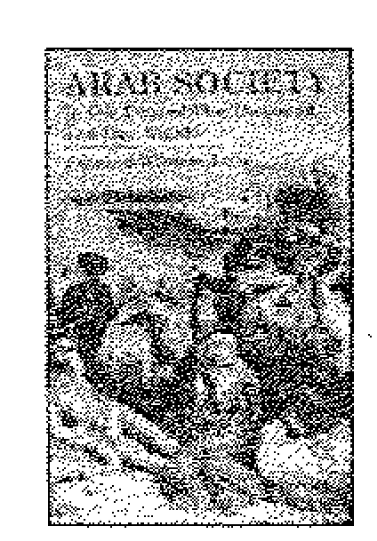
تكون سكان اليهود فى مصر من العبرانيين الناطقين بالعربية واليهود الذين عاشوا فى البلاد منذ بداية العصر الإسلامى. لقد لجأ اليهود المطرودون من أسبانيا عام ١٤٩٢ إلى مصر، وتضاعف عددهم فى منتصف القرن التاسع عشر بواسطة المهاجرين من اليهود السفارديم. كان هؤلاء اليهود محل ترحيب فى أى من أجزاء الإمبراطورية العثمانية ولكن هؤلاء اليهود الأسبان جاءوا إلى مصر سعيا وراء الفرص الاقتصادية إبان عصر إنشاء قناة السويس وازدهار تجارة القطن. ومع نهاية القرن التاسع عشر كانت هجرة اليهود الاشكنازى هربا من الاضطهاد فى أوروبا الشرقية.. شكلت هذه المجموعات المختلفة نسيجا مجتمعيا متجانسا من الكوزموبوليتانية المختلطة، والتى كانت عنصر قوة، وعاملاً تسبب فى نهاية هذا المجتمع فيما بعد.

يختبر هذا الكتاب تاريخ المجتمع اليهودى المصرى بعد عام ١٩٤٨، مركزا على ثلاثة مجالات رئيسية: حياة غالبية أفراد المجتمع اليهودى، الذين ظلوا فى مصر منذ حرب ١٩٤٨ حتى ما بعد حرب السويس ١٩٥٦، تشتت وإعادة تأسيس المجتمعات اليهودية المصرية فى الولايات المتحدة وفرنسا وإسرائيل وناقش ذكريات الحياة اليهودية فى مصر منذ زيارة الرئيس السادات للقدس عام ١٩٧٧.

يرى المؤلف أن خبرات اليهود المصريين لا يمكن روايتها بشكل كاف سواء من حكايات المصريين أو من اليهود. لذا يستخدم «بينين» تقنيات التحليل الأدبى والسيرة الذاتية ليخوض فى مسألة الهوية، والشتات بشكل يثير انتباه المهتمين بمصر والشتات اليهودى، أو تكون الثقافات والهويات.

يعمل جويل بينين كأستاذ لتاريخ الشرق الأوسط فى جامعة ستانفورد. آخر كتبه هو «العمال والفلاحون فى الشرق الأوسط الحديث»، الصادر عام ٢٠٠١.

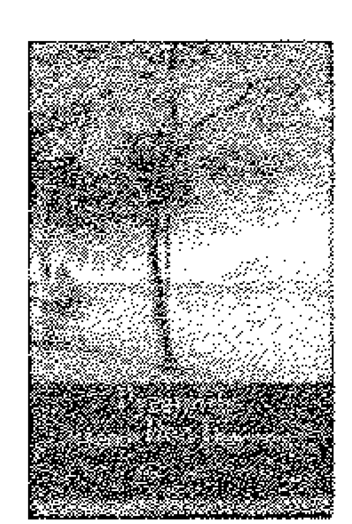
Arab Society In Time of The Thousand and One Nights
(المجتمع العربى فى زمن ألف ليلة وليلة)
Edward William Lane
Unabridged Dver, 2004, 304pp.
$ 16.59



بعد زيارته لمصر فى منتصف القرن التاسع عشر، قام العالم البريطانى إدوارد ويليام لين بترجمة الليالى العربية، ملحقا بنهاية كل فصل ملاحظات تفسيرية مفصلة جعلت من الكتاب موسوعة لحياة وسلوك منطقة الشرق الأوسط. إن الكتاب الحالى، يحتوى فقط على ملاحظات لين كما ظهرت فى الطبعة الأصلية لعام ١٨٥٩، حيث تمدنا بصورة آسرة للمجتمع الإسلامى خلال العصور الوسطى، حينما كتبت حكايات ألف ليلة وليلة للمرة الأولى.

إن الحكايات الأصلية تتضمن دروسا للمسلمين كما احتفت بظهور الطبقات التجارية، ووصفت نشوء بغداد كمركز للإمبراطورية الإسلامية. كما تضع فصولا بعينها اعتبارا للدين، والأدب والمهرجانات والتعليم وكذلك العبودية، ودور النساء فى المجتمع، والطقوس المرعية بشأن المتوفين. ويعد هذا الكتاب من الكتب الهامة فى مكتبات الباحثين والمهتمين بشكل عام بثقافة الشرق الأوسط.

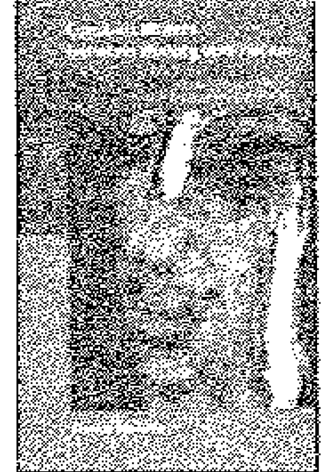
Pyramids.. An Egyptian Road Homecoming
(الأهرامات.. الطريق المصرى للعودة إلى الوطن)
Medhat Gazale
AUC Press



هذه السيرة الذاتية عميقة التفكير والمؤثرة تبدأ فى قاهرة عقد الثلاثينيات من القرن العشرين، بدءاً بأيام المؤلف الدراسية فى مدرسة الليسيه الفرنسية، وتستمر لترسم صورة غاية فى الثراء للوضع الاجتماعى والإثنى فى مقابل خلفية من الأحداث المهمة: تولى الملك فاروق العرش والحرب العالمية الثانية، وثورة ١٩٥٢، وأزمة السويس عام ١٩٥٦. فى توضيح تلك الأوقات ذات الدلالة التاريخية، هناك حس قوى أيضا بالمكان، مثل الثكنات البريطانية، التى أقيمت فى يوم من الأيام مكان فندق النيل هيلتون، وأماكن أخرى تغيرت بشكل كلى، مثل ميدان سليمان باشا، والذى احتل مكانه الآن ميدان طلعت حرب. لقد تغير مسار حياة المؤلف لكى يعمل فى مجال الأعمال فى أمريكا، واليابان وأوروبا، تلك الأعمال التى أخذته بعيدا فى دوائر تنفيذية-حيث تعد الدروس التى تعلمها من التصورات عبر الثقافية مفيدة ومسلية معا. أخيرا بعد ثلاثة عقود من الغياب، يعود المؤلف ليجد القاهرة قد تغيرت بشكل مذهل.

فى هذا الكتاب يتذكر مدحت غزالى الناس والأحداث، والأماكن بوضوح غير شائع وبروح مرح رقيقة. إن مذكراته ستأسر كل من خطر بباله هذه التساؤلات: ماذا كان حال القاهرة فى ذلك الوقت؟ وكيف تغيرت؟

Egyptian Writers Between History and Fiction
(كتاب مصريون بين التاريخ والكتابة الإبداعية.. مقالات حول أعمال نجيب محفوظ، صنع الله إبراهيم وجمال الغيطانى)
Samia Mihrez
AUC Press



تعتمد سامية محرز فى دراستها على فكرة أساسية تقول بأن الحدود بين التاريخ والأدب من الصعب تعريفها، وأن هذين الفرعين من المعرفة يمثلان أنواعا متشابهة من الخطاب السردى.

فى هذا الكتاب تختبر سامية محرز أعمال ثلاثة من كبار الكتاب المعاصرين المصريين: نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل، وصنع الله إبراهيم وجمال الغيطانى. وفى الكتاب تنقب محرز عن العلاقة بين التاريخ والأدب السردى مبينة أن كليهما يحاول أن يحول «الحقيقة» و«الحياة» إلى بنى تاريخية من المعانى.

ومن خلال تحليل أعمال هؤلاء الكتاب، فيما يتعلق بالعلاقة بين السلطة وإنتاج الأدب القصصى، تكشف محرز خطابا لا يعلق فقط على تاريخ المكان وإنما أيضا يخلق قصصاً عن التاريخ.

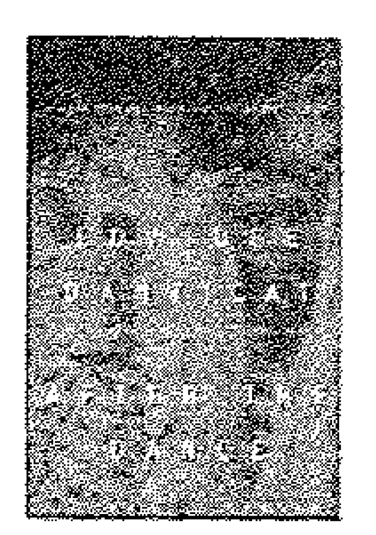
تعمل سامية محرز كأستاذ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.

After the Dance.. A Walk Jacmei, through Carnival Haiti

(بعد الرقص.. مشوار خلال الكرنفال فى جاكماى، هايتى)

Edwidge Danticat

Vintage, 160pp, 2004, £ 6.99



هذه رحلة أخاذة وأسرة فيما وراء سطح الكرنفال. حينما كانت طفلة كان ينتاب إيدوج الخوف من الذهاب للكرنفال حيث قد يصاب الناس بالصمم أو يفقدون أصواتهم أو ربما ضربهم أحد المشتهين للدماء بسكين. الآن، وبعد أن تخلصت إيدوج من مخاوفها الطفولية، تخوض فى رحلة لاكتشاف التاريخ البطولى والمأساوى للجزيرة، من المستعمرين الفرنسيين إلى الثوريين من أهل هاييتى إلى الغزاة الأمريكيين والديكتاتوريين الذين نشأوا فى الوطن. تقدم لنا دانتيكات أيضا روايات عن الكثيرين من المؤدين، والفنانين الذين أعادوا خلق الأساطير التى أعادت الحياة للاحتفالات الكرنفالية. حينما يأتى الكرنفال، فإننا نشاهد حيث تنتقل من دور المراقب إلى دور المشترك الفعلى فى المهرجان وفى النهاية تفقد نفسها فى الزحام الغامر من البشر.

ينتمى هذا الكتاب لفن السرد الحكائى الشعرى لكاتبة تعيد اكتشاف وطنها وجزء من ذاتها. إنه أيضا تقدمة للساحل الجنوبى من هايتى وللجمال الحقيقى للكرنفال.

Nasser: His Life and Time

(ناصر: حياته وزمنه)

Anne Alexander

AUC Press



بعد أكثر من ثلاثين عاما على وفاته، يظل جمال عبد الناصر أحد الشخصيات المهمة فى العالم العربى. كان عبد الناصر أحد الضباط الشبان الذين أطاحوا بالحكم الملكى للملك فاروق عام ١٩٥٢. كان فى ذلك الوقت فى السادسة والثلاثين من عمره حينما أصبح الزعيم المصرى الذى حصل على إجماع غير مسبوق من الجماهير العربية. فى عام ١٩٥٦ قام بتأميم قناة السويس غير مكترث من غضب بريطانيا وفرنسا. إن الكثيرين فى العالم العربى لا زالوا مقدرين لتحديه القوى الاستعمارية وحماسه للنهوض بمستوى معيشة المواطنين من خلال تحديث الاقتصاد المصرى، ولكن هناك آخرين لا زالوا أكثر انتقادا لحكمه الأوتوقراطى. إن هذه الدراسة البيوجرافية تعيد اكتشاف حياة عبد الناصر فى سياق زمنه المضطرب.

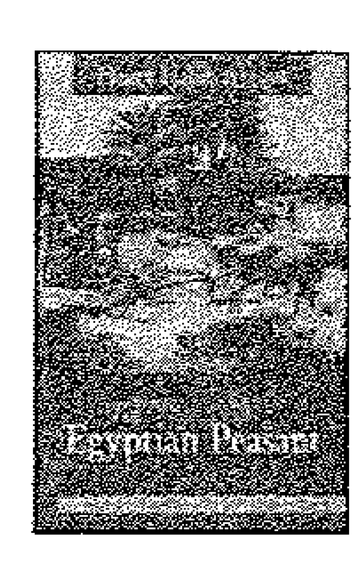
تعمل آن ألكسندر كصحفية وباحثة فى العالم الإسلامى. تكتب ألكسندر للميدل إيست إنترناشونال وعملت فى إذاعة البى بى سى على مدى السنوات الثلاث الماضية.

The Egyptian Peasant

(الفلاح المصرى)

Henry Habib Ayrout

AUC Press



لقد تغيرت مصر بشكل كبير فى النصف الأخير من القرن العشرين، واتخذ هذا التغيير شكلا أكثر وضوحا فى قرى وادى النيل. لقد جلبت الكهرباء والراديو والتليفزيون العالم الأوسع إلى بيوت الفلاحين. وأدت المدارس الحكومية إلى توسيع الآفاق التعليمية للأطفال كما أصبح متاحا أمام الفلاحين الفرص للعمل فى مناطق أخرى من العالم العربى. لقد أدت المدنية إلى جعل الكثير من الأسر تعيش فى حزام المساكن الموجودة حول المدن الكبرى. ولكن العالم المحافظ والتقليدى للعمل الدائم الذى يسم حياة الفلاحين المصريين، لا يزال على قيد الحياة، وليس هناك وصف أفضل له من الحكى الكلاسيكى لهنرى حبيب، وهو عالم اجتماع مصرى توفى عام ١٩٦٩ وكرس معظم حياته فى خلق شبكة من المدارس المجانية للأطفال الريفيين فى وقت كانت فيه قليلة العدد.

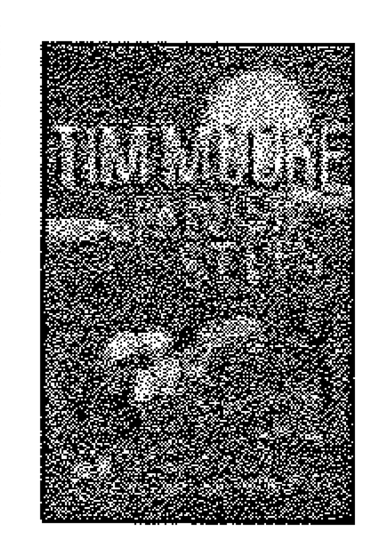
نشر الكتاب للمرة الأولى باللغة الفرنسية عام ١٩٣٨، ثم تم تنقيحه عدداً من المرات قبل أن يصدر باللغة الإنجليزية عام ١٩٦٣. ولازال الكتاب بوصفه الشعرى والعاطفى لحياة الفلاحين يمكن تصديقه ولازال له التأثير ذاته.

Spansh Steps.. one man and his Ass: on the Pilgrim Way to Sintiago

(خطوات أسبانية.. السير فى طريق الحج إلى سانتياجو برفقة حمار)

Tim Moore

Jonathan Cape, £ 16.99, 2004, 320 pp



يحكى هذا الكتاب رحلة حج تيم مور برفقة حمار على الطريق القديم الذى يبلغ طوله ٥٠٠ ميل من ميناء سانت جان بيد على الجانب الفرنسى لبيرينيس إلى كاتدرائية سانتياجو دو كومبوستيلا فى أسبانيا، التى تحوى ضريح قديس أسبانيا العظيم. كان برفقته فى هذه الرحلة حمار يدعى شينتو.

فى هذا الكتاب يتأمل مور فى تاريخ الحج ذاته، إلا أن الطريف أن مور نفسه لا يزعج نفسه كثيرا بأى معتقد دينى، ولا يتكلم كلمة أسبانية واحدة، ولا يعرف شيئا عن الحمير. ولكنه قرر السفر متسلحا بكتاب عنوانه كوديكس كاليكستينوس، وهو كتاب إرشادى يعود للقرن الثانى عشر عن الطريق وبنصيحة أحد خبراء فن إدارة الحمير وهو روبرت لويس ستيفنسون.

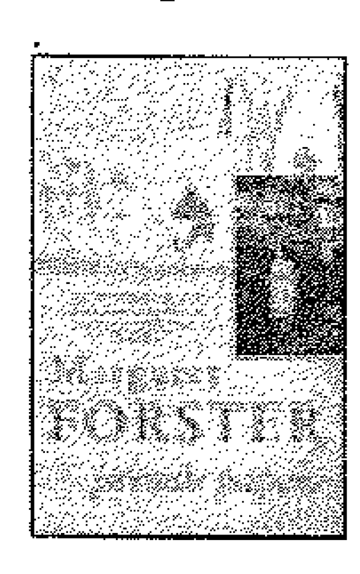
يكتب مور هذا الكتاب بحس عال من الموهبة والطرافة، ويعد الكتاب انعكاسا للتوازن المثالى بين فن كتابة الرحلة، والحكمة والحكايات النادرة.

Private Papers

(أوراق خاصة)

Margret Forster

Vintage, £ 6.99, 2004, 256pp.



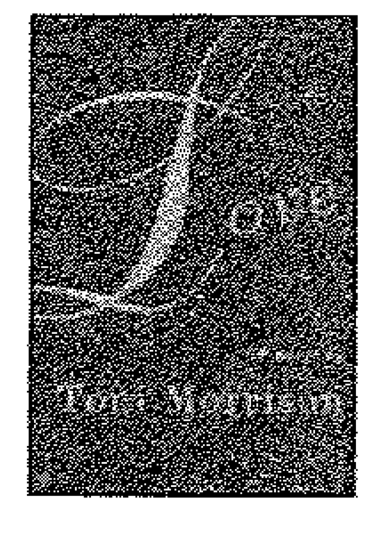
تتسم رواية مارجريت فوستر، «أوراق خاصة»، بالروعة والرعب معاً، حيث تتناول صراع الأجيال. بالنسبة لبانلوب بتلر كانت الأسرة تمثل كل شىء، الطموح الوحيد لحياتها كناضجة، إلا أن ثلاثًا من بناتها الأربع لهن أفكار مختلفة، والوحيدة التى تبعت أفكار أمها المثالية هى إملى وبرغم من ذلك لم تنجُ من أفكار أمها الكارثية. تبدأ بينلوب بتلر الأم بتسجيل حكايات الأسرة كما تحدث ولكن تكتشف روز مارى تلك الأوراق الخاصة مما أصابها بالغضب الشديد بسبب تشويه أمها للحقائق وتبدأ هى فى سرد القصة من وجهة نظرها الخاصة، وتتناول الأيام التى تلت الحرب المضطربة حيث ترسم صورة ليس لأسرة واحدة بكل تعقيداتها ولكن أيضا للعالم المتغير الذى شكل حياتها.

Love

(الحـــب)

Tony Morrison

Vintage, £ 6.99, 2004, 208 pp.



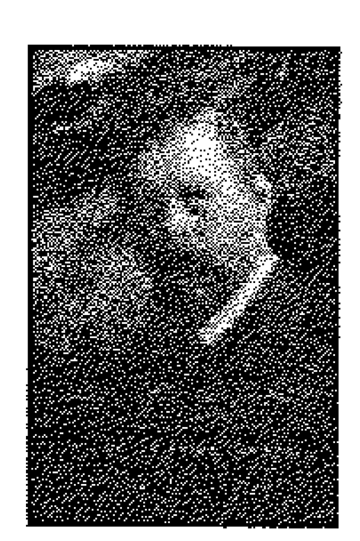
ماى وكريستين وهيد وجينتوبور وفيدا، كلهن نساء يسيطر عليهن «بل كوزى» ويسيطر عليهن وحده، وهو يشبع احتياجهن لصورة الأب والزوج والحبيب والحارس والصديق، والرغبات التى سيطرت على أولئك النساء لفترة طويلة بعد وفاته. فتشكل هذه الرؤية داخل الرواية ثراء شديدا بالشخصيات والأحداث الدرامية والفهم العميق للماضى الذى يظل حياً من خلال رغبات النساء، إن هذه الرواية تعكس الأوجه المختلفة للحب منتقلة من الرغبة إلى الشهوة، لتشكل الرواية دائرة مكتملة عن الحب الأول الغامر الذى يترك أثره علينا جميعا وللأبد.

From the Shadow of Dracula A Life of Bram Stoker

(من ظلال دراكولا.. حياة برام ستوكر)

Paul Murray

Jonathan Cape, £ 18.99, 2004, 320 pp.



كتب موراى وبشكل رائع هذا الكتاب الهام الذى يتخلل إلى ما وراء سطح حياة الكاتب الأيرلندى ستوكر والفن ويختبر العلاقة بين الاثنين.

إن من مدعاة السخرية فى التاريخ الأدبى أن كاتب إحدى أكثر الروايات مبيعا

فى العالم لا نعلم عنه إلا القليل.إن هذا الكتاب يسعى لإعادة التوازن و توضيح صورة جديدة عن برام ستوكر، صانعا نوعا من العلاقة بين الكاتب وإبداعه الشهير.

قام موراى بالبحث فى أوراق ستوكر وملاحظاته أثناء كتابته لدراكولا، والرسائل المتبادلة، تلك التى أضفت ضوءا جديدا على حياة ستوكر.

يكشف الكتاب عن حياة ستوكر النشطة ثقافيا داخل وخارج أيرلندا، حيث كان ستوكر منغمسا فى المشهد الأدبى فى دبلن وكان مرتبطا بحركة الكثير من الشخصيات الأدبية والمسرحية عظيمة الشهرة مثل سارة بيرنهاردت وأوسكار وايلد، ومارك توين. كانت أهم علاقاته، على الرغم من ذلك، تلك التى أقامها مع هنرى إرفنج حيث أدارا معا مسرح ليثيوم فى لندن.

Burning Hunger.. One A Family's Struggle against Apartheid

(جوع قاتل.. كفاح إحدى الأسر ضد التمييز العنصرى)

Lynda Schuster

Jonathan Cape, £18.99, 2004, 430 pp.



فى السادس عشر من يونيو عام ١٩٧٦ قام طلاب سويتو بمظاهرة ضد القانون الجديد الذى يقضى بأن كل التعليم فى المدارس الأفريقية يجب أن يكون باللغة الأفريقية.كان يتقدمهم شاب ذو شخصية كارزمية يدعى تسيتسى ماشينى، كان أحد الأبناء الثلاثة عشر لجوزيف ونومخيسا ماشينى، المعروفين بتقوى الله وعدم الانخراط فى السياسة.إلا أن ما قام به فى هذا اليوم أدى إلى سلسلة من الأحداث حددت فيما بعد وضع أسرته للأبد وغيرت من نمط حياتهم تماما.

هذا الكتاب يروى حكاية هذه الأسرة المميزة، ساردا قصة السود فى جنوب أفريقيا بشكل مصغر، موردا كل أوجه الصراع من أجل التحرر. قام أكبر أبناء ماشينى، روكس، بتوجيه المقاتلين الذين كانوا يعبرون إلى جنوب أفريقيا من الدول المجاورة. مفو، الأخ الرابع، كان مجندا، ألقى القبض عليه فى النهاية بعد عملياته العسكرية وعذب وحوكم بتهمة الخيانة العظمى.أما تسيتسى فقد انتهى الحال به فى المنفى، وتوفى عام ١٩٩٠، فى العام الذى بدأ الجميع فى العودة إلى بلادهم.

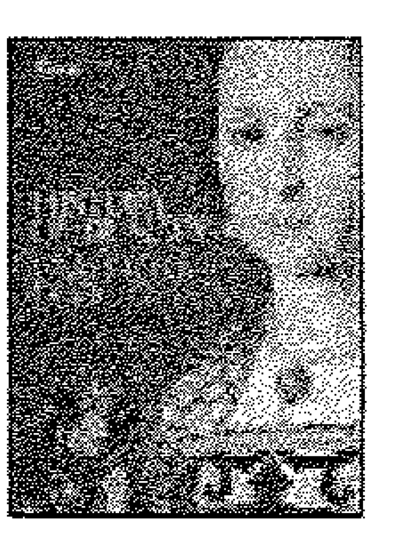
يستمر الكاتب فى سرد قصص كفاح أبناء هذه الأسرة الفريدة، مشيرا إلى أنه إذا كانت أسرة مانديلا بمثابة جنرالات معركة الكفاح لتحرير السود، فإن أسرة ماشينى كانوا بمثابة جنود هذه المعركة.

On Beauty.. A history of a Western Idea

(عن الجمال.. تاريخ فكرة غربية)

Umberto Eco

Secker &Warburg, £ 25.00, 2004, 400pp



«عن الجمال» ليس كتابا يتناول تاريخ الفن ولا تاريخ علم الجمال ولكن الروائى الشهير إمبرتو إيكو يقترب من تاريخى هذين الفرعين المعرفيين لتحديد أفكار عن الجمال، تلك التى نقلت بعض الأحاسيس من العالم الكلاسيكى إلى وقتنا المعاصر.

من حيث الشكل والأسلوب، يتاح هذا الكتاب لمدى واسع من القراء. مستعينا بالتصوير، والنحت والعمارة والفيلم، والتصوير الفوتوغرافى وفن الديكور، والرواية والشعر، يقدم إيكو بانوراما ثرية وذكية لهذا الموضوع الضخم.

فى هذا الكتاب ذى الأسلوب الأخاذ، لا نقرأ فقط عن بوتشيللى ومايكل أنجلو، ولكن أيضا عن موضة الستينيات من القرن العشرين وكيف أنها تدين بالكثير للزى السائد فى مصر القديمة، وكيف أن طريقة تسريح الشعر فى روما القديمة وموضات تصفيف الشعر فى القرن الثامن عشر بينهما الكثير من الملامح المشتركة.

Ghosts

(الأشـــباح)

John Fuller

Chatto &Windus £ 8.99, 2004, 64pp



مثل الأشباح التى تقطن الممرات المظلمة، تكشف المجموعة الشعرية لجون فولر عن تلك المساحة الرمادية بين الحياة والموت. بحس عال من الشفافية والتبصر، تتأمل القصائد فى فكرة أنه حينما يصل المرء لسن معينة تبدأ تنتابه وساوس موعد الرحيل عن الحياة. فى قصيدة «أوضاع فى السرير»، يقود البحث المستمر والمسلى للشاعر عن طريقة مريحة للنوم الشاعر إلى أفكار حزينة حينما «نجد/ أنفسنا نهرب من النداء المرهق للجسد». وبالرغم من ذلك، من مشهد الموت هذا، ينمو تصميم للابتهاج باللحظة المعاشة وتقدير «مسألة الحياة» بشكل كامل.

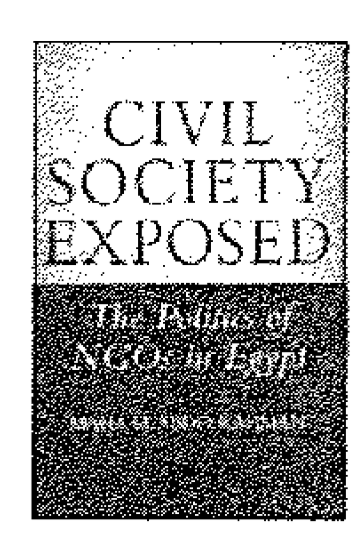
جون فيلر هو شاعر معروف، حيث صدر له أربعة عشر ديوانا، كان آخرها «الآن ولوقت آخر» عام ٢٠٠٢، كما حاز ديوانه «الأحجار والحرائق» على جائزة فوروارد الشعرية عام ١٩٩٦.

Civil Society Exposed.. The Politics of NGOs in Egypt

(سبر أغوار المجتمع المدنى.. السياسات الخاصة بالمؤسسات غير الحكومية فى مصر)

Maha M. Abd Elrahman

AUC Press



يتناول هذا الكتاب بشكل نقدى الجدال الدائر حول مدى علاقة المجتمع المدنى بالبرامج الخاصة بالتغيير السياسى ودور وكلائها المعروفين من المنظمات غير الحكومية فى تعزيز البرامج التقدمية. تحلل مها عبد الرحمن الحالة العملية لمصر فى إطار أوسع مستندة على علم الاقتصاد السياسى والعلاقات بين الدولة والمجتمع من أجل الوصول إلى يقين عما إذا كانت تجربة مؤسسات المجتمع المدنى، والمؤسسات غير الحكومية بشكل خاص تثبت صحة الجدل السائد فى الدوائر الأكاديمية والسياسية بأن المجتمع المدنى هو المصدر الرئيسى للتحولات الاجتماعية والسياسية.

وتتساءل المؤلفة عبر صفحات الكتاب لمصلحة من يخدم ويمثل مشروع المجتمع المدنى والمنظمات غير الحكومية التى تعمل فى هذا الإطار؟ من الذى ينتفع من تقدمه؟ هل هى الجماهير الفقيرة التى لا تتمتع بأية ميزات والتى همشتها سياسات الدولة عبر زمن طويل؟ هل هى الطبقة الوسطى المهنية؟ أم القوى العالمية المسيطرة، التى تسعى المؤسسات الدولية والمتعددة الجنسيات تسعى إلى فرض سيطرتها على النظام العالمى؟

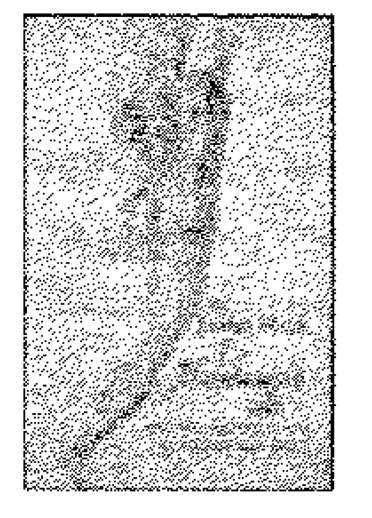
تصل المؤلفة إلى استنتاج يفضى بأن المجتمع المدنى يشكل فى الحقيقة بيئة سياسية تتميز بميولها التسلطية والقمعية. الأكثر من ذلك أن مؤسساته، مثل المنظمات غير الحكومية تندمج عادة بشكل فعال فى إعادة إنتاج علاقات غير متساوية وتعزيز الوضع الراهن الذى لا يتسم بالعدالة أكثر من تقديمها لبدائل لأنظمة السلطة السائدة. تعمل مها عبد الرحمن كأستاذ مساعد فى علم الاجتماع بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.

Michelangelo and Reinvention of the Human Body

(مايكل أنجلو وإعادة اكتشاف الجسد الإنسانى)

James Hall

Chatto&Windus, £ 25.00 336pp, 2004



يعد فن مايكل أنجلو من الأعمال الساحرة، ولكنه مثير للارتباك أيضاً. ولكن ما هو مصدر هذه القوة التى لا يمكن مضاهاتها؟ فى هذه الدراسة التحليلية والمفصلة، يكتشف جيمس هال الناقد الفنى، بعضا من تلك الأمور المحيرة: نساءه اللائى يتسمن بالصرامة ونقص ملامحهن الأمومية، اهتمامه بالمقاييس والأحجام الضخمة والطريقة التى أثر بها تصنيفه التشريحى على تعامله مع الجسم الإنسانى، وأخيرا ولعه بوضع الشخصيات البطولية وحيدة فى مقابل خلفية من التزاحم المزعج.

و فى مسار تحليله، يصل هال إلى تقدير أكثر تحديدا للغة الجسد الخاصة بمايكل أنجلو، ويقدم شروحات جديدة للكثير من الأعمال النحتية والتصويرية المعروفة ومنها الصور الأخيرة للمسيح المتوفى.

فى هذا الكتاب يرفض هال الفكرة السائدة عن الفنان السوبرمان الذى تستحوذ عليه قوى عقلية ومادية هائلة، مجسدا الروح المؤثرة فى عصره، ويطيح أيضا بالرأى الذى ساد لفترة طويلة بأن أنجلو هو شخصية فنية رائعة ولكنه غير متوازن وتستحوذ عليه فكرة تصوير الجسد الذكرى العارى. بدلا من ذلك، يعيد هال تعريف أنجلو بأنه الفنان الوحيد الذى وضع الجسد الإنسانى محل الصدارة والمركزية فى أعماله.

قـــــــراءة ..

لا شـــيء يـدعـــو للتفـــاؤل

هاهم اللبنانيون في بيروت يرفعون أصواتهم. لا ضد إسرائيل أو أمريكا - بل ضد سورية! (والملاحظة للنيوزويك الأمريكية في افتتاحيتها الأخيرة) والحقيقة أن شيئاً لا يختلف عن هذا كثيراً حدث ويحدث. وإن اختلف السياق - في عواصم عربية أخرى. حيث مشاعر الضجر من أوضاع داخلية ضاغطة طغت على مشاعر وطنية كامنة.

مات رفيق الحريري.. ورغم أن قائمة الاغتيالات السياسية في لبنان مزدحمةً وطويلة (كمال جنبلاط وبشير الجميل ورينيه معوض ورياض الصلح ورشيد كرامي.. إلخ) وكان اغتيال ابن بلدته «معروف سعد» مقدمة للحرب الأهلية المختلطة الأوراق، إلا أن الأمر بدا هذه المرة. وفي عالم مختلف. مختلفاً. فبعد أن كانت لبنان الصغيرة الوديعة لعقود طويلة ساحة تصفية للحسابات الإقليمية والدولية، وكانت حوادثها «رجع صدى» للتوترات والصراعات على اختلافها، بدت هذه المرة وكأنها «مركزٌ» لما سنسمع أصداءه حتماً في الجوار وما بعد الجوار، كزلزال لا مهرب من توابعه.

مات رفيق الحريري.. وكأي حادث طريق، قد لا نعرف أبداً كيف حدث، إلا أننا نبدأ قطعاً وفوراً في حصر الضحايا وحساب النتائج. وقائمة الضحايا هنا طويلةٌ ومهمة.. ومؤثرةٌ في توازنات دقيقة لمنطقة يُكتب الآن فصلٌ مهمٌ من تاريخها. وإن كان لا شك هناك في أن السوريين (فعلوها أم لم يفعلوها) سيكونون أول الضحايا، فإن «حزب الله» على الأرجح لن يكون آخر القائمة الطويلة.

كأي جريمة، يبقى البحث عن الجاني هو البند الأهم على جدول المحققين. أما المراقبون فينشغلون عادة بالنتائج.. وباليوم التالي. سياسياً. وفي عالم لم يعد ينتظر - لم يعد «من فعلها؟» هو السؤال الأهم (وإن بقيت له أهميته العدلية). وإنما السؤال الأهم: «ماذا بعد..؟».

ليس خروج السوريين من لبنان - بيروته وجنوبه - كما ينادي المجتمعون في «البريستول»، نهاية المطاف. بل هو أوله على الأرجح. بعد أن بادر الجميع «القريب والبعيد» عشية الجريمة، بارتداء «قميص الحريري». لا أحد يجادل أن النظام القائم في دمشق يزعج واشنطن وتل أبيب. واغتيال الحريري فرصة للتخلص من الإزعاج. أو على الأقل إقصائه عن المسرح. وحزب الله الذي يبدو «نغمة نشازاً» في الأوركسترا الشرق أوسطي الجديد، سيصيبه بالقطع كثيرٌ من شظايا الانفجار الذي لم يودِ بحياة الحريري فقط، بل لعله سيودي أيضاً بمستقبل المنظمات الفلسطينية المتمركزة في دمشق، أو على الأقل سيؤثر على فعاليتها.

ليس بعيداً عن هذا مسارعة إسرائيل باتهام حزب الله بالمسؤولية عن عملية الملهى الليلي الأخيرة. والتي بدت نشازاً وخارجة عن السياق. وليس بعيداً عن هذه المطالبة الإسرائيلية. أو فلنقل الشرط الإسرائيلي - القاضي بتفكيك فصائل المقاومة الفلسطينية، قبل المضي قدماً في خطوات «جدية» للتسوية.



لا شيء يدعو للتفاؤل..

لأننا قد لا نعرف أبداً من فجر موكب الحريري ولأننا لانعرف - على وجه اليقين - من يفجر السيارات في العراق؟! بعد أن غامت الرؤى وضاعت المسافة الفاصلة بين المقاومة والترويع. لا شيء يدعو للتفاؤل. لأن الذاهبين إلى مقاعد الحكم في «العراق الجديد» هم أول من مارس التفجير والتفخيخ هناك. فأول سيارة مفخخة كانت باكورة نشاطات «حزب الدعوة» حين فجرها أمام وزارة التخطيط في قلب بغداد عام ١٩٨٠. وأول انتحاري قاد شاحنة ملغومة ليفجرها أمام الإذاعة العراقية (١٩٨٣) أرسله «فيلق بدر - المجلس الأعلى». و«حزب الوفاق/ علاوي» قام بتفجير لأتوبيس مدرسة. و«حزب المؤتمر» فجر سيارة ملغومة أمام فندق ميرديان ليلة عيد الميلاد عام ١٩٩٣.. كأنما هو قدر المواطن العربي.

لا شيء يدعو للتفاؤل.. لماذا؟

لأن رئيس الوزراء المجري (لايهم اسمه) وصف اللاعبين السعوديين بعد مباراة «كرة قدم» بين البلدين بأنهم «إرهابيون عرب»!

ولأن متعصباً مثل الكاتب الأمريكي جوزيف جوف وجد ضالته في عيوبنا التي تبدو مزمنة كي يدافع عن وجود إسرائيل في مقال اختارته النافذة Foreign Policy ليكون موضوع غلافها الأخير.

يتساءل جوف: هل يستطيع أي شخص أن يعلن بضمير صاف أن عناصر العجز في العالم العربي ستختفي مع اختفاء إسرائيل؟ ويجيب في المجلة الأمريكية المهمة إن تقريرين عن التنمية الإنسانية العربية صادرين عن الأمم المتحدة يقولان إن الكوارث العربية صناعة محلية. إذ إن للركود وفقدان الأمل أسبابا أولها نقص الحرية المتمثل في استقرار أتوقراطيات مطلقة وانتخابات مزورة وقضاء مرتهن للسلطة التنفيذية وقيود على المجتمع المدني، وثانيها هو الافتقار إلى المعرفة: ٦٥ مليوناً من البالغين أميون. ونحو ١٠ ملايين طفل لم يلتحقوا بمدارس على الإطلاق.

ويحرص الأستاذ الأمريكي في ستانفورد. والذي نشر مقاله قبل اغتيال الحريري - على أن ينكأ جراحاً عربية قديمة مذكراً «بـ ١٤ عاماً من سفك الدماء الطائفي في لبنان. وبأن الحرب العراقية الإيرانية كانت هي الحرب الإقليمية الأطول في القرن العشرين. وبأن النظام السوري ذبح ٢٠ ألفاً من الإخوان المسلمين في حماه عام ١٩٨٢ - وأن المعتقلات العربية من المحيط إلى الخليج مزدحمة بالمناوئين». محاولاً أن يخلص إلى أن إسرائيل ليس لها علاقة «سببية» بكل هذا. «فجيش صدام لم يزحف نحو القدس، والجماعة الإسلامية في الجزائر لم تذبح غير مواطنيها».

كلام الأستاذ الأمريكي في الـ PF (وهو مغرضٌ بلا شك) ليس موجهاً إلى القارئ في عالمنا العربي. ولا إلى متخذي القرار في تلك المنطقة التي «لا يقررُ فيها غير حاكميها» وإنما - وهذا مهم. هو يحاول أولاً أن يوئد أفكاراً تظهرُ في الغرب أحياناً حول «مسؤولية أفعال إسرائيل عن العداء لأمريكا في المنطقة» وهي الفكرة التي يتبناها تقريباً كل من أجاب من العرب على السؤال الأمريكي الممل «لماذا تكرهوننا؟!». وهو يحاول ثانياً أن يرد على أفكار لمفكرين مثل البرازيلي خوسيه آرثر جيانوتي الذي أطلق دعوة بعد ١١ سبتمبر تقول «إن التاريخ كان سيختلف كلية لو لم تظهر إسرائيل التي نكأت جرحاً بين الإسلام والغرب. وإننا لن نستطيع التخلص من الإرهاب الإسلامي من دون التخلص من الجرح الذي هو مصدر إحباط الإرهابيين المحتملين».

لا شيء يدعو للتفاؤل..

حين يسمح واقعنا العربي لجوزيف جوف أن يكتب ما كتب. وحين تسمح أنظمتنا العربية للوزير الإسرائيلي اليميني المتطرف ناثان شارانسكي بأن يقنع جورج دبليو بوش «حاكم العالم الأوحد» بأن لا مشكلة في الشرق الأوسط إلا افتقاد مواطنيه للحرية والديموقراطية «الحقيقية» التي يعرفها الإسرائيليون: «حيث لا سلطة مطلقة، وحيث يستطيع البرلمان - فعلياً لا صورياً - سحب الثقة من الحكومة، وحيث يمكن للسلطات القضائية - فعلياً لا صورياً - ملاحقة رأس الدولة، وحيث...» يصبح لا مجال للتفاؤل.

وحين يعتبر رئيس الولايات المتحدة أن كتاب الوزير الإسرائيلي هو «مانيفستو» ولايته الثانية. معلناً غير مرة ضرورة الحفاظ على التفوق العسكري الإسرائيلي لأنها «الدولة الوحيدة الديموقراطية في المنطقة!» وحين يفعل بعضنا في «الداخل» مايجعله مضطرا لأن يسمح «للخارج» بأن يتدخل متجاوزا سيادةً أضعفتها قوانين عولمية، وأنهكتها تجاوزات الاستبداد والفساد، وصفقات التنازل حفاظا على السلطة لا غيرها، يصبح لا مجال للتفاؤل.



لا شيء يدعو للتفاؤل..

وإن كان ما يبدو عكس ذلك، فوسط زحام الحواريين، وضباب حملة البخور، لا مكان لثقافة أن «صديقك من صدَقك لا من صدّقك» فالحلقات المفرغة ذاتها التي عاشها عالمنا العربي لعقود «دولاً وأمة» هي ذاتها، رغم ما يبدو على السطح من مساحيقَ يعمد محترفوها الحاذقون أن تكون زاعقة. ورغم دقات الطبول العالية لأعراس الديموقراطية الزائفة. إذ يعرف الريفيون في شرقنا العربي أن دقات الطبول رغم دويها، وأهازيج العرس رغم صخبها، لم تفلح يوماً في أن تخفي حقيقة العروس. هل تذكرون إعلام صدام حسين؟ وهل تذكرون أنه قبل أشهر فقط من سقوط بغداد كان قد انتخب بأغلبية ساحقة رئيساً لكل العراقيين(!)

لا شيء يدعو للتفاؤل.! كيف وصلنا إذن إلى هنا؟

باغتني زائري «البحريني» قبل أيام. مذكراً بأن الأملَ كان ينبتُ دوما على ضفاف النيل - قارئا علي بيت حافظ إبراهيم الشهير:

«أنا إن قدّرَ الإلهُ مماتي.. لا ترَى الشّرقَ يرفعُ الرأسَ بعدي»

أيمـــن الصيـــاد